

منتدى مكتبة الاسكندرية

البرنومورافيا

الاحتقار



دار الآداب



Bibliotheca Alexandrina

الامتياز

البرقوموزافيا

الاعتقار

رواية

منشورات دار الآداب - بيروت

الحقوق محفوظة
لدار الآداب - بيروت

الطبعة الثالثة
١٩٨٦

الفصل الأول

أستطيع اليوم ان أؤكد ان علاقتي بزوجتي ، خلال العامين الاولين من زواجنا ، كانت ممتازة . أعني ان انسجام حواسنا الكامل والعميق ، طوال هذين العامين ، كان مصحوباً بهذا الإظلام ، او بعبارة أفضل ، بهذا الصمت للذهن الذي يعلّق ، في مثل هذه الظروف ، كل نقد ، ويلجأ الى الحب وحده ليحكم على الشخص المحبوب . لقد كانت اميلي تبدو لي بلا نقائص على الاطلاق ، وأظن اني كنت ابدو كذلك في نظرها . او انني ربما كنت ارى عيوبها وترى عيوبي ، ولكن بفضل تحول عجيب معزوّ الى الحب ، كانت تلك العيوب تبدو لنا كليتنا مغتفرة ، بل محبوبة ، كما لو انها بدلاً من ان تكون نقائص ، كانت مزايا من نوع خاص . وبالاختصار : لم يكن احدنا يحكم على الآخر : كنا متحابين . وغرض هذا الكتاب ان يروي كيف ان اميلي ، بينما كنت مستمراً في حبها وفي عدم الحكم عليها ، اكتشفت على العكس ، او ظنّت انها تكشف عدداً من عيوبي ، فحكمت عليّ ، وبالتالي كتفت عن ان تحبني .

ان المرء بقدر ما يزداد سعادة يقلّ اهتمامه بسعادته . ومن الممكن ان يبدو غريباً انني خلال هذين العامين ، داخلي حتى الاحساس بأنني كنت

أعاني السأم . اجل ، اني لم اكن احس* بسعادتي . فاذا كنت احب زوجتي وكنت محبوباً منها ، كنت احسب اني افعل كالجميع ؛ وكان هذا الحب يبدو لي واقعةً مشتركة ، عادية ، من غير ان يكون فيها شيء ثمين بصورة خاصة ، كالهواء الذي نتشقه والذي ليس هو عظيماً ولا يقدر بثمن الا حين نفتقده . وفي ذلك الحين ، لو نهني أحدٌ الى اني كنت سعيداً ، لاستغربت ، ولأجبت ، على الارجح ، بأني لم أكن املك السعادة ، لأنني اذ كنت احب زوجتي وتستجيب هي لي ، لم اكن املك طمأنينة الغد .

وكان هذا صحيحاً ، فقد كنا لا نكاد نقوم بأودنا من مهنتي العاقبة كناقد سينائي في جريدة يومية من الدرجة الثانية ، ومن أعمال صحفية من الطراز نفسه . كنا نعيش في غرفة مؤنثة تابعة لمؤجر شقق مفروشة ، وكان المال غالباً ما يتقصنا للتفقات الاضافية ، وحتى احياناً للضروري . فأني لي ، والحالة هذه ، ان اكون سعيداً ؟ والواقع اني لم أشك من وضعي كما كنت اشكو في تلك الفترة التي كنت فيها - كما استطعت ان ادرك ذلك فيما بعد - سعيداً غاية السعادة وأعمقها .

وفي نهاية هذين العامين من حياتنا الزوجية ، تحسنت ظروف حياتنا في آخر المطاف . فقد تعرفت على باتيستا ، وهو منتج افلام ، وكتبت لحسابه السيناريو الاول الذي وضعته ، وهو عمل كنت اعتبره آنذاك موقتاً ، ثم اصبح على العكس مهنتي . على ان علاقتي باميلي ، في الفترة نفسها ، بدأت تتغير على نحو مؤسف . والحق ان حكايتي تبدأ تماماً بأسول عهدي بمهنتي كمؤلف سيناريو ، وبالبرود الاول في علاقتنا الزوجية ، وهما حدثان متعاصران تقريباً ، وسرى فيما بعد انهما على صلة مباشرة فيما بينهما .

واذا ارتدت ذاكرتي الى مجرى الزمن ، يخيّل اليّ اني احتفظ بذكرى مشوشة لحادث بدا لي ساعة وقوعه تافهاً ، ولكنه حمل فيما بعد أهمية

حاسمة بالنسبة لي .

اني اتملني على رصيف شارع من شوارع وسط المدينة . وكنا ،
انا واميلي وباتيسا ، قد تناولنا العشاء في المطعم ، وقبلنا اقتراح باتيسا
بإنهاء السهرة في بيته . وها نحن الثلاثة امام سيارة باتيسا ، وهي سيارة
حمراء انيقة مرفقة ، ولكنها ضيقة وذات مقعدين فقط . وجلس باتيسا
امام المقود ، ثم انحنى وفتح الباب وهو يقول :
- آسف يا موليتيني ، ليس لديّ الا مقعد واحد .. فعليك ان تصل
الى بيتي بوسائلك الخاصة ... الا اذا كنت تفضل ان تنتظرنني هنا؛ ففي
هذه الحالة ، سأعود لاصطحابك .

وكانت اميلي الى جانبي ، وهي ترتدي ثوباً من الحرير الاسود ،
عاري الكتفين وبلا اكمام ، وهو الثوب الوحيد الذي تملكه ، وكانت
تحمل على ذراعها معظمها القرو . وكنا في شهر تشرين الاول ، وكان
الجو ما يزال حاراً . وقد نظرت اليها ، فلاحظت ، ولا ادري السبب ،
ان جهاها المظمن الهاديء في العادة قد تعكر بحيرة وقلق ، بنوع من
الاضطراب الغريب . وقلت بمروح :

- اذهبي اذن يا اميلي مع باتيسا .. وسألحق بكما في سيارة أجرة .
فنظرت ليلي اميلي ، ثم اجابت بلهجة مغتصبة :
- أليس من الافضل ان يسبقنا باتيسا ، وان نستقل نحن الاثنتين
سيارة اجرة ؟

وهنا أخرج باتيسا رأسه من باب السيارة وهتف مازحاً :
- هذا لطيف ! انكما تريدان ان تتركاني وحدي ؟...

فأجابت اميلي :

- لا ، ولكن ...

ولاحظت فجأة ان وجهها الجميل ، الهاديء المنسجم عادة ، قد
أظلم وبدأ متحلاً ببلبلة تكاد تكون مؤلمة . ولكي كنت قد نطقت بعبارتي :

— ان باتيستا على حق ، فهيا ، اذهبي معه . وانا سأخذ سيارة .
اني اذ اكتب هذه السطور ، يعاود ذاكرتي احساس جديد : فعندما
جلست زوجتي الى جانب باتيستا ، وكان الباب ما يزال مفتوحاً ، رميتي
بنظرة تحمل في وقت واحد التردد والرجاء والاتزعاج . وقد تجاهلتُ
ذلك ، واغلقت الباب الثقيل ، بالحركة العازمة نفسها التي يعلق بها المرء
خزنة حديدية . واقلعتُ السيارة . فاجهتُ الى اقرب محطة لسيارات
الاجرة ، وانا ارسل من بين شفتي صغيراً فرحاً .

ولم يكن بيت المنتج بعيداً عن المطعم ؛ وكان المفروض ان أصل
بعد باتيستا توأ ، ان لم يكن في الوقت نفسه . ولكن حدث اصطدام
وقع وانا في منتصف الطريق ، عند احد المفاوق . فقد تصادمت السيارة
التي استقلتها مع سيارة خاصة ، فاصيبتا كلتاهما بأضرار : «جلف»
جناح التاكسي وسطح ، بينما تضرر باب السيارة الاخرى . وترجّل
السائقان وتجاها وتناقشا ، ثم تشامتا ؛ واسرع الناس اليهما ، وتدخل
شرطي ليفصل بينهما في مشقة ، ثم اخذ اسميهما وعنوانيهما . وفي هذه
الاثناء ، ظللت انتظر في السيارة من غير تقاد صبر ، تكاد تغمرني
الغبطة ، لاني كنت قد اكلت وشربت جيداً ، وكان باتيستا قد عرض
عليّ في نهاية العشاء ان اشارك في سناريو فيلمه . وفي هذه الاثناء ،
كان الحادث وما تلاه من مناقشات قد استغرق من عشر دقائق الى ربع
ساعة ، فوصلت منزل المنتج متأخراً .

واذ دخلت غرفة الاستقبال ، رأيت اميلي جالسة على اريكة ، مشتبكة
الساقين ، وباتيستا واقفاً في ركن من القاعة ، امام بار نقال . وقد
حياتي بجذل ؛ اما اميلي فقد سألتني بلهجة شاكية ، شبه مبتهلة ، عما
فعلته طوال هذا الوقت . وقد اجبت في استخفاف بأنه قد حصل لي
حادث صغير . واحسست اني اتكلم على نحو هروبي ، كما لو كان
لديّ ما اخفيه . والواقع اني لا اعلّق اية أهمية على اقوالي . ولكن

اميلي الحّت ، باللهجة الفريدة نفسها :

– حادث ؟ اي حادث ؟

فدهشت لذلك ، بل تنبّهت . ورويت ما حدث . غير اني اعطيت هذه المرة اكثر مما ينبغي من التفاصيل : فكأنني كنت أخاف ألا أصدّق . وادركت اخيراً اني كنت اخرق ، سواء بايجازي الاول ام بتفاصيلي الدقيقة الثانية . ولكن اميلي لم تلح ، ووضع باتيستا ، وهو يفيض ودأ وابتسامات ، ثلاثة اقداح على الطاولة ودعاني الى الشرب . وجلست ، ومرت ساعتان ونحن نثرثر ونتبادل المزاح ، ولا سيما انا وباتيستا . وكان هو من فرط الجذل والتدفق بحيث لم الاحبظ تقريباً ان اميلي لم تكن كذلك . والحق انها، لحياقتها ، ذات طبيعة اقرب الى الصمت والانغلاق ، ولهذا لم ادهش لتحفّظها . على اني مع ذلك استغربت بعض الشيء الا تشاركنا حديثنا ، على الاقل بالبسمة والنظرة ، على مألوف عاداتها : انها لم تبسم ، ولم تولنا نظرة ، واكتفت بأن تدخن وتشرب في صمت ، كما لو انها كانت وحدها .

وفي آخر السهرة ، حدثني باتيستا حديثاً جدياً عن الفيلم الذي ينبغي ان اشترك فيه ، قروى لي موضوعه ، واعطاني معلومات عن المخرج وعن زميلي السيناري ، وانتهى بدعوتي الى زيارته في مكتبه في اليوم التالي لتوقيع عقدي . وانتهزت اميلي فرصة لحظة الصمت التي تبعت هذه الدعوة لتنهض وتقول انها متعبة وانها راغبة في العودة الى البيت. فاستأذنتا باتيستا في الذهاب وهبطنا .

وحين خرجنا الى الشارع ، مشينا من غير ان نتبادل كلمة حتى محطة السيارات ، فاستقلنا سيارة انطلقت بنا . وكنت قد جُنت فرحاً من اقتراح باتيستا الذي لم اكد آمله، ولم استطع الامتناع عن ان اقول لاميلي: – ان هذا السيناريو يأتي في اوانه ... فلست ادري كيف كنا نستطيع الاستمرار في الحياة ... كنت سأجبر على اللجوء الى الاستدانة.

وجواباً على ذلك ، اكتفت اميلي بأن سألتني :
— ما هو التعويض الذي يُدفع لقاء وضع سيناريو ؟
فذكرت لها رقماً وأضفت :
— ها هي مشكلتنا قد حُلّت ، لهذا الشفاء على الأقل
وفي الوقت نفسه ، بحثت يدي عن يد اميلي فضمتها . وتركتني
افعل ، ولم تنطق بعد ذلك بكلمة حتى بلغنا البيت .

الفصل الثاني

بعد تلك الأمسية ، جرى كل شيء على ما يرام ، بالنسبة لعملي . ففي اليوم التالي قصدت مكتب باتيستا ، فوقعت العقد وقبضت سلفتي الأولى من أصل تعويضي . وكانت القضية ، اذا لم تحي الذاكرة ، قضية فيلم قليل الهمية ، من النوع الكوميدي - العاطفي ، وهو نوع لم اكن اعتقد انه ينسجم مع فكري الجاد ، ولكنه في اثناء العمل كشف لدي ، بعكس ذلك ، موهبة لا شك فيها . وفي اليوم نفسه ، اجتمعت اول اجتماع بالمرحج وبالسيناري الآخر .

وفيما يمكنني ان أؤرخ تاريخاً دقيقاً ببدء عملي كسيناري ، أقصد الأمسية التي قضيناها لدى باتيستا ، يصعب علي كثيراً ان احدد بالدقة نفسها الوقت الذي بدأت فيه علاقاتي مع زوجتي تتسم . ان بامكاني طبعاً ان اعود بذلك الى الامسية نفسها ، ولكن ذلك سيكون بمثابة حكم أكيد ، كما يقال ، لا سيما وان اميلي لم تُظهر ، طوال فترة اخرى من الزمن ، اي تغير في مسلكها معي . ومن المؤكد ان هذا التغير قد تحقق خلال الشهر الذي تبع تلك الأمسية العتيده ، ولكنني لا استطيع ان احدد حقاً في أية لحظة اهتزت كفتا الميزان في نفس اميلي ، ولا الذي سبب

انقطاع التوازن ذاك .

كنا في تلك الفترة نرى باتيستا يومياً ، على وجه التقريب ، وبوسعي ان اروي بتفاصيل كثيرة فصولاً اخرى شبيهة بالفصل الذي سبق ان ذكرت ، وهي فصول لم تتميز بشيء ، في نظري على الاقل ، عن اللون العام في حياتي ، ولكنها اكتسبت ، فيما بعد ، بروزاً ومعنى خاصين . واود فقط ان اسجل امراً : ففي كل مرة كان باتيستا يدعونا فيها - وكان ذلك غالباً ما يحدث الآن - كانت اميلي تُظهر بعض الاستياء في أن تصحبي . صحيح ان مقاومتها لم تكن قوية ولا مصممة ، ولكنها كانت ثابتة ثباتاً غريباً في تعبيراتها وتبريراتها . فلكني لا تصحبتنا كانت دائماً تجد عذراً ما لا علاقة له ألبة باتيستا ، وكنت ادلل لها دائماً في يسر ان عذرهما كان واهياً ، وكنت ألح لكي اعرف اذا لم يكن العذر الحقيقي كراهية لباتيستا ، وكانت في كل مرة تجيب على سؤالي ، بظل من التبرم ، انها لم تكن تكره باتيستا ، وانها ليس لديها ما تؤاخذ عليه ، وانها انما كانت ترغب الا تخرج معنا ، لان هذه الامسيات كانت تنعجبها ، وكانت في الحقيقة تستمها ولم اكن اكتفي بهذه التفسيرات الغامضة ، وكان يتفق لي غالباً ان اوميء الى ان شيئاً ما لا بد ان يكون قد حدث بينها وبين المنتج ، حتى من غير ان يكون هذا الاخير قد اراد ذلك او احس به . ولكني كلما ازددت محاولة لاقناعها بانها لا تكن "الود" لباتيستا ، بدت اميلي اشد تشبهاً في انكاراتها : كان تبرمها ينتهي بالزوال تماماً ليخلف عناداً وتصميماً شديداً . واذ كنت اطمئن كل الاطمئنان الى عواطفها تجاه باتيستا والى مسلك هذا تجاهها ، كنت احرص على ان افسر الاسباب التي تجيء في صالح مشاركتها ايانا في امسياتنا ، فحتى ذلك الحين ، لم اكن قد خرجت قط بدونها ، وكان باتيستا يعرف ذلك ... كان يسره ان يراها ، لانه لم يكن ينسى قط ان يوصيني كلما دعاني بقوله :

- انك بالطبع ستصحب زوجتك ...

وكان يمكن اعتبار هذا الغياب اللامتظر والذي يصعب تفسيره احتقاراً او حتى اهانة نحو باتيسا الذي كانت حياتنا متوقفة عليه بعد الآن ... وبالأجمال ، لما لم تكن قادرة على ان تقدم لي سبباً منطقياً لغيابها ، ولما كنت بالمقابل قادراً على ان اقدم اسباباً عديدة وممتازة لحضورها ، فقد كان من الحكمة ان تتحمل التعب والسأم اللذين كانت هذه الامسيات تنتجانها .

وكان من عادة اميلي ان تصغي الى حججي بتنبه حالم ، مستغرق تقريباً ، فكأنها كانت مهتمة ببراهيني اقل من اهتمامها بوجهي وحركاتي.. ثم ان الامر كان ينتهي بها دائماً الى الاستسلام لرأيي ، وتبدأ في صمت بارتداء ثيابها تمهيداً للخروج . وعند لحظة الذهاب ، اذ تكون قد اصبحت مستعدة ، كنت أسألها مرة اخيرة ان كان لا يُضجرها حقاً ان تصحبي ، لا لأنني كنت واثقاً من جوابها ، بل لأنني لم اكن اريد ان اترك لها شكاً بشأن حريتها في التصرف . وكانت تجيبني جواباً قاطعاً بأن ذلك لم يكن يزعجها ، فكنا نخرج آنذاك .

لقد سبق ان قلت اني بنيت هذا كله من جديد فيما بعد وانا التمس الهامساً دائماً في ذاكرتي اثر وقائع كانت تافهة آنذاك وقد حدثت في حينها من غير ان تسرعني انتباهي . وكل ما لاحظته في تلك الفترة هو تغير مزعج في مسلك اميلي نحوي ، من غير ان استطيع تفسيره او تعريفه على اي نحو : هكذا يتنبأ المرء باقتراب العاصفة في سماء ما تزال صافية من مجرد تغير الجو وثناقله . وقد اخذت افكر بأن زوجتي كانت تحبني اقل من السابق لأنني لم اعد اجدها قلقة على الا تتركني كما كان يحدث في العهود الاولى من زواجنا . فاذا كنت اقول لها آنذاك :

- اسمي ، ان عليّ ان اخرج ، وسأغيب ساعتين ، ولكني سأعود
بأقرب وقت ممكن ...

لم تكن لتحتج ، مستسلمة ، ولكن وجهها الذي كان يغشاه الظلم
كان يتمّ عن الاسى الذي تخلّفه غيبي . حتى اني غالباً ما كنت اعدل
عن الخروج ، واتحرر كما استطعت من مواعي المضروب ، او انني
كنت ، اذا استطعت ، اصحبها معي . وقد كان تعلقها شديداً جداً
حتى اني ذات يوم وقد صحبتني الى المحطة التي كنت اغادرها
في رحلة قصيرة الى ايطاليا الشالية ، رأيتها في لحظة الوداع تدير رأسها
لتخفي الدموع التي كانت تملأ عينيها . وفي تلك المرة ، تظاهرت
بأنني لم الاحظ حزنها ، ولكني طوال الرحلة احتفظت بالندم من تلك
الدموع المخبأة التي لم تكن قابلة للقهر ، ومنذ ذلك الحين كففت عن
السفر بدونها .

اما الآن ، فاذا ابلّتها نبأ سفر ما ، فانها بدلاً من ان ارى
وجهها الحبيب تغشاه غشاوة خفيفة من الانزعاج والحزن ، تكفي بأن
تجيبني في هدوء ، وغالباً من غير ان ترفع عينيها عن الكتاب الذي
تقرأ فيه :

- حسناً .. سنلتقي ثانية عند العشاء ، فلا تتأخر .

بل كانت تبدو احياناً وكأنها راغبة بأن تمتد غيبي الى ما بعد توقعي.
كنت اقول لها مثلاً :

- عليّ ان اخرج ، وسأعود في الساعة الخامسة .

فتجيبني :

- ابقى في الخارج ما حلاك ، فلديّ ، من جهتي ، ما أعمله .

وذات يوم نهبتها بلهجة خفيفة الى انها تبدو وكأنها تفضل غيابي ؛

ولكنها اجابتنني في حيوية بأني ما دمت على نحو او آخر مشغولاً معظم
النهار في الخارج ، فقد كان يجب علينا ان نكتفي باللقاء في ساعة الغداء
او العشاء ، وسيكون بوسعها هكذا ان تنصرف بهدوء الى اعمالها ...
ولم يكن هذا صحيحاً الا بنسبة النصف : فان عملي كسيناري لم يكن
يجبرني على الخروج الا بعد الظهر ، وكنت حتى ذلك الحين قد تدبرت
امري دائماً بحيث اقضي مع زوجتي بقية النهار . غير انني ، منذ تلك
اللحظة ، اخذت اخرج كذلك في الصباح .

وفي العهد الذي كانت اميلي تبدي فيه استياء من غيابي ، كنت
اتركها خفيف القلب ، مسروراً حقاً بهذا الاستياء كما لو انه برهان
اضافي على الحب العظيم الذي كانت تحمله لي . ولكن منذ ان لاحظت
انها لم تكن تكتفي بعدم اظهار اي حزن ، بل كانت تبدو
وكأنها تفضل وحدتها ، بدأت استشعر ضيقاً أصم ، كمن يحس الارض
تמיד تحت قدميه . كنت اخرج الآن كل صباح ، كما سبق ان ذكرت ،
بالاضافة الى خروجي بعد الظهر لأجل عملي ، وذلك لا لغاية اخرى الا
لأنثبت من لامبالاة اميلي الجديدة ، تلك اللامبالاة التي كانت شديدة
المرارة بالنسبة لي . انها لم تكن تُظهر بعدُ اي انزعاج ، بل كانت
تقرّ غيابي بكل وداعة بل ربما بعزاء لم تكن تُحسّن اخفاه ، على
ما بدا لي . وسعيت اول الامر الى ان اتعزى من هذه البرودة باقتناع
تفسي بأن الحب ، مهما كان رقيقاً ، يُحل محله العادة بعد عامين من
الزواج ، وان وثوق كل من الزوجين من انه محبوب من الآخر ،
يتزع من الحب اي طابع حماسي في علاقات هذين الزوجين . ولكنني
كنت اشعر بأن ذلك لم يكن صحيحاً ؛ كنت اشعر بهذا أكثر مما كنت
افكر به ، لان الفكرة في دقتها الظاهرة اكثر قابلية للخطأ من الاحساس
الغامض المعتكر .

واذن ، فقد كنت أحس بأن اميلي قد كفت عن الشكوى من

تعبي ، لا لأنها كانت تعتبره لازماً ولا مفر منه وليس له من تأثير
على صميميتنا ، بل لأنها كانت تحبني اقل من ذي قبل ، او كانت لا
تحبني بعد .
ومع ذلك ، فلا بد ان يكون قد حدث شيء ما قد غير عاطفتها
التي كانت من قبل ملتهبة جارفة .

الفصل الثالث

في الفترة التي لقيت فيها باتيستا للمرة الاولى ، كنت في وضع على غاية الصعوبة ، اذا لم اصفه بأنه موثس ، ولم اكن ادري كيف أخرج منه . وكانت مصاعبنا تكمن في اني كنت قبل ذلك بردح من الزمن قد اشترت شقة بالتقسيط ، من غير ان املك المبلغ الاجمالي الضروري ، ومن غير ان اعرف الطريقة التي بها أستطيع ان احصل على المبلغ . وكنا خلال عامين قد سكنا غرفة كبيرة مؤثثة في بيت مفروش . وقد كان جديراً بأمرأة غير زوجتي ان تشكو من اقامة موقته كهذه الاقامة؛ اما اميلي، فأعتقد أنها اذ قبلتها ، قد قدّمت لي انصع دليل حبّ تستطيع امرأة ان تعطيه زوجها . والحق ان اميلي كانت نموذج ربة البيت ، وقد كان في حبها لبيتها اكثر من الميل الطبيعي المشترك بين جميع النساء ، شيء أشبه بهوس عميق . نوع من النهم الذي كان يتجاوز شخصها ويبدو وكأن له اصلاً عريق القدم . كانت اسرتها فقيرة . وكانت هي نفسها ، حين تعرفت عليها ، ضاربة على الآلة الكاتبة . وأعتقد انه كان في حبها ذاك لبيتها تعبير غير واعٍ للأمني المكتوبة التي تحبس بها الاشخاص المحرومون من الإرث ، العاجزون ابدأ عن امتلاك مسكن لهم ، مها بلغ من التواضع . ولست ادري إن كانت اميلي ، حين تزوجتني ،

قد راودها وهمٌ بتحقيق آمالها البورجوازية ، ولكني أذكر ان من المرات النادرة التي رأيتها تبكي فيها هي حين اعترفت لها ، بعد خطوبتنا بقليل اني لم اكن امالك وسائل تقديم مسكن لها ، حتى بالأجرة ، وأن علينا في البدء ان نكفي بفرقة مفروشة . وكانت تلك الدموع ، التي سارعت بوضع حدّ لها ، تعبر ، كما بدا لي ، عن خيبة مريرة من ان ترى حلماً كان قد راودها طويلاً يُرجأ الى المستقبل ، كما تعبر عن قسوة هذا الحلم الذي اصبح في نظرها اشبه بمرر للحياة .

وإذن ، فقد عشنا خلال هذين العامين في غرفة مفروشة ؛ ولكن أيّ نظام دقيق وأية نظافة أشاعت اميلي فيها ! كان المرء يشعر انها كانت تعمل في حدود الممكن - وقد كانت هذه الحدود ضيقة في غرفة مفروشة - لمنح نفسها وهم التملك . وبسبب من نقص الاثاث الشخصي ، كانت تريد على الاقل ان تضيف على هذا الاثاث البائس روحها البيئية المنظمة . كان مكتبي مزداناً دائماً بالزهور ؛ وكانت اوراق مرتبة في حبة ، وموضوعة بشكل موحٍ كما لو انها تدعوني الى العمل وتؤمن لي الحد الاعلى من الصميمة والطمأنينة ؛ ولم تكن طاولة الشاي الصغيرة لتنتشر قطّ الى خوان او علبة بسكوت . ولم يكن أي ثوب او حاجة اخرى ملقاة على الارض او على كرسي ، كما نرى غالباً في المساكن الضيقة المؤقتة . لقد كانت اميلي ، بعد ضربة المكنتسة الاولى لربة البيت ، تُخضع الغرفة لتنظيف آخر ، أطول وأدقّ ، ليصبح كل شيء لماعاً حتى ليستطيع المرء ان يتمرّى فيه ، بما في ذلك قبضة النافذة النحاسية وأقلّ قطعة خشبية من الارض . وفي المساء كانت هي نفسها من تريد ان ترتب الاعطية ، فتضع قبصها في جهة ، ومناميّ في جهة اخرى ، وتنظم وسادتيّن التوأمين . وكانت اول من يستيقظ صباحاً ، فتذهب لإعداد الفطور في مطبخ مؤجرنا وتحمله لي بنفسها على طبق . وقد كانت تقوم بهذه الامور جميعاً في صمت ، من غير ان تثير التنبيه ، ولكن

في تركيز وعناية مدروسة . ومع ذلك ، فان الغرفة المفروشة ، رغم جهودها المؤثرة ، كانت تظل غرفة مفروشة ، ولم يكن الوهم الذي كانت تسعى الى اكتسابه والى اكسابي إياه ، كاملاً أبداً . واذ ذاك ، بين الفينة والفينة ، في لحظات التعب والاستسلام ، كانت تشكو. صحيح انها كانت تشكو بتلك العذوبة وتلك الدعة اللتين هما طبعها العميق ، ولكنها كانت تشكو كذلك بمرارة واضحة ، وهي تسألني الى متى يظل هذا الطراز من الحياة المؤقتة الوضيعة . وقد كنت أحسّ في تلك الرغبة المعبّر عنها باعتدال ألاماً حقيقياً ، فأعاني من التفكير بأنّ عليّ عاجلاً او آجلاً أن أحققها لها .

وقررت اخيراً ، كما ذكرت ، ان اشترى شقة ؛ ولم اكن بالتأكد املك الوسائل الضرورية لذلك ، ولكنني كنت ادرك ان اميلي كانت تتألم ، وانه قد يأتي يوم ينفذ فيه صبرها . وكنت قد وضعت في هذين العامين ، بعض المال جانباً ؛ واستطعت من جهة اخرى ان استدين مبلغاً اتاح لي ان ادفع القسط الاول . واذ فعلت ذلك ، لم اكن أحسّ بالشعور اللذيذ الذي يحس به رجلٌ يؤمّن منزلاً لزوجه الشابة : كنت قلقاً بل كنت اعاني الضيق أحياناً ، لأنني لم اكن اتصور على الاطلاق كيف سأندبر الأمر بعد بضعة شهور ، حين يستحق دفع القسط الثاني. وكان يتفق لي ان اكون من شدة اليأس بحيث كنت أحس ما يشبه الحقد على اميلي التي كانت حماسها الدائبة قد أجبرتني على ان اتصرف تصرفاً غير حكيم .

على ان فرحة اميلي الكبرى لدى إعلان نأ هذا الشراء ، وفيما بعد العواطف الغريبة بنوعها وكثافتها والتي ابدتها اول مرة زرنا فيها الشقة التي كانت ما تزال خالية ، كل ذلك جعلني انسى ضيقي رداً من الزمن . وقد سبق ان ذكرت ان حب اميلي لبيتها كان يتلبس بجميع خصائص العاطفة المهروسة ؛ واضيف هنا ان هذه العاطفة قد بدت لي ،

في ذلك اليوم ، مرتبطة ومختلطة بالشهوانية ، كما لو ان منحني إياها شقة
قد جعلني في عينيها ، ليس أجدر بالحبّ وحسب ، بل كذلك - وبمعنى
جسدي - أقرب واشد صميمية .

كنّا قد ذهبنا نرى الشقّة ، فاكففت اميلي اولاً بأن تعبر الغرف
الباردة العارية ، فيما كنت أشرح لها مهمة كل من هذه الغرف ومشاريعي
المتعلقة بترتيبها . وكانت زيارتنا على وشك ان تنتهي حين اقربت من
احدى النوافذ وفي نيتي ان افتحها لأري زوجتي المنظر الذي تشرف عليه ،
ودنت اميلي فالتصقت بي ، وطلبت مني بصوت خافت ان اعانقها .
وكان هذا لديها، هي المتحفظة عادةً والحكيمة تقريباً في علاقاتنا الغرامية ،
أمراً جديداً غاية الجدة . وهاجني هذا الجديد بالاضافة الى رنة صوتها ،
فضممتها كما كانت تطلب . ولكن فيما كانت قبلتنا تتعمق ، وكانت
من ارق قبلاتنا واشدها التهاياً ، شعرت بأن جسدها يزداد التصاقاً بجسدي ،
كما لو انها كانت تدعوني الى مزيد من الصميمية . ثم نزعت تنورتها
بحركة مفاجئة ، وفكت ازرار قميصها وتمددت لصقي . وحين افرقت
شفاهنا ، تمتمت في اذني ، في نفّس لم يكذب بين :

— خذني !

وكان ثقل جسدها كله يجرني نحو الارض . وقتنا بفعل الحب على
البلاط المغبر ، تحت تلك النافذة التي اردت ان افتحها . على اني
استشعرت في حميا تلك الضمة العجيبة شيئاً آخر غير الحب الذي كانت
اميلي تحسه في تلك اللحظة نحوي ؛ كان يمتزج فيه كل اندفاع عاطفتها
المكبوتة كربة بيت كانت تعبّر عن شعورها عبر شهوانية غير مألوفة .
كانت في تلك الضمة المستهلكة على الارض المغبرة ، في ظل مثلوج
لنرفقة ما تزال فارغة ، انما تستسلم للواهب ، لا للزوج ، وإن تلك
الغرف العارية المصدية التي تحمل رائحة البرنيق والجلس القريب العهد ،
قد حركت في أعماق احشائها شيئاً لم تستطع أية مداعبة من مداعباتي حتى

ذلك الحين ان توقظه .

وبين هذه الزيارة للشقة الفارغة ويوم انتقالنا اليها انقضى شهران درسنا خلالها عقود البيع المصنوعة كلها باسم اميلي ، لأنني كنت اعلم ان ذلك كان يسرها ، وجمعنا الاثاث القليل الذي مكنتني وسائلتي المحدودة من شرائه . واذ انقضى سروري الاول ، كنت احسني - كما سبق ان قلت - قلقاً من المستقبل ، بل خامد الحمية في بعض الاوقات . كنت طبعاً أكسب ما يتيح لنا ان نعيش بتواضع وأدخر بعض المال جانبا ؛ ولكن هذه التوفيرات لم تكن كافية لتسديد القسط التالي من ثمن الشقة . وكانت خيبيتي من المرارة أنني لم اكن استطيع تخفيفها بمصارحة اميلي التي لم اكن اريد ان افسد فرحتها . واني لأذكر تلك الفترة كما لو أنها عهد من الضيق الشديد ومن الحب الناقص لزوجتي . ولم اكن استطيع الامتناع عن التفكير بأنها لم تكن تهتم قط بمعرفة الطريقة التي أتمكن بها من الحصول على هذا المال كله ، بالرغم من أنها عرفت وضعنا الواقعي معرفة عميقة . وكانت هذه الفكرة تؤلني بغموض ، وتوحي لي احيانا ببعض الحلق ازاءها هي التي لم تكن الآن ، في انهماكها وفرحها ، تفكر إلا بالتنقل بين الحوائث بحثاً عن أشياء تنقص البيت . وكانت تبلغني كل يوم ، بأهدأ لهجة تملكها ، عن اثاث جديد قد اشترته . وكنت أتساءل كيف أنها ، هي التي تحبني ذلك الحب الكبير ، لم تكن تحس بالهموم الفظيعة التي كانت ترهقني . لقد كانت تفكر على الأرجح بأنني ما دمت قد اشتريت تلك الشقة ، فلا بد اني تدبرت الامر للحصول على المال اللازم . ولكن هدوءها وفرحها ، المتناقضين مع ألوان قلقي البائسة ، كانا يدوان لي علامة انانية ، او على الاقل علامة عدم التحسس .

كنت من شدة الانهاك والهم بحيث ان الصورة التي كنت اكونها عن نفسي قد تغيرت . كنت حتى ذلك الحين اعتبر نفسي مثقفاً ، وكاتباً

للمسرح ، وهو نوع من الفن كنت قد غذيت له دائماً حماسة كبيرة ،
وكنت احسبي مرصوداً له . وهذه الصورة المعنوية ، اذا صح التعبير ،
كانت تنعكس على صورتني الجسمية : فقد كنت أراني شاباً يشهد هزازه
ونظرة الحسرة وعصبيته وامتقاعه وهيئته المهملة بالمجد الادبي الذي كان
ينتظره . ولكن هذه الصورة الملأى بالسحر والوعود انزاحت في تلك
الفترة من حياتي لتحل محلها صورة اخرى مختلفة كل الاختلاف ، هي
صورة انسان مسكين ، مأخوذ أخذاً مأساوياً في شرك بائس ، وهو لم
يستطع ان يصمد لحبه لزوجته ، فتصرف تصرفاً أعمى ، وهو يوشك ان
يضطر الى التخطئ فترة لا يعلم الا الله مداها في احوال الفاقة المميتة . وكنت
اراني متغيراً ، حتى جسدياً : انني لم اكن بعد عبقرى المسرح الشاب ،
الذي ما يزال مجهولاً ، بل الصحفي الجائع ، المحرر في المجلات
والجرائد الثانوية ؛ او ربما - وهذا اسوأ - المستخدم المسكين في احدى
المؤسسات الخاصة او الموظف في دائرة حكومية . كان ذلك الرجل يخفي
عن زوجته ، حتى لا يقلقها ، هوموم بالذات ؛ وكان طوال النهار
يعدو في المدينة بحثاً عن عمل لم يكن ليجده غالباً . اما في الليل ، فقد
كان يستيقظ ملذعوراً وهو يفكر في ديونه . إنه بالإجمال لم يكن يفكر الا
في المال ، ولا يرى غير المال . وربما كانت صورة كهذه مؤثرة ،
ولكنها بلا بهاء ، ولا كرامة . إنها صورة بائسة ، اصطلاحية ، كتلك
التي ترى في الكتب ، وقد كنت اكرهها ، لأنني كنت أتصور اني
بمساعدة الزمن ، وبيبطاء وبلا إحساس ، سينتهي بي الامر الى ان اشبهها .
ولكن الامر كان كذلك : انني لم اتزوج امرأة تستطيع أن تشاركني افكاري
وميوبي ومطامحي وتفهمها ؛ وانما كنت قد تزوجت ضاربة على الآلة
الكاتبة ، صحيح انها جميلة ، ولكنها غير مثقفة ، وهي ممثلة ، على
ما يخيل الي ، بجميع الافكار المسبقة والاماني التي تتميز بها الطبقة المتحدرة
منها . وقد كان من المستحيل معها ان اواجه شظف حياة فقيرة وبوهيمية ،

في مكتب او غرفة مفروشة ، بانتظار ألوان النجاح التي لا مفر من ان اصيبها في الكتابة للمسرح . بل لقد كان عليّ ، بالعكس ، ان احصل لها على بيت احلامها ، حتى ولو اضطرني الامر ، كما فكرت في ياس ، الى التخلي عن مطاحي الادبية الاثيرة .

وأسهم شيء آخر آنذاك في مضاعفة انطباع القلق والعجز تجاه مصاعبي المادية . وعلى غرار قضيب من الحديد يلين حين تمسه نار ملتهبة ، كنت أحسّ روجي تلسين وتثني تحت الهموم التي كانت تتأكلها . وكنت اراقب في نفسي حسداً غير ارادي تجاه اولئك الذين لم يكونوا يعانون الهموم نفسها ، تجاه الاغنياء وذوي الامتياز ، وكان هذا الحسد مصحوباً رغباً عني بضعفينة ، بضعفينة ليست موجهة نحو مواقف او اشخاص بصورة خاصة ، بل كانت تميل ، كما بقوة لا تُقهر ، الى ان تتعمم وان تنلبس السمة التجريدية لمفهوم معين للحياة . وبالاجال ، كنت أحسّ في تلك الايام الشاقة ، أن حنقي واشمئزازي من الحياة يصبحان رويداً رويداً ثورةً على الظلم الذي كنت ضحيته وكان ضحيته كثير من الكائنات الشبيهة بي . وهذا التحول اللامحسوس لمشاعري الشخصية الى حالة نفسية وآراء عامة كنت أكشفه في افكاري التي كانت تتخذ، دائماً ومن غير تغيير المجري نفسه ، وفي كلامي الذي كان يعود ابدأ الى الموضوع نفسه . وكنت احس في الوقت ذاته ودّاً متنامياً لهذه الاحزاب السياسية التي تعتز بمكافحة امراض هذا المجتمع الذي انتهى بي الامر الى ان انسب اليه آلامي . كنت اعتقد ، وانا اتأمل حالي الخاصة ، انه مجتمع يترك لأفضل ابناؤه ان يأسنوا فيه ، ويحمي أسوأهم !

إن تطوراً مثل هذا يجري لدى الاشخاص البسطاء اللامتقفين بصورة لاشعورية ، في اعماق النفس المظلمة التي تتحول فيها الاثيرة ، بنوع من الكيمياء العجيبة ، الى إثثار ، والحقد الى حب ، والخوف الى شجاعة. اما بالنسبة لي، انا الذي ألفت تحليل نفسي وتحديدها، فان التطور كان من

التوضوح وصفاء الرؤية كما لو اني كنت قد راقبته لدى انسان آخر . ومع ذلك ، فاني لم يكن يسعني الامتناع عن اطاعة تحديدات مادية متحيزة ، وعن تحويل دوافعي الشخصية المحض الى اسباب عامة . وخلافاً لكثير من الاشخاص ، في تلك الفترة المضطربة لما بعد الحرب ، لم أورد قط ان ادخل في اي حزب ، لأنه كان يبدو لي مستحيلاً ان اشتغل في السياسة لأسباب ذاتية ، بل بسبب اقتناع كنت أفتقده حتى ذلك الحين . وكنت متزعجاً بأن أحس افكاري واحاديثي وسلوكي تمضي بلا وعي نحو التهور ، في مجرى مصالحني ، مغيرة لونها وفق صعوبات اللحظة . وكنت افكر في غيظ « بأنني كنت مصنوعاً اذن كهذا الجمع كله ، ويكفيني مثلهم ان تكون الجعبة فارغة لاحلم بالانبعاث الجديد للانسانية؟ » ولكن هذا التبصّر كان عاجزاً ، وحدث اخيراً ذات يوم كنت احسني فيه اكثر بأساً واقل صموداً من المعتاد ، ان اقتنعي صديق كان يحوم حولي منذ حين ، فتسجلت في الحزب الشيوعي . وما كدت افعل ذلك حتى عاودني الشعور بأنني تصرفت مرة اخرى ، لا كالعقري الشاب المجهول ، بل كالصحفي الجائع او كالمستخدم الصغير الذي كنت اخشى ان اصبحه على مر الزمن . ولكن الامر كان قد تمّ ، فكنت عضواً في الحزب ، وما كنت استطيع ان ارجع القهقري . واذكر بالمناسبة ان استقبال اميلي لنبأ انضمامي للحزب كان ذا مغزى : « انك لن تجد بعد الآن عملاً الا عند الشيوعيين ؛ اما الآخرون فسيقاطعونك » ولم أملك الجرأة لأحدثها عن رأسي ، اعني اني ما كنت على الارجح لأنخرط في الحزب لو لم اصبح ، من اجل لإرضائها ، مالكاً لهذه الشقة الباهظة الثمن . ولم يتجاوز الامر هذا الحد .

وانتقلنا في آخر الامر ، وفي اليوم التالي ، بمصادفة بدت لي محاطة بالعناية الالهية ، التقيت باتيستا الذي عرض عليّ ، كما سبق ان رويت ، ان اعمل في سيناريو فيلمه . وتعزيت فترة من الزمن ، وكنت مسروراً

كما لم اكن منذ فترة طويلة ؛ وكنت اؤمل ان اؤلف اربعة سيناريوات
او خمسة لاسدد ثمن الشقة ثم اعود بعد ذلك الى الصحافة والى مسرحي
المفضل . وكنت قد استعدت حبي لأميلى اقوى من اي وقت مضى ،
بل كنت احياناً أواخذ نفسي ، في ندم عميق ، ان اكون قد أسأت
الظن بها يوماً اذ اعتبرتها انانية وغير متحسسة . غير ان هذا الانتشاع
كان قصير المدى . فان مماء حياتي ما لبثت ان تلبّدت . ولم يكن الامر،
في البدء ، سوى غيمة صغيرة ، ولكن ما كان اشد ظلامها !

الفصل الرابع

تم لقائي مع بانستا يوم الاثنين الاول من تشرين الاول . وبعد ذلك باسبوع ، كنا نقيم في منزلنا الجديد . ولم تكن هذه الشقة ، التي هي سبب هذه المتاعب كلها ، لا كبيرة ولا باذخة . كانت تتألف من غرفتين : قاعة جلوس واسعة ، طويلة اكثر منها عريضة ، وغرفة نوم لا بأس بمساحتها . وبالمقابل ، كان الحمام والمطبخ وغرفة الخادمة صغيرة جداً ، قاصرة كما في المنازل الحديثة على الحد الأدنى . وكان ثمة بالاضافة الى ذلك عليّة صغيرة بلا نافذة كانت اميلي تريد ان تجعل منها منشراً للغسيل . وكانت الشقة قائمة في الطابق الاخير من بيت ذي بناء حديث ، يواجهه ملساء بيضاء كالطبشور ، واقع في شارع صغير ذي انحدار خفيف . وكان يحف بالشارع ، من جهة ، صف من البيوت الشبيهة ببيتنا ، ومن جهة اخرى سور لحديقة مقصورة كانت اشجارها الكبيرة الكثيفة تدلّي اغصانها الى الخارج . وكان ذلك منظرأ جميلاً ، وكان بإمكاننا ، كما قلت لاميلي ، ان نتصور ان ليس ثمة ما كان يفصلنا عن تلك الحديقة التي كنّا نلمح هنا وهناك ، عبر الاشجار ، ممراتها المتعرجة واحواضها ودواثرها ، وسيكون بإمكاننا ان نتتزه فيها على هوانا .

وتسلمنا الشقة بعد الظهر ؛ وكان لديّ عملٌ طول النهار ، وقد نسيت اين تناولنا العشاء ومع من . وكل ما اذكره اني قرابة منتصف الليل كنت واقفاً في وسط غرفة النوم ، انظر الى نفسي في المرآة ذات الوجوه الثلاثة وأحلّ ربطة عنقي . وفجأة ، رأيت في المرآة ان اميلي تتناول وسادة من على سريرنا وتتوجه نحو غرفة الاستقبال ، فسألتها مندهشاً :

— ماذا تفعلين ؟

تكلمت من غير ان اتحرك ، فرأيتها عبر المرآة كذلك تتوقف عند العتبة وتلفتت وهي تقول بلهجة بسيطة :

— لن يغضبك ان انام هناك على الديوان ؟

فقلت مذهولاً ، غير فاهمٍ بعد :

— هذه الليلة ؟

فأجابت بسرعة :

— لا ، بل دائماً ، ابتداء من الآن . والحقيقة اني من اجل هذا كنت ارغب في تغيير المسكن ... اني لا اريد بعد ان انام والنافذة مفتوحة ، كما تريد انت ... انني كل صباح استيقظ على صياح الديك ، فلا استطيع ان اعود الى النوم ، وأظل طول النهار مملوءة الرأس بالنعاس ... قل لي ، إن ذلك لا يغضبك ؟ ... انني اعتقد ان من الافضل ان ينام كل منا على حدة ...

كنت مشدوهاً، ولم أحس في البدء إلا غضباً غامضاً امام هذا التدبير الجديد غير المنتظر . وقلت لاميلي :

— ولكن هذا مستحيل ... ليس لدينا الا غرفتان ، وسريرنا في هذه ، وفي تلك الارائك والديوان ... فأية فكرة ! إن النوم على الديوان ، حتى ولو غيرت شكله ، غير مريح اطلاقاً .

فقالت وهي تخفض عينيها من غير ان تنظر الي :

- إنني لم املك قط الجرأة على ان اقول لك هذا ...
فألححت بقولي :
- انك حتى الآن لم تعلمي أية شكوى ... وقد كنت أحسب انك
تعودت ...
- فرفعت رأسها وقد سرّتها ، كما بدا لي ، ان تحرف حجتها الحديث:
– انني لم اتعود قط ، بل كان نومي مؤرقاً دائماً ... وفي هذه
الفترة الاخيرة ، لم اكن انام تقريباً ، ربما لأن اعصابي نائرة .. ليتنا
على الاقل ننام باكرأ .. ولكن الذي يحدث هو العكس ، لهذا السبب
او ذاك .
- وقطعت كلامها ، ثم خطت خطوة نحو غرفة الاستقبال ، فأمسكتها
وقلت لها بكل سرعة :
- انتظري ، إن بوسعي اذا شئت ، ان اعدل عن النوم والنافذة
مفتوحة ... لقد اتفقنا ... فابتداء من اليوم ، سنغلق النافذة .
- ولم يكن هذا العرض من جهتي هزيمة ودودة فحسب ، فالواقع اني
كنت اريد ان أضع اميلي في التجربة . وقد رأيتها تهز رأسها وتجيّب
بيسمة خفيفة :
- ولكن لا ... لماذا تتحمل هذه التضحية ؟ لقد قلت لي انك كنت
تختنق حين تكون النافذة مغلقة .. فن الافضل ان نفضل ليلاً .
- أوكد لك ان هذه ستكون تضحية صغيرة جداً ... سوف اعتاد .
فبدت مترددة ، ثم قالت بتصميم لم اكن اتوقعه :
- لا ، انني لا اريد أية تضحية ، لا كبيرة ولا صغيرة ... سأنام
في غرفة الاستقبال .
- واذا قلت انا لك ان هذا يسؤوني،واني اريد ان انام معك ،
فترددت من جديد ، ثم قالت بلهجة مصالحة :
- هل ترى كيف انت ، يا ريشار ؟ إنك لم ترد ان تقوم بهذه

التضحية منذ عامين ، حين تزوجنا ... وها انت الآن تريد ان تقوم بها
بأي ثمن ... فإذا يمكن أن يؤثر ذلك عليك ؟. إن هناك كثيراً من
الازواج ينمون منفصلين ، من غير ان يضعف الحب بينهم .. وستكون
اوفر حرية في الصباح لتذهب الى عملك ، فلا توقظني بعد ...
- ولكنك زعمت انك تستيقظين دائماً على صياح الديك ... وانا لا
اذهب في تلك الساعة !

فانفجرت في نبرة نافذة الصبر :

- اوه ! كم انت عنيد !

وخرجت من الغرفة ، من غير ان تصغي الي اكثر من ذلك .
وبقيت وحدي ، جالساً على السرير الذي كان ، بوسادته الوحيدة ،
قد بدأ يوحى بالفراق والهجر ، وظلت حالماً انظر بشرود الى الباب
المفتوح الذي خرجت منه اميلي . وخطر لذهني سؤال : « اذا لم تكن
اميلي تريد ان تنام معي بعد ، أسبب ضوء النهار الذي يزعجها ، ام
لأنها ببساطة لم تكن تريد بعد ان تقاسمني فراشي ؟ » وكنت أميل الى
الفرض الثاني ، بالرغم من اني اردت من صميم قلبي ان اعتقد بالفرض
الاول . وكنت اقول لنفسي اني حتى ولو كنت اقبل تفسير اميلي ،
فسيبقى لي نوع من الشك . ومن غير ان اصارح نفسي ، كان السؤال
النهائي : « اتكون زوجتي قد كفت عن حبي ؟ »

وفيا كنت مستغرقاً في افكاري ، تاركاً عيني تزوغان في الغرفة ،
كانت اميلي تروح وتجيء ، حاملة الى غرفة الاستقبال الوسادة وزوجاً من
الشراشف المطوية سحبته من الخزانة ، وغطاء ، وثوب نومها . وكنت
في مطلع تشرين الاول ، ولما كانت الحرارة لطيفة : فقد كانت اميلي
تتجول في البيت بثوب شفاف .

انني لم اصف اميلي بعد ، وسأفعل الآن ذلك : حتى ولو لم يكن
القصده الا ان أشرح عواطفني تلك الليلة .

لم تكن اميلي طويلة القامة ، ولكني بسبب العاطفة التي كنت أكنها

لها ، كانت تبدو لي أكثر طولاً ومهابة من جميع النساء اللواتي سبق
ان لقيتهن . ولا استطيع القول إن كانت هذه المهابة موجودة حقاً او
ان نظراتي المبهورة كانت تزينها بها مجاناً، غير اني اذكر أنني ليلة عرسنا،
بينما كانت تخلع حذاءها ذا الكعب الطويل، اخذتها بين ذراعي وضممتها
قدهشت ان ارى ان جبينها كان لا يكاد يبلغ مستوى كفتي واني كنت
اشرف عليها تماماً . ولكن فيما بعد ، حين تمددت الى جانبي ، أصبت
بمفاجأة جديدة : فقد بدا لي جسمها كبيراً ، عريضاً ، قوياً ، في حين
اني كنت اعرف جيداً ان ليس لديها ما هو كثيف . وكان كفافها
وذراعها وعنقها اجمل ما رأيت في حياتي ، ممتلئة ، أنيقة ، لدنة في
حركاتها . وكان لها وجه أسمر ذو أنف مرسوم بدقة وبشكل صارم ،
وفم ريان ، رطب ، ضاحك باسنان ذات بياض مشع كان يبدو دائماً
رطباً براقاً ؛ اما عيناها الكبيرتان بلونهما الكستنائي المذهب وتعبيرهما
الشهواني فقد كانتا ، في لحظات الاستسلام ، زائفتين ، مسترخيتين . لقد
سبق ان قلت إن اميلي لم تكن آية في الجمال ، ولكنها كانت تترك اثر
من كان كذلك ، لست ادري لماذا ؛ ربما بسبب رقة قامتها اللدنة التي
كانت تُكسب استدارة كسحبيها وصلبرها مزيداً من البروز ؛ وربما
بسبب مظهرها الفخور المليء بالاعتزاز ؛ او ربما بسبب قوة ساقها
الطويلتين الممشوقتين والصلبتين في وقت واحد . كانت تملك تلك الهيئة من
الحسن والمهابة اللا ارادية والتلقائية التي لا يمكن ان تصدر الا عن الطبيعة
وتبدو من اجل ذلك أشد سحراً واقل قابلية للتعريف .

والحال أنني في ذلك المساء ، بينما كانت تروح ونحيء من الغرفة الى
الصالون وانا اناملها بعيني من غير ان ادري ماذا اقول ، مختافاً ومرتاباً
في الوقت نفسه ، كانت انظاري تنتقل من وجهها الهادئ الى جسمها
الذي كان يُبرز خلال غلالة القميص لونها واستداراتها بين الفينة والفينة ،
ومفاجأة هاجم فكري الشك في انها لا تحبني بعد ، مع الشعور بعجز

الهامس والاتصال بين جسمها وجسمي . ولم يسبق لي ان احسست بمثل هذا الشعور وظللت لحظة دائخاً بذلك ، غير مصدق . إن الحب بالتأكيد وقبل كل شيء إحساس ؛ ولكنه كذلك اتصال للجسام شبه روحي ، اتصال كنت قد تمتعت به بلاوعي تقريباً ، كما لو انه شيء عادي وطبيعي تماماً . وهأنذا الآن افهم ، كما لو ان عيني قد انفتحتا اخيراً امام امر واضح ، وقد كان ذلك غير مرئي حتى ذلك الحين : ان مثل هذا الاتصال كان يمكن الا يوجد ، وانه لم يكن بعد موجوداً بيننا . وعلى غرار اي شخص يلاحظ فجأة انه معلق فوق هاوية ، كنت احس نوعاً من الغثيان المؤلم لدى التفكير بأن صميمتنا قد أصبحت ، من غير سبب ، بعداً وغيوبة وانفصالاً .

توقفت عند هذه الفكرة التي تزرع الاضطراب بيننا كانت اميلي تغتسل في الحمام وكنت اسمع الماء يجري من الصنابير . وكان شعور حاد بالعجز ورغبة عيفة بالتغلب عليه يتنازعان نفسي في وقت واحد . كنت حتى تلك الساعة قد أحببت اميلي بلا جهد ، ولا محاكمة عقلية ؛ كان حي قد تفتح ، كما بفعل السحر ، دفقة غير واعية ، مندفعة ، ملهمة ، منبثقة على ما خيل لي من ذاتي ، ومن ذاتي وحدها . كنت الاحظ للمرة الاولى ان هذه الدفقة كانت تتغذى وتتوقف على اندفاع من اميلي ، شبيه باندفاعي ، واذ رأيتها متغيرة هذا التغير ، كان الخوف يأخذني ان اكون بعد الآن غير قادر على ان احبها بتلقائية الماضي وطبيعته . كنت بالاجمال اخشى ان يلي هذا الاتصال الرائع الذي اكتشفته عملٌ فرض من جهتي ، ومن جهة زوجتي ... كنت اتساءل ما عساه يكون موقفها في المستقبل ، ولكني كنت أدرك اني اذا اكتفيت بأن افرض نفسي ، فلن استطيع بعد ان ألقى لديها الا سايةً او اسوأ من ذلك .

في هذه اللحظة ، مرت اميلي بقربي وقد عادت الى الغرفة . فانحنيت

فجأة وأمسكتها من ذراعها :

— تعالي هنا ، اريد ان اكلمك ..

فكان رد فعلها الاول ان ابتعدت عني ، ثم ما لبثت ان استسلمت
وأقبلت تجلس على السرير ، ولكن بعيداً عني بعض الشيء :

— تكلمني ... ماذا تريد ان تقول لي ؟

لماذا اصاب حلقي المتقبض ضيق مفاجيء ؟ ربما كان ذلك بسبب
الحجل، وهو شعور كان حتى ذلك الحين غائباً عن علاقاتنا، وكان ظهوره
يبدو لي وكأنه يؤكد التغير المفاجيء .

قلت :

— نعم ، اريد ان اكلمك ، فان لدي شعوراً بأن شيئاً ما قد تغير

بيننا .

فرمتني بنظرة جانبية واجابت بوثوق :

— انني لا افهمك ... اي تغير ؟ لم يتغير شيء ..

— بالنسبة لي ، لا ، اما انت ...

— لم أتغير في شيء ... لأنني ما زلت لإياي .

— لقد كنت في الماضي تحبيني اكثر من ذلك... كنت تشعرين بالأسف

حين كنت أتركك وحدك .. ثم انه لم يكن يزعجك ان تنامي معي ...

بل على العكس !

فهتفت ، ولكنني لاحظت انها فقدت بعض وثوق لهجتها :

— آه ! من اجل هذا ! كنت أعرف جيداً انك تفكر بشيء من

مثل هذا ... ولكن لماذا تستمر في تعذبي هكذا ؟ انني لا اريد ان انام

معك لأنني بكل بساطة اريد ان انام ، وانني لا اتوصل الى ذلك وانما

بقربك ، هذا كل ما في الأمر !

كنت احس الآن بحججي ومزاجي السيء تذوب سريعاً وتنحل

كالشمع اذا ما لامس النار . وكانت اميلي بقربي وهي بذلك القميص

المثير ، الخفيف ، الذي كان يشف عن ألوان جسمها واشكاله الأشد

صميمية ؛ وكنت انا اشتهيها وأجد من الغريب الا تحس ذلك ، والا تصمت ، والا ترتعي على عنقي ، كما كن يحدث في السابق كلما كانت نظراتنا المهتاجة تلتقي . ومن جهة اخرى كانت هذه الرغبة توظف في الامل بأني سألتقي ثانية باندفاع الماضي ، بل سأثير فيها كذلك الاندفاع نفسه . وقلت لها بصوت خافت :

- اذا لم يتغير شيء ، فأنتي لي ذلك !
- ولكني اثبتته لك كل يوم ، في كل ساعة ...
- لا ، اقصد الآن ..

وفيا كنت اتحدث ملت عليها فأخذتها بعنفٍ تقريباً من شعرها بحثاً عن شفتيها . فاستسلمت بوداعة . ولكنها في اللحظة الاخيرة تحاشت قبلي بحركة خفيفة من رأسها، بحيث ان في وقع على عنقها . وتركتها :

- الا تريدان ان اقبلك ؟

فتمتمت وهي ترتب شعرها في لامبالاة :

- ليس الامر كذلك ، فلو لم تكن الا قبلة لمنحك اياها طوعاً ..
- ولكني اعرف الى اين سيقودنا هذا ، وقد تأخر الوقت الآن ..
- فأحسستني مهاناً بهذه الطريقة في الصرف باللجوء الى العقل .
- هذه الامور لا تعرف تأخيراً في الوقت اطلاقاً !
- واذ حاولت ان اقبلها من جديد بجذبها اليّ من ذراعها، اطلقت صرخة:
- آي ! انك توجعني !

لم اكن قد فعلت اكثر من ان امسها ؛ وقد كنت في اوقات حيننا اضمها احياناً بين ذراعي بقوة من غير ان انتزع منها ادنى تنهدة . وقلت مغتاضاً :

- في الماضي ، لم اكن اوجعك !
- فأجابت : - ان لك يدين من حديد ، وانت لا تحس بذلك ...
- وسوف يترك هذا اثرأ في ذراعي ...
- قالت ذلك كله في ما يشبه الخلد ، من غير اي تدلل .

ونجأة ألححت بقولي :

- قولي لي اذن : اتريدين ام لا ان تمنحيني هذه القبلة ؟

فألحنت ولا مست جيبي بقبلة امومية خفيفة وهي تقول :

- خذ . ودعني الآن اذهب للنوم . ان الوقت متأخر .

ولم يكن هذا يكفيني ، فاذا بيدي الاثنتين تقبضان عليها من قامتها ،

عند خالصتها ، وقلت بينما كانت ترتد الى خلف :

- اميلي .. ليست هذه هي القبلة التي اريدها منك ...

فدفعتي وكررت بلهجة عدائية حقاً :

- آي ! دعني ، انك توجعني !

- هذا غير صحيح ، غير صحيح !

هذا ما تمتت به بين اسناني وانا ارتمي عليها .

وفي هذه المرة تخلصت بفضل حركتين او ثلاث ، بسيطة وقوية ،

وقفزت على قدميها ، ثم صممت فجأة ، ثم قالت بلا اية حشمة :

- اذا كنت تريد ان تقوم بفعل الحب ، فلنفعله ... ولكن لا

توجعيني .. اني لا استطيع ان اتحمل ان أحسني مشدودة على هذا النحو!

لبثت منقطع الانفاس . كان صوتها هذه المرة مثلوجاً ، مبتدلاً ،

ولم استطع ان امتنع عن التفكير بذلك ، من غير ظل لعاطفة . وظللت

لحظة جامداً ، وانا جالس على السرير ، مشتبك اليدين ، خافض الرأس .

وجاءني صوتها من جديد :

- ما دمت تريد الآن ، فلتقم بفعل الحب ... أليس كذلك ؟

فقلت بصوت منخفض ، من غير ان ارفع رأسي :

- نعم .

ولم اكن صادقاً ، فأنسا لم اكن اشتهيها الآن بعد ، ولكني كنت

اريد ان أتألم حتى نهاية هذا الشعور الجديد الغريب بأن زوجتي أجنبية

بالنسبة لي . وقالت وهي تمر خلفي :

— حسناً .

وسمعتها تسير من الجهة الاخرى من السرير . وفكرت بأنها لم يكن لها الا ان تنزع قيصها ، وتذكرت اني في الماضي كنت اتأمل هذه هذه الحركة البسيطة بعينين مسحورتين ، كما في تلك القصة التي يرى فيها اللص ، بعد ان يكون قد نطق بكلمته السحرية ، باب المغارة يفتح على مهل ، كاشفاً عن عظمة الكنوز المدهشة . ولكنني هذه المرة لم أشأ ان انظر ، لأنني كنت ادرك ان ذلك سيتم بعينين مختلفتين ، لا بعينين طفوليتين صافيتين حتى في حماسها ، بل بعينين قاسيتين وغير جدبرتين بها ، بسبب لامبالاتها . وظللت جامداً ، منحنياً ، ويداي على ركبتي ، منخفض الرأس . وبعد لحظة ، أنت نوابض السرير تحت جسم اميلي التي تمددت على الغطاء . وسمعت صوت الثياب وهي تُنزع ، ثم صوتها ، صوتها الغريب الفظيح :

— هيا ، تعال ! ماذا تنتظر ؟...

فلم ألفت ولم اتحرك ، ولم اكن اكفّ عن التساؤل : أكان كل شيء يجري هكذا من قبل ؟ وسرعان ما اجبت نفسي ان نعم ، كل شيء كان كما هو اليوم ، وقد كانت تنزع ثيابها وترتمي على السرير ؛ وكيف يمكن ان يكون الامر مختلفاً ؟ ولكن كل شيء كان ، في الوقت نفسه ، مختلفاً . انه لم يسبق لي قط ان عرفت هذه الوداعة الآلية ، الباردة ، اللاشخصية ، التي كانت تكشف عنها نبرة صوتها وحتى أين نوابض السرير واندعائك الغطاء . في الماضي ، كان كل شيء يجري كما في غيمة اندفاع حماسي ، ولاوعي مثل ، ومشاركة مسحورة . انه يحدث لك احياناً ، اذ يكون ذهنك تائهاً في فكرة عميقة ما ، ان تضع حاجة من الحاجات ، كتاباً او فرشاة او حذاء ، في مكان ما ، فاذا ذهب الشرود ، فانك عبثاً ما تبحث عن تلك الحاجة طوال ساعات ، ثم تجدها اخيراً في اغرب مكان ، في مكان غير معقول تقريباً . يقتضي

جهداً حقيقياً لبلوغه ، على ظهر خزانة ، او في زاوية منعزلة ، او في جوف درج ... وهذا ما حدث لي مع الحب . كان كل شيء يتمّ بلا تئيبه سريع ، مجنون، مسحور ، وكنت أجدني بين ذراعي اميلي ، من غير ان اذكر تقريباً ما الذي حدث ، وماذا فعلنا ، بين اللحظة التي كنا فيها جالسين وجهاً لوجه ، هادئين وبلا شهوات، وبين اللحظة التي تماقنا فيها العناق الاعظم .

اما الآن ، فان هذه الغفلة كانت غائبة تماماً من مسلك اميلي ، وبالتالي من مسلكي . أياكون بامكاني ، حتى تحت سلطة اثاره الحواس ، ان اراقب حركاتها بنظرة باردة ، كما يكون بامكانها هي ايضاً ، من غير شك ، ان تنظر بدورها الى حركاتي ؟

وفجأة تجسد الاحساس الذي كان يتضح اكثر فأكثر في نفسي -ورة دقيقة : انني لم اكن موجوداً بعد تجاه امرأة ن احبها ، بل تجاه مومس غير مجربة ، ونافذة الصبر ، تخضع سلبياً لعناقي ، آملة ان يكون هذا العناق قصيراً وهليل التعب . لقد برزت هذه الصورة امامي لحظة ، كأنها التجلي ، ثم تحيلت انها مرت خلفي لتتحد مع اميلي المتمددة على السرير .

ونهضت فجأة ، من غير ان التفت ، وقلت :
- لننسى هذا ، فاني لم اعد راغباً فيه .. وانا ذاهب لأنام وحدي، فابقي انت ، هنا ...

وتوجهت ، على رؤوس اصابعي ، نحو غرفة الاستقبال . كان الديوان مهياً ، والغطاء مبسوطاً، وقيص اميلي ملقى على السرير، منشور الكمين . وتناولت هذا القميص ، والمشاية الموضوعة على الارض، والروبيدشامبر الملقى على اريكة ، وعدت الى الغرفة ، فوضعتها جميعاً على كرسي . ولكنني لم استطع هذه المرة الامتناع عن النظر الى اميلي . كانت ما تزال على الوضع الذي اتخذته لتتمدد وتقول لي : هيا ،

تعال ، ، وكانت عارية ، وذراع مطوية تحت رقبتيها ، ورأسها ملتصقت
نحوي ، مفتوحة العينين اللامبايتين ، كما لو ان النظر غائب عنها ،
بينما كانت ذراعها الاخرى ممتدة على جسمها تغطي عانتها بيدها .
وفكرت آنذاك بأنها ليست بعدُ المومسة ، وانما هي صورة رؤيت في
سراب ، يحيطها جو حنيبي لاواقعي ، بعيدة كما لو انها لم تكن على
بعد خطوتين مني ، وانما كانت في منطقة ضائعة ، فيها وراء الواقع
وخارج احاسيسي .

الفصل الخامس

لا شك في اني شعرت ذلك المساء بأن عهداً مليئاً بالمصاعب كان يبدأ أمامي ، ولكني - وهذا ما قد يبدو غريباً - لم استنتج من سلوك اميلي النتائج التي يمكن ان يتصورها المرء . صحيح انها ظهرت باردة ولا مبالية ما دمت قد فضلت التخلي عن امتلاكها على ان امتلاكها بذلك الشكل . ولكني كنت احبها ، وفي الحب طاقة كبيرة لا على الوهم وحسب ، بل على النسيان . ففي اليوم التالي : لا ادري لماذا فقد حادث الليلة الماضية ، الذي كان ينبغي ان يبدو لي مليئاً بالمعاني ، كثيراً من اهميته في نظري ، وتحفف من عبء العناء وتناقص الى منازعة عابرة . والواقع ان المرء ينسى بسهولة ما لا يريد ان يتذكره ؛ وبالإضافة الى ذلك ، اعتقد ان اميلي شاركت في هذا النسيان ، لأنها لم تتمتع على عناقبي ، من غير ان تتخلى عن ان تنام وحدها . وصحيح انها ، هذه المرة ايضاً ، تصرفت بالطريقة الباردة والسلبية نفسها التي كانت قد هاجت ثورتني ؛ ولكن ما كان يبدو لي غير محتمل في المساء الاول ، كان يبدو لي بعد بضعة ايام ، لا محتملاً فحسب ، بل مغريباً كذلك . لقد كنت قائماً ، من غير ان اعترف بذلك ، على المنزلق الذي تصبح فيه يرودة الامس جبالاً هباً في اليوم التالي . بفضل الميول الصوفية والارادة

الصادقة للنفس النهمة للاوهام . كنت قد فكرت ، ذلك المساء الاول ، بأن اميلي كانت تنصرف كمومس ؛ وبعد اقل من اسبوع ، كنت اقبل ان احبها وان اكون محبوباً منها هكذا ؛ ولاني في اعماق نفسي كنت قد خشيت ان ترفض تماماً ان تكون ملكي ، حمدت لها سليبتها الباردة النافذة الصبر ، كما لو انها كانت الجو الطبيعي لعلاقتنا الغرامية .

ولكن ان كنت قد ظلت أهدهد نفسي بوهم ان اميلي كانت تحبني كالسابق، او بالاحرى ان كنت قد فضلت الا اضح حينا موضع التساؤل ، فان شيئاً ما من جهة اخرى كان يكشف في قلبي التغير الذي طرأ فها بيننا . وهذا الشيء كان عملي . فلئن كنت قد تخلّيت موقفاً عن مطامحي المسرحية وكرست نفسي للسينما ، فان ذلك لم يكن الا ارضاءً لرغبة اميلي في ان تملك منزلاً لها . وطالما كنت واثقاً من حب زوجتي ، فان عملي كسيناري لم يكن يبدو لي اثقل على الاحتمال مما ينبغي ؛ ولكن بعد حادث ذلك المساء ، بدا لي مرةً واحدة ان شعوراً من الخيبة والقلق والتفور بغيرني . والواقع اني كنت قد قبلت ذلك العمل كما كنت سأقبل عملاً آخر أشد عقوقاً واقل اهمية ، وذلك من اجل حب اميلي وحسب . اما وان هذا الحب يغيب الآن ، فان عملي كان يفقد معناه وتبريره ، ويتخذ في نظري خصائص عبودية محض .

وينبغي لي ان اقول بعض العبارات عن مهنة السيناري هذه ، ولو لم يكن القصد من ذلك الا ان افهم فهماً افضل الاحاسيس التي كنت اشعر بها في تلك الفترة . فالمعروف ان السيناري هو الذي يكتب ، مع مساعد له غالب الاحيان ومع المخرج ، السيناريو ، اي التصميم الذي يُستخرج منه الفيلم بعد ذلك . وحسب تطور الحركة ، توصف في السيناريو الافعال والكلمات التي يقوم بها الممثلون وصفاً دقيقاً ، واحداً واحداً ، وكذلك حركات آلة التقاط المناظر المختلفة . واذن ، فان السيناريو يستقطب كل شيء معاً، الدراما وانفعالات الوجه والتكنيك السينائي والايخراج

الخ .. والحال ان دور السيناري في الفيلم ، بالرغم من انه ذو أهمية اولى وانه يأتي في المكان الثاني بعد دور المخرج ، يظل دائماً معلقاً وغامضاً ، لأسباب تمت الى التطور الحالي للسينما .

وبالفعل : فاننا اذا حكمنا على الفنون من وجهة تعبيرها المباشر - ولا ارى كيف يمكن الحكم عليها بصورة مختلفة - فإن السيناري فنان يعطي الفيلم افضل ما في نفسه ، وهو مع ذلك لن يملك عزاء ان يعرف ان كان سيعبر حقاً عن شخصيته الذاتية . انه لا يستطيع ان يكون ، بالرغم من الصفة الخالقة لعمله ، الا واهب لقطات ، واختراعات ، ومهارات تقنية وبسيكولوجية وأدبية ؛ والمخرج هو الذي يستعمل هذه المواد وفق عبقريته الخاصة ، اي انه بالاجمال ، هو الذي يملك ان يعبر عن نفسه . اما السيناري ، فهو الرجل الذي يبقى دائماً في الظل ، واهباً افضل ما في عقله من اجل نجاح الآخرين ؛ وبالرغم من ان انتصار الفيلم متوقف عليه بنسبة الثلثين ، فانه لا يرى اسمه على الاعلانات الدعائية التي تحمل ، بالمقابل ، اسم المخرج والمنتج والممثلين . ان بوسعه طبعاً - وهذا يحدث غالباً - ان يبلغ الشهرة ويقبض تعويضات كبيرة ؛ ولكنه لا يستطيع ابداً ان يقول : « انا الذي صنعت هذا الفيلم ... وفي هذا الفيلم عبرت عن نفسي ... وهذا الفيلم هو انا نفسي بعض الشيء » وعلى العكس من ذلك ، يستطيع المخرج ان يعتر بذلك ويفاخر ويكون في الواقع الوحيد الذي يوقع الفيلم . وفي هذه الاثناء ، على السيناري ان يكتفي بأن يعمل مقابل المال الذي يدفع له ، بحيث ان المال يصبح في آخر المطاف الغاية الوحيدة لعمله . ولا يبقى له الا ان يُفيد من الحياة ، اذا كان قادراً على ذلك ، بفضل هذا المال الذي هو النتيجة الوحيدة لجهوده ، وهو سيتنقل من سيناريو الى آخر ، من مهزلة الى درامة ، من « وسترن » الى فيلم عاطفي ، بلا انقطاع ، وبلا هدنة ، شبيهاً بهاتيك الوصيفات اللواتي يتنقلن من

اسرة الى اخرى ، وهن لا يكدن يجدن الوقت للتعلق بطفل من الاطفال ، حتى يجب عليهن ان يتركنه ليبدأن من جديد مع غيره ، تاركات ثمرة جهودهن في آخر الأمر للامهات اللواتي يملكن وحدهن الحسق في ان يسمين هؤلاء الصغار اولادهن .

ولكن مهنة السيناري ، بالاضافة الى هذه المساويء الاساسية والتي لا مفر منها ، تعرف مساويء اخرى تتباين وفق نوعية الفيلم ونوعه وشخصية المساعدين ، ولكنها ليست دون ذلك اضجاراً . فبعكس المخرج الذي يتمتع ازاء المنتج ببعض الاستقلال والحرية ، لا يستطيع السيناري الا ان يقبل او يرفض السيناريو المقترح عليه ؛ وحين يعطي موافقته لا يستطيع في أي حال ان يختار مساعديه : انه يُختار ، وهو لا يُعطي الاختيار . ولهذا يحدث ان يرى السيناري نفسه مضطراً ، وفق أهواء المنتج او المناسبات او المصادفة بكل بساطة ، الى ان يعمل مع اشخاص يجدهم كريهين او هم دونه ثقافة او طبقة اجتماعية ، وهم يشرون غيظه بلامح من شخصياتهم او تصرفاتهم . والحال ان العمل المشترك في سيناريو لا يشبه في شيء العمل في فرقة كالذي يوجد مثلاً في مكتب او مصنع ، حيث يكون لكل فرد مهمة يقوم بها مستقلاً عن جاره ، وحيث يمكن للعلاقات ان تنقلص الى اشياء قليلة او ألا توجد أصلاً . فالعمل المشترك في سيناريو يعني ان يعمل المرء من الصبح حتى المساء مشاركاً ، مذوباً ذكاه الخاص ، وحساسيته الخاصة وروحه الخاصة بروح المساعدين . وهذا ما يقتضي قبول صميمية اصطناعية لا غاية لها ، طوال شهرين او ثلاثة يستغرقها انجاز السيناريو ، الا صنع الفيلم ، وبالتالي ، في التحليل الاخير ، كسب المال . ثم ان هذه الصميمية هي من ارداد الانواع ، واكثرها اثاراً للاعصاب وازعاجاً ، لأنها بدلاً من ان تعتمد على عمل صامت يشبه عمل العلماء المكرسين انفسهم معاً لتجربة من التجارب ، فهي تقوم على الكلام . فبصورة عامة ، يجمع المخرج مساعديه منذ الساعات

الاولى من الصباح حتى الليل الهابط ، بالنظر الى قصر الوقت المعطى لتأليف المخطوطة ؛ ومن الصباح الى المساء ، لا يفعل السيناريون شيئاً الا ان يتكلموا ، عن عملهم معظم الوقت ، ولكن غالباً بدافع من سرعة التكلم او الضجر ، متحدثين جميعاً عن مختلف الموضوعات . يروي احدهم حكايات خلاقية ، ويعرض آراءه السياسية ، ويتحدث ثالث عن رأي علم النفس في هذا الشخص او ذاك الذي يعرفه الآخرون ، والبعض يتكلمون عن الممثلين والكواكب ، وآخرون يقفون طويلاً عند وضعهم الخاص . وفي هذه الاثناء ، تمتليء القاعة المدعة للعمل بدخان السكاير ، وتصطف فناجين القهوة على الطاولات قرب اوراق المخطوطة؛ اما السيناريون الذين يكونون قد وصلوا في الصباح نضرين مرتبين ، مسرحي الشعر جيداً ، فانهم يلفون انفسهم في المساء مشعري الاكمام ، مشعبي الشعر ، يسيل عرقهم ، كما لو انهم قد اغتصبوا امرأة باردة عنيدة . والواقع ان الطريقة الآلية الروتينية التي يؤلف بها السيناريو تشبه كثيراً نوعاً من افراط الذهن الناتج عن الارادة والضرورة اكثر منه عن الالهام او الميل . ويمكن طبعاً ان يكون الفيلم ذا نوعية رفيعة ، وان يكون المخرج والمساعدون مشدودين فيما بينهم باحترام وصدقة متبادلين ، وان يجري العمل اخيراً في تلك الظروف المثالية التي يمكن ان تقوم في بعض النشاطات البشرية ، حتى العاقبة منها ؛ ولكن مثل هذه الظروف المؤاتية الى هذا الحد نادرة ، نادرة الافلام الجيدة .

وبعد ان وقّعت عقداً من اجل فيلم آخر ، لا مع باتيستا بل مع منتج آخر ، تخلت عني الشجاعة والارادة ، وبدأت أشعر في حلق ونفوس مترايدين بجميع المساويء التي عدتها . كان النهار منذ طلوعه أشبه بصحراء قاحلة لا ظل فيها للتأمل والفراغ ، بل هي قائمة تحت شمس غريبة من الالهام المغتصب . وما كدت أدخل مكتب المخرج حتى استقباني باحدى تلك العبارات الغريبة :

— ما الذي أسفرت عنه تأملاتك في الليل ؟ هل وصلت الى حل ؟
وكان كل شيء بعد ذلك ، في اثناء العمل ، يستنفد صبري ويشير
اشمئزازي : الاستطرادات المختلفة التي كان المخرج والسيناريون يحاولون
بها ان يخففوا ساعات المناقشات الطويلة ، وعدم الفهم والافتقار الى الدقة
بسل حتى مجرد اختلاف وجهات النظر بين مساعدي في اثناء كتابة
المخطوطة ... بما في ذلك عبارات الثناء التي يطلقها المخرج لدى كل
لفتة او فكرة تصدر عني ، وهو ثناء كان له بالنسبة لي مذاق مر
لأنه ، كما سبق ان قلت ، كان يبدو وهو يعطي افضل ما لدي من
اجل شيء لم يكن في حقيقته منحني وكنت اشارك به على مضض . بل
ان هذه السيئة الاخيرة هي التي بدت لي ، في تلك اللحظة ، غير محتملة
اطلاقاً . وكلما كان المخرج يقفز على كرسيه ويهتف قائلاً بلغته الشعبية
المألوفة التي كان يستعملها كثيرون منهم :

— هنيئاً لك ! انك قائد !

لم أكن استطيع الامتناع عن التفكير : « حبذا لو كان بإمكانني ان
استعمل هذا في درامة او مهزلة لي أنا ! » ومع ذلك ، فاني بفعل
تناقض فريد ومرير ، لم اكن استطيع التخلي عن مهنتي كسيناري ،
رغم نفوري منها . ولقد كان انجاز هذه السيناريوات يشبه قليلاً تلك
الدواب المقرونة التي كان فيها بعض الخيل الاقوى والافر شجاعة تقوم
بعمل الجر ، بينما يتظاهر البعض الآخر انه يجر ، وهو في الواقع يستسلم
لرفاقه يجرونه . وبالرغم من نفاذ صبري ومن كراهيتي ، ادركت بسرعة
اني كنت دائماً الحصان الذي يجر ؛ اما الآخرون ، المخرج وزميلي ،
فقد كانوا ينتظران دائماً امام الصعوبات أن آتي بالحل . وفيما كنت ازدرى
داخلياً وساسي وقريحتي ، كنت احمل الحل المطلوب ، من غير ان
أرجى . ولم اكن مدفوعاً الى ذلك بروح المنافسة ، بل بحركة اخلاص
اقوى من اية ارادة معاكسة : لقد كان علي ان اعمل ، ما دمت

أقبض . ولكنني كنت أحتج من نفسي كل مرة ، وأشعر بأحاسيس من
المراة والأسف كما لو اني بذرت شيئاً لا أؤمن له وكان بوسعي ان
استغله استغلالاً أفضل .

جميع هذه السيئات لم تبدُ لي على حقيقتها الا حين وقعت بعد شهرين
اتفاقي الاول مع باتستا ولم افهم في باديء الامر كيف اني لم ارها قبل
ذلك وكيف انفقت هذا الوقت كله لأدركها . ولكن امام استمرار هذا
الشعور بالكراهية وعدم الكرامة الذي كان يوقظه فيّ عملٌ كنت راغباً
فيه اول الأمر ، لم يكن بوسعي الا ان اربطه منطقياً بهمومي الزوجية .
لقد فهمت اخيراً ان عملي اذا كان حقاً يتسرني ، فلأن زوجتي كفت
عن ان تحبني . ، او تبدو على الاقل وكأنها لا تحبني بعد ؛ لقد واجهته
بجراءة وثقة ما كنت واثقاً من حب اميلي . ومنذ ان افتقدت هذا الحب ،
تخلت عني الجراءة والثقة كذلك ، وكف العمل عن ان يبدو لي الا
عبودية ، وانتهاكاً لحرمة المكر ، ومضيعة للوقت .

الفصل السادس

اخذت أعيش اذن انساناً يحمل في ذاته آلام مرضٍ في الحضانة ، ولكنه لا يعزم على الذهاب لرؤية الطبيب ؛ اعني اني كنت ابالغ في تمحاشي التركيز على موقف اميلي مني ومن عملي . كنت اعلم ان عليّ يوماً ان اواجه هذا التأمل ، ولكن لأنني انما كنت أحسه لا مفر لي منه ، كنت اجهد في تأجيله ما امكنتني ذلك ؛ فالقليل مما كنت قد احسست به جعلني أبعد هذه الافكار ، لفرط خوفي منها بلاوعي . واذن ، فقد استمرت اميلي في هذه العلاقات التي بدت اول الامر غير محتملة ، والتي اجهد الآن ، وانا اخشى الأسوأ ، في ان اعتبرها طبيعية ، من غير ان انجح تماماً في ذلك : ففي النهار ، احاديث لامبالية ، تافهة ، تهريية ؛ وفي الليل ، فعلُ الحب بين حين وآخر ، مع كثير من الارتباك ، مع وحشية من قبلي ، ولكن من غير ادنى مشاركة حقيقية من قبلها . وفي الوقت نفسه كنت ماضياً في عملي بهمة ، بل حتى بضراوة ، بالرغم من ان ذلك كان يحدث بارادة تزداد ضعفاً يوماً بعد يوم ، واشتمتاز يزداد قوة يوماً بعد يوم . ولو أوتيت آنذاك الجرأة على ان احدد لنفسني الموقف الذي كنت اجدني فيه ، لتخلت بالتأكيد عن العمل وعن الحب ، مقتنعاً كما حدث فيما بعد ، بأن كل حياة قد امحت

منها . ولكن تلك الجرأة كانت تقصني ، وربما كنت أومل بأن الزمن سيتكفل بحل مشكلاتي ، بلا ادنى جهد أبذله . والزمن هو الذي حلها فعلاً ، ولكن لا في الاتجاه الذي كنت أرغبه ! وهكذا كانت الايام تنقضي بين اميلي التي كانت ترفضني والعمل الذي كنت ارفضه في جو من الانتظار المعتم الاصم .

على ان السيناريو الذي كنت أعمله لحساب باتيستا كان يشرف على نهايته ، وفي الوقت نفسه اوماً باتيستا الى عمل جديد، اهم من الاول، كان يريدني ان اشارك فيه . وكجميع المتعجبين ، كان باتيستا رجلاً مستعجلاً دائماً وتهربياً ، ولم تكن ايماءاته السريعة تذهب قط الى ابعاد من عبارات امثال :

— بمجرد ان تنتهي يا موليتيني ، من هذا السيناريو ، فسنعمل سيناريو آخر على الفور .. وهو اكثر اهمية .
او يقول :

— كن مستعداً في يوم من هذه الايام ، يا موليتيني ، فان لديّ عرضاً سأطرحه عليك ...

او يقول بكلام اوضح :

— لا توقع اتفاقات ، يا موليتيني ؛ فن الآن حتى خمسة عشر يوماً،

ستوقع عقداً معي .

وأعترف اني رغم كرهى المتزايد لهذا النوع من العمل ، فان الامور الاولى التي فكرت بها غريزياً هي الشقة، والمبالغ التي كنت ما ازال مديناً بها ؛ فلماذا كنت سعيداً بعرض باتيستا . والحق ان الامور تجري على هذا النحو ، في مهنة السيناري هذه : ان اي عرض جديد — حتى ولو كان المرء لا يحبه — كما هو شأنى ، يُتقبل تقبلاً حسناً ، واذا لم يُعرض عليك شيء ، قلقك وخشيت ان تُبعد عن الساحة .

ولكنني لم أنبس بينت شقة امام اميلي عن هذا العرض الجديد من باتيستا ، وذلك لسببين : لأنني اولاً لم اكن قد عزمتم بعد على ان

أقبله ، ولأني ثانياً كنت قد فهمت ان عملي لا يهملها ، وكنت اوثر الا
احدتها عنه خشية ان اسبب توكيداً جديداً لبرودة ولا مبالاة كنت أصراً الا
أعلق عليها أية أهمية . والحق ان الامرين جميعاً كانا مشدودين برباط
كنت أحسه احساساً غامضاً : اني لم اكن على يقين بأن اقبل هذا
العمل لانني كنت اشعر بأن اميلي لا تحبني بعد . ولو أنها اجتبتني لأطلعها
على هذا العرض ، وحديثي اليها عنه كان يعني في الحقيقة قبوله .

وذات صباح ، خرجت للقاء المخرج الذي كنت اعلم معه في سناريو
رقم واحد ، سيناريو باتيستا . وكنت اعرف ان هذه هي آخر مرة اقصده
فيها ، لأن المخطوطة كانت على وشك ان تنتهي ، وسأكون من جديد
حرراً ، نصف نهار على الاقل . ثم ان شهرين من العمل كانا كافيين
لكي ابغض موضوع الفيلم وشخصياته . وكنت اعرف اني لن ألبث
طويلاً حتى اشتبك مع موضوع وشخصيات اخرى ستصبح هي ايضاً
غير محتملة ؛ ولكني في هذه اللحظة كنت اتخلص من الاولين ، وهذا
المنظور كان يكفي للايحاء بعزاء كبير لي .

وبفضل هذا الامل في حرية وشيكة ، اشتغلت ذلك اليوم بسهولة
غريبة . ولم يكن ينقص السيناريو الا بعض رتوش غير ذات أهمية ،
ولكننا كنا منذ بضعة ايام نعمل فيها بلا نتيجة . واستخففتني قريحتي ،
فاستطعت منذ البدء ان أجهد الحجاج الصحيحة وأحل الصعوبات الاخيرة
واحدة بعد الاخرى ، حتى ادركنا بعد زهاء ساعتين فقط ان السيناريو
قد انتهى حقاً هذه المرة . وكما يحدث في بعض تمارين الركض المرهقة
والتي لا تنتهي في الجبل ، حين يبدو فجأة في احدى المتعطفات الهدف
الذي كان المرء يائساً من بلوغه ، كنت اكتب عبارة من الحوار حين
صرخت في دهشة :

— ولكن لماذا لا ننهي السيناريو بهذه الكلمات نفسها ؟
وكان المخرج ، فيما كنت اكتب ، يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ،

فنظر الى الصفحة من فوق كتفي وقال بدوره ، في لهجة دهشة وعدم تصديق :

— انت على حق . ان بالامكان انهاء هكذا !
واذ ذاك سطرت كلمة « النهاية » في اسفل الصفحة ، واغلقت الملف ، ونهضت .

وظللنا لحظة صامتين ، ونحن ننظر كلانا الى المكتب الذي كانت المخطوطة المنتهية مستريحة عليه ، أشبه ببطلين من ابطال تسلق الجبال ، يتأملان ، وقد نفذت قواهما ، البحيرة الصغيرة او الصخرة التي بلغاها بعد كثير من الجهد والتعب . ثم تنهد المخرج وقال :

— اوف ! انتهى الامر !
قلت : — نعم . لقد انتهى .

وكان هذا المخرج يُدعى « بازيتي » ، وكان شاباً اشقر بارز القسامات ، جافاً ، دقيقاً ، مرتباً ، وهو اشبه بمهندس او بحاسب موسوس منه بفنان . وكان في مثل سني تقريباً ، ولكن العلاقات فيما بيننا ، كما يحدث عادة في مهنتنا ، كانت علاقات رئيس ومرؤوس ، لأن المخرج له السلطة دائماً على معاونيه . وقد استطرد ، بعد لحظة ، يلطفه البارد الاخرق :

— يجب ان نقول ، ياريسار ، بأنك تشبه الحصان الذي تنبعث منه رائحة الاسطبل ... انني كنت سأراهن انه كان علينا على الاقل اربعة ايام اخرى من العمل ، وها نحن قد تخلصنا في ساعتين ... ها ! ها ! لا يد ان تخيلك التوجه الى الصندوق هو الذي اعطاك الالهام !
لم اكن اكره بازيتي رغم انه متوسط الذكاء وغير حساس نفسياً . وكانت قد قامت بيننا علاقات تعويض ، اذا صح التعبير : كان هو رجلاً لا خيال له ولا اعصاب ، ولكنه كان عارفاً حدوده ومتواضعاً في الحقيقة ؛ اما انا ، فكنت ناثراً الاعصاب والخيال ، انفعالياً معقداً .

وقد أجبته بلهجة المزاح نفسه :

– نعم ، كما تقول تماماً .. تحيّل التوجّه الى الصندوق ...
ومضى يقول وهو يشعل سيجارة :

– ولكنّي لا اعتقد ان القضية قد انتهت .. لقد قنا بأهم عملنا ،
ولكن يجب ان نعيد النظر بالحوار ... فلا تمّ على غارك !
ولاحظت مرة اخرى طريقته في التعبير بجمل مبتذلة وعبارات جاهزة ،
وألقيت بنظرة خفية الى ساعتي : فكانت الواحدة تقريباً . وقلت :

– إطمئن ، إني باق تحت تصرفك لأي تصحيح تراه ...
فهز رأسه :

– انني اعرفكم جميعاً كما انتم .. وحتى لا تنام ، سأقول لباتيستا
ان يبقي ما يتوجب لك معلقاً ...

كانت له طريقة في المزاح بلهجة حماية تثير لدى رجل في هذه
السنّ الشابة ، لهجة تحث مساعديه بالتناوب بين العقاب والمديح ،
والتحفظات والتشجيعات ، والرجاء والأمر ؛ ويمكن اعتباره ، من هذه
الناحية ، مديراً صالحاً ، ما دامت الإدارة تتلخّص في قسم كبير منها
بمعرفة استخدام الآخرين استخداماً بارعاً .

وأجبت وانا استجيب لمعانيه كالعادة :

– لا ، بل ستأمر بأن تصرف لي كل حقي ، وانا اعدك بأن اكون
تحت تصرفك ..

وقال وهو يلح إلحاحاً ثقيلًا :

– ولكن ما عسى هذا المال كله ان ينفعلك ؟ انك لا تشيع منه ..
ومع ذلك ، فليست لك عشيقة ، ولا تلعب القمار ، وليس لك اولاد!
فأجبتته جاداً وانا اخفض عيني ، وقد انزعجت قليلاً من قلة تحفظه :

– ان عليّ ان ادفع اقساط شقتي .

– الا يزال عليك دين كثير ؟

– المبلغ كله تقريباً ...

— افترض ان زوجتك هي التي تعذبك لكي تطلب الاجر .. يخيل الي اني اسمعها تقول : ريشار ، لا تنس ان تصفي حساب تعويضك ! فأكدت قائلاً :

— انها طبيعاً زوجتي ، ولكنك تعرف النساء والاهمية التي يعلقنهما على بيوتهن ...

وأخذ يحدثني عن زوجته التي كانت تشبهه كثيراً ، ولكن كان يخيل الي انه يعتبرها مخلوقاً غريباً مليئاً بالاهواء والمفاجآت ، يعتبرها امرأة بالاجال . وكنت انتظاهر بأني كنت أصغي بتنبه ، ولكن فكري كان في مكان آخر . وانتهى الى القول :

— هذا كله جيد ، ولكني اعرفكم انتم السيناريين ، فكلكم من طينة واحدة .. حين تقبضون ، لا يراكم بعدُ أحد ... لا ، لا ... سأقول لباتيستا ان ينتظر قبل ان يدفع لك ...

— كفى يا بازيبي ، كن لطيفاً ...

— حسناً ، سأرى ... ولكن لا تعتمد على هذا اكثر مما ينبغي ... واسترقت نظرة اخرى الى ساعتي . لقد اتحت للمخرج فرصة ان ان يبدي سلطته ، فأبداها ، وكان بإمكانني ان امضي :

— حسناً ! انني مسرور ان انهيت هذا العمل ، او كما تقول ، معظم هذا العمل .. ولكني اعتمد انه آن الاوان لكي اذهب .

فصاح بحوية :

— اطلاقاً ! يجب ان نشرب نخب الفيلم .. ولن تذهب هكذا ...

قلت مستسلاً :

— اذا كانت القضية قضية شرب ، فاني ابقى ..

— إذن ، لننتقل الى الطرف الآخر .. اعتمد ان زوجتي ستكون

مسرورة بأن تشرب معنا .

وتبعته الى خارج المكتب عن طريق ممر خفيق ابيض كانت تبعث

منه رائحة مطبخ وخرق أطفال . وسبقني الى قاعة الاستقبال وهو ينادي :
- لويز ، لقد انتهينا ، انا وموليتي ، من سناريونا ؟ وسنشرب
الآن نخب انتصار الفيلم .

وتركت السيدة بازيتي اريكتها لتأتي الى لقائنا . وكانت امرأة قصيرة
ذات رأس كبير ، ووجه متطاوول شديد البياض تؤطره عصابات ملساء
سوداء . وكانت لما عينان كبيرتان ممتعتان غير معبرتين لم تكونا تنتعشان
الالحضور زوجها ، فلا تفصلان في هذه الحالة عنه ، كما تنظر بعض
الكلاب المحبة الى سيدها . اما في غياب زوجها ، فقد كانت تخفضها
بهيشة تواضع . وكانت قد رزقت في اربع سنوات اربعة اولاد ، فكانت
تبدو رخصة العود دقيقة .

قال بازيتي بمرحه المربك :

- هيا .. اني سأعدّ كوكتيلا .

فقاطعت السيدة بازيتي :

- ليس لي ، يا جينو ، فانت تعرف اني لا اشرب منه !

- ولكننا ، نحن ، سنشرب .

وجلست على اريكة يغطيها نسيج مزهر ، امام مدخنة من القرميد ،
وجلست السيدة بازيتي قبالي على اريكة مماثلة . ونظرت حولي : كانت
غرفة الاستقبال مصنوعة على غرار صاحبها ، فهي مرتبة ، ملمعة ،
منظمة تماماً ، ولكنها في الوقت نفسه مسكينة بعض الشيء ، كمثزل
مستخدم او محاسب . وقد ظلت افحص الغرفة ، لأن السيدة بازيتي لم
يكن يبدو انها تشعر بحاجة الى الحديث . كانت جالسة قبالي منخفضة
العينين ، ويداها على ركبتيها ، لا تبدي حراكاً . وفي هذه الاثناء ،
كان بازيتي قد اتجه الى الركن المقابل من الصالة ، نحو قطعة اثاث
قبيحة متنافرة ، هي في وقت واحد مشرب وجهاز راديو ؛ ورأيت
ينطوي فوق ساقيه الهزيلتين ، فيستخرج منه بحركة دقيقة بارزة زجاجتين ،

احدهما زجاجة فرموت والاخرى زجاجة دجن ، وثلاثة اقداح ووعاء.
وقد وضعها كلها على صينية حملها الى طاولة تقوم قرب المدخنة . وقد
لاحظت ان الزجاجتين كانتا مسدودتين لم تَمَسَا . لا بد ان بازيبي لم
يكن يسمح لنفسه ان يشرب ؛ وحتى الوعاء اللامع كان يبدو جديداً .
وقال لنا إنه ذاهب يأتي بالثلج ، ثم خرج .

وظللنا طويلاً في صمت أحسست الحاجة الى قطعه ، فقلت :

— لقد انتهينا اخيراً من السيناريو !

فأجابت السيدة بازيبي :

— نعم ، لقد قال جينو لي ذلك .

— وانا متأكد من ان الفيلم سيكون جيداً .

— وانا ايضاً متأكدة ، والحق ان جينو ما كان ليفعله لو كان الامر

خلاف ذلك .

— هل تعرفين موضوعه ؟

— نعم ، لقد رواه لي جينو .

— وهل يروق لك ؟

— انه يروق لجينو ، فهو إذن يروق لي .

— هل انتما متوافقان ؟

— انا وجينو ؟ دائماً ...

— من يأمر فيكما ؟

— جينو بالتأكيد .

ولاحظت انها كانت قد تفننت بترديد اسم زوجها كلما فتحت فيها.
وكنت قد تكلمت بلهجة غير مبالية ، فأجابني دائماً بأكبر حظ من

الجدية . وعاد بازيبي بدلو الثلج وناداني :

زوجتك على التلفون ، يا ريشار .

ولا ادري لماذا نقر الدم عنيماً الى قلبي كما لو أنه ارتداد مفاجيء
لضيق مألوف . ونهضت ألياً وتوجهت نحو الباب ، فأضاف ييزاتي :
- إن جهاز التلفون في المطبخ ، ولكنك تستطيع اذا شئت ان تتحدث
من هنا ، فقد وصلتُ المخابرة .

وبالفعل كان ثمة جهاز تلفون على صندوق بالقرب من المدخنة . وقد
تناولت الساعة وسمعت صوت اميلي :

- اعلرني ، يا ريشار ، يجب ان تدبر أمرك اليوم لتتغدى خارج
البيت .. فاني سأغدى مع امي .

- ولكن ، لماذا لم تقولي لي ذلك قبل الآن ؟

- لم اكن اريد ان ازعجك في عملك .

قلت - حسناً ، سأذهب لتناول الغداء في المطعم .

- الى اللقاء .

وقطعتُ المخابرة ، فالتفتُ الى بازيبي ، فسألني :

- ألا تأكل في بيتك يا ريشار ؟

- لا .. بل سأذهب الى المطعم .

- ولكن ، إبق فتناول الغداء معنا ... بلا تكليف ... وميسرنا

ذلك .

وكان احساس من الخيبة قد غمرني بشكل غير قابل للتفسير لدى
فكرت بأني سأتناول الطعام وحدي في المطعم ؛ ولا شك في ان ذلك
لأنني قد تلذذت مقدماً بفرحة إبلاغ اميلي انتهاء الساريو . وربما كنت
امتنعت لو تذكرت ان اعمالى لم تعد تهما ، ولكني في تلك اللحظة كنت
قد استجيت لعادة ماضينا القديمة . لقد سرتني دعوة بازيبي ، وقد قبلتها
بعرفان يتجاوز حدوده . وكان في هذه الاثناء قد فتح الزجاجتين ،
وأخذ ، بحركات صيدلي يدقق في قدر دواء يصنعه ، يصبّ اللجن
والفرموت ويفرغها في وعاء المزج . وكانت السيدة بازيبي ماضية في

التهام زوجها بعينها . اما هو ، فبعد ان خض الوعاء بقوة ، كان يتهاى
لماء القدحين . وقالت له زوجته :

— ارجوك ، مقدار اصبع لي فقط . وانت أيضاً ، يا جينو ، خذ
منه قليلاً ، فقد يؤذيك هذا .

— إن المرء لا ينهي كل يوم سناريو !

وملاً قدحينا ، وأفرغ قليلاً من الكوكتيل في القدح الثالث . ورفعنا
نحن الثلاثة اقداحنا ، فقال بيزاتي :

— العقبى لمئة سناريو كهذا !

وبلث شفنيه فقط ، ثم وضع قدحه على الطاولة . اما انا ، فأفرغت
كأسي جرعة واحدة . وشربت السيدة بازيبي بجرعات صغيرة ثم نهضت
وهي تقول :

— اني اريد ان القي نظرة على المطبخ ، هل تسمحان ؟

وخرجت ، فاحتل بازيبي مكانها على الاريكة المزهرة واخذنا نثرثـ.
او انه بالاعرى أخذ يحاور نفسه ، بصدد السيناريو خصوصاً ، وكنت
استمع اليه وانا اقرّة على كل شيء بهمهمات او بهزات من رأسي ،
فيما ظلت أشرب . وظل قدح بازيبي على حاله ، نصف ممتلئ ، وكنت
انا قد افرغت كأسى ثلاث مرات . ولا ادري لماذا كان شعور كثير
بالضييق يتسلل الى نفسي ، وكنت أشرب على امل ان يذهب السكر بهذا
الضييق . ولكنني شديد الصمود للكحول ، وكان كوكتيل بازيبي خفيفاً ،
كثير الماء . ولهذا لم تنفع ثلاثة اقداح او اربعة الا في مضاعفة ضيقي
المبهم . وتساءلت فجأة : « كم أحسني بائساً ، ولماذا ؟ »

وتذكرت آنذاك ان اول ضربة من ضربات الالم انما كنت قد
احسست بها وأنا أسمع في التلفون صوت اميلي ، بارداً ، لاشخصياً ،
متحفظاً ، وخصوصاً مختلفاً عن صوت السيدة بازيبي حين كانت تنطق
باسم « جينو » السحري . ولكن لم يمكّني ان أعتمق هذه التأملات لأن

السيدة بازيتي ظهرت من جديد واعلنت ان بوسعنا ان نتقل الى الطعام .
كانت قاعة طعام آل بازيتي من نوع المكتب والصالون نفسه :
أثاث براق لطيف رخيص الثمن من الحشب المدهون باللون الابيض ،
وصحون من خزف ملون ، وزجاجيات قديمة خضراء ، وخوان وفوط
من القنب الخام . وكانت الغرفة صغيرة ، وكانت الطاولة تملأها كلها
تقريباً بحيث انه كان على الخادمة ، حين تدور لتقدم الطعام ، ان تزيع
احد المدعويين من مكانه ؛ وقد أخذنا نتناول الطعام في صمت ورزاقه .
ثم غيرت الخادمة الصحون وانتهزت الفرصة لاسأل بازيتي عن مشاريعه
للمستقبل . فأجابني بصوته البارد ، الدقيق ، الذي كان التواضع وتقص
الحيال يبدوان وكأنهما هما اللذان يوحيان باختيار الكلمات فيه وتغيير
النبرات . وكنت أصمت ، غير واجد ما اقوله ، لأن مشاريع بازيتي لم
تكن تهمني اطلاقاً ، وحتى لو هممتي ، فقد كان هذا الصوت الابيض
كافياً لجعلها مضجرة . واذ كان نظري الشارد يتنقل بغموض من حاجة
الى حاجة ، من غير ان يجد شيئاً يمكن ان يجتذبه ، توقف عند وجه
السيدة بازيتي التي كانت تصغي هي ايضاً ، مسندة ذقنها بيدها ،
وعيناها مثبتتان كالعادة على زوجها . واذ ذاك دهشت لتعبير العينين في
ذلك الوجه : انه تعبير رقيق ، محرق ، ممزوق باعجاب متواضع وافتتان
جسدي وحياء يكاد يكون كثيراً . كنت من شدة الدهشة بحيث ان العاطفة
التي كانت تنعكس فيها كانت تبدو لي حقاً غير قابلة للفهم . إن بازيتي
ذاك الذي يبلغ هذا الحد من فقدان اللون وضعف الصحة وتوسط الذكاء ،
والحرمان من جميع المزايا التي يمكن ان تفتن امرأة ، كان يبدو لي
شيئاً لا يُصدق بالنسبة لمثل هذه العناية . ثم قلت لنفسي ان كل رجل
يتهي به الامر الى وجود المرأة التي تقدره وتحميه ، وأن الحكم على مشاعر
الآخرين وفقاً لمشاعر الانسان الخاصة خطأ جسيم . وأحسست آنذاك بنوع
من الودّ لهذه المرأة الى ذلك الحد لرفيقها ، وباحترام له ، هو الذي

كان يوحى لي ، ورغم قلة ذكائه ، بصداقة ساخرة حتى ذلك الحين . ولكن ، فسبما كانت نظراتي الشاردة تنتقل الى مكان آخر ، اخترقت ذهني فكرة او حدس مفاجيء : « إن في هاتين العينين ججاج حب هذه المرأة لزوحها ، وانما هو راضٍ عن نفسه وعمما يعمل لأنها تحبه ؛ اما عينا اميلي فقد كفتنا منذ وقت طويل عن ان تمكسا مثل هذا الشعور .. ان اميلي لا تحبني بعد ، وهي لن تحبني ابداً ... »

وايقظت هذه الفكرة في نفسي ألماً عميقاً ، فأحدثت لي صدمة جسدية الى حدّ اني كشرت في وجهي ، وان السيدة بازيبي ، المليئة بروح المشاركة سألتني ، هل اللحم الذي كنت آكله قاس . فطمأنتها: لقد كان اللحم طرياً . على اني فيما كنت اناظر بالاصغاء الى بازيبي الذي كان ماضياً في تعداد مشاريعه ، كنت اجهد في تعميق هذا الاحساس الاول الذي كان حاداً الى ذلك الحدّ ، وغامضاً في الوقت نفسه . وفهمت آنذاك اني منذ شهر كنت قد حاولت ان اعود نفسي على وضع غير محتمل ، من غير ان انجح في ذلك ؛ والواقع اني لم اكن أستطيع بعد ان احتمل ان اعيش هكذا بين اميلي التي لم تكن تحبني بعد ، وبين عمل لم اكن أحبه بعد ، بسبب من اميلي . وقلت في نفسي : « اني لا استطيع بعد المضي في هذا الطريق ، ويجب علي مرة اخيرة ان اتفاهم مع زوجتي ... واذا لزم الامر ، انفصلت عنها وتركت عملي ... »

على اني رغم هذا القرار اليأس ، لاحظت اني لم اكن انجح في الايمان به تماماً : فالحق اني لم اكن مقتنعاً بعد كل الاقتناع بان اميلي قد ابتعدت عني نهائياً ، ولا اني سأجد القوة على الانفصال عنها ، وعلى التخلي عن عملي كسيناري ، وعلى ان اعيش وحدي . كنت بعبارة اخرى أحس شعوراً من عدم التصديق جديداً كل الجدة بالنسبة لي ، ومثلاً ، تجاه أمر كان ذهني قد يعتبره اكيداً . فما دامت اميلي قد كفت عن ان تحبني ، فكيف تأتي لها ان تصل الى هذه اللامبالاة ؟

كنت أحس ، وقلبي منقبض بالضيق ، ان هذا التأكيد الاول ، المؤلم ، كان يتطلب لاقتناعي اقناعاً تاماً الف دليل آخر اشد خصوصية وأكثر ايلاماً . كنت اعرف ان اميلي لا تحبني بعد ، ولكني كنت اجهل اسباب هذا التغير ومراحله ، ولكي اقتنع بذلك مطلق الاقناع ، فلا بد من ان اتفاهم معها ، وان ابحث وأحلل ، وأدخل مسبار التحقيق الدقيق القاسي في جرح كنت قد جهدت حتى الآن في نسيانه . وكانت تلك الفكرة ترعبني ، على اني كنت ادرك اني لن اجد الجرأة على الانفصال عن اميلي ، الا بعد ان اقوم بتحقيقي ، كما اوحى لي بذلك إحساسٌ يائس من احساسيس روجي .

غير اني ظلمت آكل واشرب واصغي الى بازيتي من غير ان اشعر تقريباً بما افعل . وانتهى طعامنا أخيراً ، ولله الحمد . وانتقلنا من جديد الى الصالون حيث كان لا بد من ملء الشكليات المختلفة للاستقبالات البورجوازية : القهوة - قطعة او قطعتان من السكر ؟ - وتقديم المشروب - قوي ام خفيف ؟ - والرفض المألوف لهذا المشروب ، والاحاديث الفارغة التي تُزجي الوقت ...

وحين حسبتي قادراً على الاستئذان بالانصراف ، من غير ان اعطي انطباعاً بالاستعجال ، نهضت . ولكن في تلك اللحظة أدخلت الخادمة كبرى اولاد بازيتي لتبلغ الابوين انها ستأخذها في التزهة اليومية . كانت صبية سمراء ممتعة ذات عيين كبيرتين جداً ، ولكنها بالجملة عادية وتافهة كابويها . وفيما كنت انظر اليها وأمها تقبلها وتدلها ، خطرت في ذهني فكرة : انني لن اكون ابداً سعيداً مثل هؤلاء الناس ... ولن نرزق ، انا واميلي ، اي صبي ... وما لبثت فكرة اخرى ، اشد مرارة ، ان راودتني : كم أتلبس وضع جميع الأزواج الذين خبيتهم نساؤهم ! هأنذا أحسد زوجين عاديين يأكلان بالقبيلات ذريتها ... تماماً

كأي زوج يجد نفسه في وضعي ... وارهقتي هذه الفكرة وجعلت
المشهد العائلي الذي كنت اشهد مشهداً لا يطاق . واعلنت فجأة ان عليّ
ان انصرف . فراقني بازيي ، والغليون في فه ، الى الباب . وداخلني
الشعور بان انصرافي المستعجل قد ادهش وفاجأ زوجته التي كانت تنتظر
بلا ريب ان تراني اتعطف وأرق امام المشهد العميق الذي يعبر عن
حبها الرؤوم .

الفصل السابع

كان المفروض ان يشغلني سناريوي الثاني ابتداء من الساعة الرابعة ، وقد كان ما يزال امامي ساعة ونصف الساعة ؛ وحين اصبحت في الشارع ، توجهت بصورة غريزية الى منزلي . وكنت اعلم ان اميلي كانت غائبة ، باعتبار انها قد تناولت الغداء مع امها ، ولكنني كنت ارجو ، وانا مليء بالضيق ، حائر ، ان أجدها في البيت . وكنت أقول في نفسي اني في هذه الحالة ستكون لي المرأة على ان أحدثها بصراحة ، وأن أجراها الى تفسير نهائي . وكنت أشعر ان علاقتي باميلي ستوقف على هذا التفسير ، وكذلك عملي ، من جهة اخرى . فبعد هذه الترددات والذبذبات الكثيرة ، كنت أحسني اؤثر اي كارثة على استمرار وضع يتضح مع الاسف اكثر فأكثر ويقل احتماله أكثر فأكثر . ربما كان علي ان أنفصل عن زوجتي ، وان ارفض سناريو باتيستا الثاني ... ولن يكون ذلك الا افضل . ان الحقيقة ، مهما كانت ، تبدو لي منذ الآن أجدر بالقبول من هذا الوضع المتكرر القلدر ، بين الكذب وشعور العطف الذي كنت أكنهه لنفسي .

ولكنني اذ بلغت شارعنا ، عاودني تملمي : ان اميلي لا يمكن ان تكون في هذا البيت وفي هذه الشقة الجديدة التي كانت في نظري الآن

أشدّ كرهاً وغرابة ، وكنت سأحسّي أكثر حيرةً وألماً مما لو كنت في مكان عام . وأغرّبت لحظةً بان ابتعد وان اذهب فأقضي هذه الساعة والنصف من الانتظار في مقهى . ثم في لحظة برق مفاجيء من ذاكرتي ، ذكرت اني كنت مساء امس قد وعدت باتيستا ان اكون في بيتي في تلك الساعة من النهار ، لأتواعد معه على اللقاء بال تلفون ، وكان ذلك وعداً هاماً ، باعتبار ان باتيستا سيكلمني نهائياً عن سيناريوه الجديد ، وان يقترح لي عروضاً محسوسة ، وان يقدمني الى المخرج ، وكنت قد أكددت له اني سأكون في بيتي في الساعة الموعودة ، على ما لولف عادتي كل يوم . وكان بإمكانني طبعاً ان اتلفن لباتيستا من المقهى ، ولكنني لم اكن موقناً ان أجده في بيته لأنه غالباً ما يتناول الغداء في المطعم ، ومن جهة اخرى ، كنت وانا في ضيقي الشديد بحاجة الى حجة لكي اعود الى البيت ، وكانت مخابرة باتيستا المنتظرة تعطيني هذه الحجة بالذات .

واذن ، فقد عدت الى المنزل ، وتوجهت نحو المصعد ، فأغلقت ابوابه وضغطت على زر الطابق الأخير الذي أسكنه . وفيما كنت أصعد ، قلت لنفسي اني لم اكن في الحقيقة أملك حق تحديد موعد لباتيستا ، وانا غير واثق اطلاقاً ان اقبل عرضه الجديد . وكان كل شيء متوقفاً على تفاهمي مع اميلي . كنت أعرف انها اذا صارحتني انها لم تعد تحبني ، فاني لن اکتفي بعدم تأليف هذا السيناريو ، بل اني لن اؤلف بعده اي سناريو آخر في حياتي . ولما كانت اميلي غائبة عن البيت حين سيتلفن لباتيستا ، فلن اكون بمسطيع ان اقبل او ارفض او اذهب لمناقشة عرضه . اما معالجة القضية ثم الانسحاب بعد ذلك ، فأمر يبدو انه عيث من اشد انواع حياتي عيباً . وامسام هذه الفكرة استولى عليّ اشتزاز وغضب ضار ، فأوقفت المصعد فجأة وضغطت زر الهبوط . وقلت لنفسي ان من الافضل ألاّ يجذني باتيستا في الطرف الآخر من

الخط حين يتلفن . وفيما بعد ، في المساء ، سأقاهم مع اميلي ، وفي اليوم التالي ، أعطي المنتج جواباً يتطابق مع الجواب الذي اكون قد تلقيته منها .

في هذه الاثناء ، كان المصعد يهبط ، فكنت ارى الطوابق تجري عبر الزجاج المغبر ، بعيني سمكة تترى مستوى الماء في الحوض الذي تسكنه يهبط شيئاً فشيئاً . واخيراً ، توقف المصعد فوضعت يدي على مقبض الباب . ولكن فكرة مفاجئة اوقفت حركتي : اجل ، صحيح ان قبولي هذا العمل الجديد يتوقف على نتيجة مناقشتي مع اميلي ، ولكن لنفرض ان اميلي طمأننتني ، في المساء ، على ثبات جبهها لي ، الا او شك ، اذا غبت عن بيتي ، ان اثر استياء باتيستا وان افقد السيناريو ؟ لقد كنت اعرف بالحيرة ان للمنتجين اهواء الطغاة الصغار ، وهذا النوع من معاكسة القدر يمكن ان يكفي لجعل باتيستا يغير رأيه ويدفعه لاختيار سيناري آخر .

كانت هذه الافكار تتصارع في رأسي الحزين ، فتخلف لدي شعوراً عميقاً من الضيق الحاد : وكنت افكر بانني انسان مسكين ، يتمزق بين مصالحه وعواطفه ، وهو عاجز عن الاختيار والتقرير . والله وحده يعلم كم كنت ساقضي من الوقت في المصعد ، متردداً ضائعاً ، لو لم تفتح امرأة شابة الابواب ، وذراعها محملتان بالرزق . وخنقت صرخة ذعر اذ اكتشفتني مسمرأ في مكاني امامها ، ثم استدركت نفسها ، فدخلت وهي تسألني اي طابق اقصد ، فقلت :

– الطابق الاخير .

فقالت وهي تضغط على الزر :

– اما انا ، فالثاني .

وصعد المصعد .

وخرجت الى العتبة في شعور من العزاء العميق ، ولم استطع الامتناع

عن محاكمة عقلي : « حقاً ، في اية حالة انا حتى اتصرف على هذا النحو ؟ كيف وصلت الى هذا ؟ » فدخلت متزلي ، وانا افكر بهذا ، ودفعت باب قاعة الجلوس . واذ ذاك رأيت اميلي متمددة على الديوان ، في الروبلشامبر ، ويدها كتاب . وعلى مقربة من الديوان ، كانت ثمة طاولة صغيرة تحمل صحوناً وبقايا طعام . إن اميلي لم تخرج ، وهي لم تتناول الغداء في بيت امها ، لقد كذبت عليّ ...

ولا بد ان وجهي كان ذا هيئة غريبة ، لانها سألتني ، بعد ان اقلت علي نظرة :

— ما بك ؟ ماذا حدث لك ؟

فقلت بصوت مخنوق :

— الم يكن المفروض ان تتغدي في منزل امك ؟ فكيف حدث انك هنا ؟ لقد قلت لي انك ستتناولين الغداء في الخارج ...

فأجابت في هدوء :

— لقد تلفنت لي في اللحظة الاخيرة ... وقد فكرت بانك لم تكن بعدُ عند بازيبي .

كنت واثقاً من انها كانت تكذب ، ولم اكن ادري علام كان هذا اليقين قائماً . ولكنني كنت عاجزاً عن اعطائها دليلاً ، وكذلك عن اعطاء نفسي ، فسكت وجلست بدوري على الديوان . وبعد لحظة سألتني ، فيما هي تقلب صفحات مجلتها ، من غير ان ترفع الي عينيها :

— وانت ، ماذا فعلت ؟

— لقد دعاني بازيبي وزوجته الى تناول الغداء .

وفي هذه اللحظة ، رن جرس التلفون في الغرفة المجاورة . وفكرت : « انه باتيستا ، وسأقول له اني عزمت على ألا اشتغل بهذا السناريو .. فليذهب كل شيء الى الجحيم ! انه من الواضح تماماً ان هذه المرأة لا تملك ذرة من الحب لي .. »

ولكن اميلي ، بلا مبالاة العادية ، استعجلتني تقول :
- اذهب فانظر من يتلفن ، انها مخابرة لك بكل تأكيد .
فنهضت وخرجت . وكان جهاز التلفون في الغرفة المجاورة على
طاولة السرير . وقبل ان ارفع الساعة ، ألقىت نظرة على السرير بوسادته
الوحيدة ، فشعرت بقراري يتوكد : لقد انتهى الامر ، اني سأرفض
السناريو ، ثم اترك اميلي .
ورفعت الساعة الى اذني ، ولكن بدلاً من صوت باتيستا ، سمعت
صوت حماتي تسألني :

- ريشار ، هل اميلي هنا ؟

وقبل ان افكر اجبت :

- لا ، ليست هنا ... لقد قالت لي انها تتناول الطعام عندك ...
لقد خرجت ، وكنت اظن انكما معاً ...
فقال الصوت مندهشاً :

- عجباً ، ولكي تلفنت لما ان ذلك لم يكن ممكناً ، لان هذا هو
يوم عطلة خادمتي .

وفي تلك اللحظة ، رفعت عيني فرأيت عبر الباب الذي ظل مفتوحاً
اميلي متمددة على الديوان وهي تنظر اليّ ، ولاحظت ان عينيها المحدبتين
فيّ كانتا محمليتين بكراهية ارادية واحتقار بارد اكثر مما كانتا محمليتين
بالدهشة . وادركت انني انا الذي كذبت ، وانها كانت تعرف سبب
كذبي . وتمتعت اذذاك بوضع كلمات توديع ، ثم صرخت فجأة في
جهاز التلفون ، كما لو اني استدرك قائلاً :

- لا ... انتظري ... لقد وصلت اميلي في هذه اللحظة ...
سأعطيك اياها .

وفي الوقت نفسه اومأت لاميلي ان تأتي الى التلفون . فنهضت عن
الديوان ، واجتازت القاعة خافضة الرأس ، وتناولت الساعة من يدي

من غير ان تنظر الي ولا ان تشكرني . وتوجهت نحو قاعة الاستقبال ،
فرأيتها تقوم بحركة تم عن نفاذ صبر كما لو انها كانت تأمرني بان
اغلق الباب . فأطعت ، وجلست على الديوان ممثلاً بالاضطراب ،
واخذت انتظر .

ظلت اميلي مدة طويلة على التلفون ، وقد خيل إلي ، وانا في
وضعي من نفاذ الصبر المؤلم القلق ، أنها كانت تتقصد ذلك تقصداً .
ولكن محادثاتها التلفونية مع امها كانت دائماً طويلة جداً . كانت شديدة
التعلق بأمها التي ظلت أرملة والتي لم يكن لها سواها بعد ، ويبدو أنها
قد جعلت منها كاتمة اسرارها .

وفتح الباب اخيراً ، فظهرت اميلي مرة ثانية . وظلت ابكم جامداً ،
وفهمت من تعابير وجهها الشديدة القسوة انها كانت غاضبة علي .
وسرعان ما هاجمتني وهي تصفّ الصحون الباقية على الطاولة الصغيرة :
- هل اصبحت مجنوناً ؟ لماذا قلت لامي اني كنت في الخارج ؟
وظلت مغلق القسم ، مترعجاً باللهجة التي كانت تستعملها .
واضافت تقول :

- لقد كان ذلك لكي ترى هل قلت الحقيقة ؟ ولتأكد هل من
الصحيح ان امي كانت قد اخبرتني انها لم تكن تستطيع ان تتغدى معي ؟
فاجبت في جهد :

- ربما بسبب هذا ، في الواقع ..
- ارجوك اذن الا تعيد هذا ... انني اقول الحقيقة ، وليس لدي
ما اخفيه .. انني لا استطيع ان احتمل هذا النوع من التصرف ...
ونطقت بهذه الكلمات بلهجة حاسمة ثم خرجت من القاعة .
وظللت وحدي ، وتذوقت لحظة الشعور المرير بالانتصار . لقد كان
ذلك صحيحاً اذن : ان اميلي لم تعد تحبني ، ولو كنا في الماضي ، لما

حدثني قط بهذه اللهجة ، بل كانت تقول لي في رقة ممزوجة بالدهشة
المرحة :

– ولكن هل كنت تظن حقاً بأنني كذبت عليك ؟
ولكانت ضحكك ، كما لو ان المسألة خطأ طفولي يغتفر ، ولربما
اظهرت بعد ذلك روحاً دعائية :

– لعلك تشعر حقاً بالغيرة ؟ الا تعرف اذن انك غرامي الوحيد ؟
ولكان كل شيء ينتهي بقبلة شبه امومية، او بملامسة من يديها الكبيرتين
الطويلتين على جيبيني كما لتطرد كل همّ او ريبة .
ومن الصحيح اني في ذلك العهد ما كنت افكر قط بأن اراقبها ،
ولا ان اشك في كلامها . ولكن كل شيء قد تغير : هي في حجبها ،
وانا في حبي ، وكان كل شيء يبدو متجهاً نحو تغير أسوأ .

ولكن الانسان يريد دائماً ان يؤمل ، حتى حين يكون مقتنعاً بأن
ليس ثمة بعد من أمل . لقد حصلت على الدليل بأن اميلي لم تكن تحبني
بعد ، ومع ذلك ، فقد كان ما يزال في نفسي شك ، او بالاحرى
املٌ بأنني قد فسرت تفسيراً خاطئاً حادثاً لا اهمية له في الحقيقة . وقلت
لنفسي انه كان ينبغي لي الا استعجل الامور ، وان على اميلي نفسها ان
تؤكد لي انها لم تكن تحبني بعد : هي وحدها من يستطيع ان يعطيني
الادلة التي كنت مقتنعاً اليها بعد .

كانت جميع هذه الافكار تتتابع بسرعة في ذهني بينما كنت انظر في
الفراغ ، وانا جالس على الديوان . ثم دخلت اميلي ، وعادت تتمدد
خلفي ، واستأنفت قراءة مجلتها، وقلت لها اذ ذاك من غير ان التفت :
– سيتلفن لي باتيستا بعد قليل ليعرض عليّ سناريو جديداً ... وهي
عملية مريحة جداً هذه المرة ...

– ستكون مسروراً كما اعتقد ؟
– بامكاني ان اربح من هذا السناريو مالاً كثيراً ، ما يتيح لي ان

اواجه تسديد قسطين على الاقل من ثمن الشقة ...
فلزمت الصمت هذه المرة . واستطردت اقول :
- ثم انه يمثل اهمية كبيرة لي ، لأنني اذا وضعته ، فسيكون عليّ
ان أضع سواه بعد ذلك ... انه فيلم كبير .
فسألت اخيراً ، بصوتها الشارد ، صوت من يتكلم وهو يقرأ ، ومن
غير ان يغادر الصفحة بعينه :
- ايّ فيلم ؟
فأجبت بصوت احتفالي :
- لا ادري ، والحقيقة اني قررت ان ارفض هذا العرض .
فسألت بصوت ما يزال هادئاً ، لامبالياً :
- ولماذا ؟

فنهضت واستندرت حول الديوان واتيت اجلس قبالتها . وخففت
اميلي المجلة التي كانت تقرأها ، ونظرت اليّ ، فضيت اقول بكل
اخلاص :

- لانك كما تعلمين اكره هذا النوع من العمل ، ولا اقوم به الا
حبة لك ... لندفع اقساط هذه الشقة التي تحرصين عليها او تبدين انك
تحرصين عليها الى هذا الحد ... ولكني تيقنت انك لا تحبينني بعد ..
ولهذا فان ذلك كله يصبح بلا فائدة ..

كانت تنظر اليّ بعينين كبيرتين ، من غير ان تنبس بكلمة :
- انك لا تحبينني بعد .. وعلى ذلك ، فاني سأترك هذه المهنة ..
اما البيت .. فأني سأرهنه او ابيعه .. انني لا استطيع الاستمرار في العيش
على هذا النحو ، واشعر أن الاوان قد آن لأقول لك ذلك .. انت
تعرفين الآن ... ان باتيستا سيتلفن عما قليل ، وسأرسله الى الشيطان .
انقضى الأمر وتكلمت ، وقد آذنت ساعة الشرح والتوضيح التي
كنت اريدها واخشاها في وقت واحد . وكنت احس عزاء لهذه الفكرة ،

وكنت احدثق في اميلي بصراحة جديدة كل الجدة ، منتظراً جوابها .
ولم تجب في الحال . ان تصريحي المفاجيء قد اخذها طبعاً على حين غرة ،
ثم قالت بخدر ، كما لو انها تريد ان تكسب وقتاً :
— هل هناك ما يجعلك تفكر بأني لا احبك بعد ؟
فأجبت بعنف مهووس :

— كل شيء .

— مثلاً ؟

— قولي لي اولاً ان كان هذا صحيحاً ام لا ؟

فألحت بعناد :

— عليك انت ان تقول لي ما الذي يجعلك تفكر هكذا ؟

فقلت مردداً :

— كل شيء ، طريقتك في الحديث معي ، وفي النظر اليّ ، وفي
تصرفك تجاهي ... كل شيء ... بل لقد عبرت منذ شهر عن رغبتك
في ان تنفصل في غرفة النوم .. وانت لم تريدي ذلك قط في الماضي !
كانت تنظر اليّ ، غير واثقة ، ثم رأيت فجأة في عينها بريق عزم
سريع ، وكنت واثقاً من انها قد حددت الموقف الذي ستخذه مني ،
ولن يغير شيء خط سيرها ، مهما قلت او فعلت . وقد اجابت في
رقة :

— أوكد لك ، واستطيع ان اقسم بشرفي ، اني لا استطيع ان انام
والنافذة مفتوحة ... اني بحاجة الى الظلام والصمت ... اقسم لك ...

— ولكنني عرضت عليك ان تغلقي النافذة ليلاً .

— ثم ان هناك شيئاً آخر (وترددت) فأنت لا تكون صامتا وانت

نائم ...

— ماذا تقصدين ؟

— انك تشخر (وابتسمت بسمه خفيفة وازافت) كنت توقظني كل

ليلة ، ولهذا قررت ان انام وحدي .
وادهشني ان اعلم اني كنت اشخر ، وكدت لا اصدق ذلك ،
لقد نمت من قبل الى جانب نساء أخريات : فلم تشكُ اية واحدة من
شخيري . واستطردت :
- انك لا تحبيني بعد لأن امرأة محبة (وترددت مترعجا) لا تقوم
بفعل الحب كما تقومين انت به معي منذ حين ...
وسرعان ما احتجت ، بمرارة تقريبا :
- انني اتساءل حقا ماذا تريد ؟. فنحن نقوم بفعل الحب كلما رغبتَ
في ذلك .. هل رفضتُ يوما هذا ؟
كنت اعلم اني ، في هذا النوع من الحديث الحميم ، كنت انا
اوفر الاثنين حشمة وحياء وارتيابا . اما اميلي التي هي في العادة شديدة
التحفظ ، فقد كانت تبدو وكأنها تفقد في الصميمية كل حشمة وكل
انزعاج ، بل كان يحدث لها احيانا - وهذا ما كان يدهشني بغموض
ويجذبني في الوقت نفسه بما لا ادري من البراءة - ان تتكلم قبل فعل
الحب وفي اثنائه وبعده ، عن الحب نفسه ، بلا تحفظ ولا حنان مغطى ،
بل بفجاجة وحرية محيرتين .
وتمتت بين اسناني :
- صحيح انك لم ترفضني ، ولكن ...
فقاطعتني واستمرت تقول بحموية :
- في كل مرة اردت ان تقوم بفعل الحب ، استجبت لك .. ولستَ
رجلاً يكفني بمجرد الفعل ... انك تحسن القيام بفعل الحب جداً ...
قلت وقد اثارني الغرور ، بالرغم مني :
- صحيح ؟
قالت بجفاف من غير ان تنظر اليّ :
- نعم ... اذا كنت لا احبك .. فان تفتنك نفسه كان يبدو لي

مضجراً ، ولسعيت الى التهرب .. ان بوسع المرأة ان تجد دائماً اعتذاراً
للمنوع ، أليس كذلك ؟
قلت : - مفهوم ... انك لم تتمني قط .. ولكن طريقتك في فعل
الحب هي التي تثبت لي انك لا تحبيني !
- وما هي هذه الطريقة ؟

كان عليّ ان اجيبها : « انك تقومين بفعل الحب كاللومس الخاضعة
لزيورها والتي تتمنى بكل بساطة ان يتم الأمر بسرعة ... » ولكني احتراماً
لها ولي ، فضلت ان اصمت . ولو قلت ذلك لأنكرت وربما ذكرتي ،
بدقة تكتيكية ، بعض اندفاعاتها الشهوانية التي كان يتجلى فيها كل
شيء : المرونة والتباس اللذة والضراوة والعنف الغرامي ، كل شيء ما
عدا الحنان والاستسلام الصادرين عن عطاء الذات الحقيقي . وما كنت
اعرف ما الذي اقبلها به ، وبالإضافة الى ذلك ، فاني سأخطيء خطأً
جسيماً اذا جرحتها بتشبيه مذل . وادركت ان التوضيح الذي كنت اريد
أن افصح له المجال قد تلاشى ، وقد حزنت واكتفيت بالقول :
- بالاجمال ، ومهما كان السبب ، فأنا مقتنع بأنك لا تحبيني بعد ،
هذا كل شيء ...

فحددت في نظرها قبل ان تجيبني او قبل ان تقوم بحركة ، كما لو
انها تريد ان تعرف من تعبير وجهي الموقف الذي يحسن ان تتخذه .
ولاحظت آنذاك عندها تفرداً كنت اعرفه من قبل : لقد كان وجهها
الجميل الاسمر الماديء ، المنسجم ، يُصاب وهي في التردد الذي يمزق
نفسها ، بنوع من التحلل ، فتصبح وجنتها متنافرتين ، اذ تبدو احدهما
وقد هزلت فجأة ، وينجذب فيها من جهة ، وتبدو عينها الزائغتان
المعتمتان وكأنهما تدويان في محجريهما كما في شمع مظلم . لقد قلت اني
كنت اعرف هذا التفرد ، والواقع انه كان يظهر كل مرة كانت تتخذ
فيها قراراً لم يكن يروق لها او هو ينافي طبعها .

لقد ألفت فجأة ذراعيها حول عنقي ، في اندفاع مفاجئة من شخصها كله ، وهي تهتف بصوت بدا غريباً في مسمعي :
— لماذا تتكلم هكذا يا ريشار ؟ انني احبك لا اكثر ولا اقل من الماضي !

وشعرت بتنفسها الحار على رأسي ، ولامست يدها جيبني وصدغي وشعري ، وجذبت رأسي الى صدرها وضمته بذراعيها .

ولكن خطر في ذهني انها كانت تعانقني على هذا النحو لتخفي عني وجهها الذي ربما كان فقط منزعجاً متوتراً كما يحدث حين يُعمل شيء ما بلا ادنى مشاركة روحية ، بل بمحض الارادة . وفيما كنت اضغط رأسي على صدرها نصف العاري الذي كان يعلو ويهبط بأنفاسها المادئة ، لم استطع الامتناع ، وانا في حثي اليائس الى الحب ، عن التفكير :
« ليست هذه الا حركات ... امن الممكن الا تخون نفسها فتعبر عن نيتها بعبارة او بلهجة ؟ »

وكنت انتظر ، وانتظر ، حين سمعت صوتها يقول في تحفظ :
— ما الذي سنفعله لو كفتُ حقاً عن حبك ؟

لقد كشفت عن نفسها : كنت اذن على حق ، وكنت استطع ان اتذوق انتصاري المرير . كانت اميلي تريد ان تعرف ما عساه يكون رد فعلي اذا كفت عن حبي ، لكي تعيش الاخطار التي تنتج عن صراحة كاملة . ومن غير ان انحرك ، تمتد ورأسي ما يزال في صدرها العذب الدافئ :

— لقد سبق ان اجبتك على هذا السؤال ... سأرفض اولاً عرض باتيستا .

وكنت اود ان اضيف : « وسأفصل عنك » ، ولكني لم املك الشجاعة لأن اقول ذلك في تلك اللحظة ، وخدي على نهدها ويدها على جيبني . وكنت أومل في اعماقي ان تظل متعلقة بي ، واخشى على هذا

الانفصال المقبول نظرياً ، ان يصبح حقيقياً .

وسمعتها تنهد وهي ما تزال تضميني اليها :

- ولكني احبك ، وهذا كله عيب ... اتدري ما الذي ستفعله ؟
حين يتلفن لك باتيستا ستحدد له موعداً ، فتوافيه اليه وتقبل هذا العمل...
- ولكن لماذا ، ما دمت لا تكتمين لي بعد اي عاطفة ؟

فأجابني هذه المرة بلهجة تعقل :

- احبك ، فلا تجعلني اكرر ذلك ... وانا حريصة على ان ابقى
هنا .. اما اذا كان هذا العمل لا يروق لك ، فلن اناقش في الامر ..
ولكن اذا كنت تريد ان تتخلي عنه لانك تتصور اني لست متعلقة بك
بعد ولا بمتزلنا ، فاعلم اذن انك على خطأ ...
وداعبني أمل غامض في انها لا تكذب عليّ ، وشعرت في الوقت
نفسه انها قد اقنعني ، لهذه اللحظة على الاقل . ولكن كم كنت اود
الآن ان اعرف المزيد ، وان اطمنن كل الاطمئنان !

واذ ذاك رأيتها تتكلم ببساطة ، كما لو انها حدثت برغبي ، فتمتمت:
- قبلي : هل تريد ؟

فاستويت وتأملمتها لحظة قبل ان اعانقها ، وتوقفت عند تعبير التعب
الذي كان يطبع وجهها المتحلل المتردد اكثر من اي وقت مضى ، كما
لو انها اذ حدثني وداعبني وعانقتني انما بذلت جهداً فوق الجهد البشري.
وكانت تنهياً وهي تضميني لبذل جهد اشد قسوة . وقد اخذتها من
ذقنها ، وادنيت شفّي من شفيتها حين رن جرس التلفون ، فقالت وهي
تتخلص بعزاء واضح :

- انه باتيستا .

وركضت نحو الغرفة . ومن الديوان الذي ظللت جالسا عليه ،
رأيتها عبر الباب المفتوح تتناول الساعة وتقول :
- نعم ، انه هنا ، وسأعطيك اياه ... كيف حالك ؟

كلمات اخرى من الجهة المقابلة من الخط . وقالت وهي توميء لي
بيدها ايماءة ذكية :

– كنا بالفعل نتحدث عنك وعن فيلمك الجديد ...
عبارات اخرى مجهولة ... ثم من جديد صوتها الرصين :
– ولكن طبعاً ، سنلتقي كالسابق ، انني اعطيك ريشار .
وذهبت اتناول الساعة . وكما توقعت من قبل ، اخبرني بانيستا انه
سيتظرنني في اليوم التالي في مكتبه ، بعد الظهر . فأجبت اني سأقصده ،
وقبادلت معه بضع كلمات اخرى ثم وضعت الساعة .
واذ ذلك فقط لاحظت ان اميلي ، بينما كنت اتكلم ، كانت قد
خرجت من الغرفة . وفكرت تفكيراً طبيعياً بانها ذهبت لأنها اطمأنت الى
اني قبلت موعد بانيستا ، فلم يكن وجودها وملاحظاتها بعد الآن ضرورية !

الفصل الثامن

في اليوم التالي اتجهت الى الموعد المحدد في الساعة المحددة . وكان مكتب باتيستا يشغل كامل الشقة الاولى من بيت قديم ، سبق ان سكنته اسرة ارستقراطية ، وأصبح الآن ، كما يحدث ذلك في ايامنا ، مقرّ عديد من الشركات التجارية . وكان باتيستا قد قسم بحواجز خشبية الصالونات الواسعة ذات السقوف المدهونة ، والجدران المغطاة بالملاط ، وجعل منها عدداً من الغرف الصغيرة المؤثثة بشكل نفعي . وحيث كان متعلقاً في الماضي لوحات قديمة ذات موضوع فيثولوجي او مقدس ، كانت تُرى اليوم اعلانات دعائية كبيرة ذات ألوان صارخة ؛ وكان مسمرأ في كل مكان صور ممثلين وممثلات ، وصفحات من مجلات مصورة ، وشهادات مؤطرة لجوائز مهرجانات وزينات اخرى اصبحت كلاسيكية في مراكز الشركات السينائية .

وكان يقوم في الغرفة الملحقة ، على أرضية من التصاوير الخضراء الذاهة اللون ، مقعد معدني كبير مطلي باللون الاخضر ، وكانت خلفه ثلاث سكرتيرات او اربع يستقبلن الزائرين .

كان باتيستا منتجاً شاباً استطاع خلال هذه السنوات الاخيرة أن يشق طريقه بفضل افلام ذات نوعية مسطحة بما فيه الكفاية ، ولكنها ذات

نجاح تجاري مرموق . وكانت شركته المسماة بتواضع « افلام النصر » تتمتع في ذلك الحين بحظوة ممتازة .

في تلك الساعة ، كانت الغرفة الملحقة غاصّة ؛ وبمنظرة واحسدة صنتقتُ بلا تردد ، بما كنت قد كسبته من خبرة في هذه المادة ، الزائرين الى فئات: السيناريين الذين كانوا يُعرفون من مشيتهم المنهمكة المتعبة في وقت واحد، ومحافظهم التي يشدونّها تحت الذراع، وثيابهم المتكلفة والمهملة في وقت واحد ؛ وامبرازاريو سينمائي قديم ، شبيه بساعي بريد قروي او دلال خيل ؛ وفتاتان او ثلاث ، ممثلات ، ربما كنّ جذابات ، ولكنهن فاسدات فساداً مبكراً بتعبير مدروس وماكياج مبالغ به ، وزينة متكلفة ومطامح واضحة ؛ واخيراً بعض الافراد غير القابلين للوصف ، من النوع الذي لا يغيب ابداً في الغرفة الملحقة للمتجّين : ممثلون بلا عمل ، كتاب مرتجلون ، متسولون من كل نوع . ولقد كان جميع هؤلاء الاشخاص يندرعون الارض الفسيفسائية المسودة ذهاباً واياباً ، او يغوصون في المقاعد المذهبة المصطفة بازاء الجدران ، متثابرين او مدخنين او متحدثين بصوت خافت .

وكانت السكرتيرات ، اذا لم يُجبن على المخبرات التلفونية العديدة، يبقن جامدات خلف المقعد ، وهن يحقدن في الفراغ بأعينهن التي كان السأم وغياب الافكار يجعلانها زجاجية وشبه حواء . وكان صوت جرس حادٍ ومزعج يُسمع بين الفينة والفينة ؛ فكانت السكرتيرات ينتفضن ، ويقذفن باسم من الاسماء ، فينهض احد الزوار على عجل ويختفي خلف باب ذي مصراعين ابيضين مذهبين .

وأعطيت اسمي وذهبت بدوري اجلس في جوف القاعة . وكنت في حالة نفسية في مثل بأس حالة الامس ، ولكن كنت أحسني اكثر هدوءاً . فبعد محادثتي مباشرة مع اميلي ، كنت قد فكرت طويلاً واقتنعت نهائياً انها قد كذبت عليّ اذ اكدت لي حياها ؛ ولكني كنت في هذه

المرّة ، بدافع من ذهاب الحماسة ، ومن ارادة قوية في اجبار زوجي على التفسير الكامل الصريح الذي لم اكن قد حصلت عليه بعد ، كنت قد تخلّيت ، مؤقتاً على الاقل ، عن التصرف وفق مخططاتي . إنني إذن لن ارفض اقتراح باتيستا ، بالرغم من اني اعرف ان عملي بعد الآن لم يكن له من هدف بعد ، شأنه في ذلك شأن حياتي كلها . ولن يفوت الاوان فيما بعد ، حين انتزع الحقيقة من اميلي ، على ايقاف عملي والاستغناء عن كل شيء . بل ان هذا الحلّ الاكثر مسرحية ، كان اكثر ملاءمة لي ، على نحو ما : فان الفضيحة والضرر الناتجين اذا وقعا سينتجان عن يأس ، وفي الوقت نفسه عن ارادتي في وضع حد للترددات والتسويات .

كنت أحسني ، كما قلت ، هادئاً ، ولكن هدوءاً قريباً من الحمود والسكون ؛ إن ألاماً غير محدود مخلق الواناً من القلق لأن المرء يؤمل حتى النهاية الا يكون هذا الالم حقيقياً ؛ أما الالم الأكيد فهو يوحى ، فترة من الزمن ، بطمأنينة كثيفة . كنت أحسني هادئاً ، ولكنني كنت اعرف ان ذلك لم يكن لمدة طويلة ؛ كانت المرحلة الاولى ، وهي مرحلة الشك ، قد انتهت – او هكذا كنت أظن على الاقل – وستبدأ عما قليل مرحلة الالم والثورة والندم . ولم اكن اجهل ان هدوءاً مميّتاً ، أشبه بهذا السكون المزيف الخائق الذي يسبق آخر انفجارات العاصفة ، كان يقوم بين هاتين المرحلتين .

وفيما كنت انتظر ان ادخل على باتيستا ، خطر لبالي اني حتى ذلك الحين كنت قد اكتفيت بالتأكد من وجود حبّ اميلي او عدم وجوده . اما واني كنت احسبني اعرف الآن انها لا تحبني بعد ، فقد كان بإمكانني – وقد ادعشني هذا الاكتشاف – ان اعالج مشكلة اخرى ، هي مشكلة سبب لامبالاتها . فاذا ما اكتشف هذا السبب ، أصبح من الاسهل عليّ ان اجبر زوجي على توضيح موقفها .

ويجب عليّ ان اقول ان هذه المسألة الجديدة قد أيقظت فيّ عدم التصديق وبدت لي مستحيلة ، غير قابلة للوقوع . إن اميلي لا يمكنها ان يكون لديها ايّ سبب للانفصال عني . ومن اين كان يأتيني يقيني بهذا الموضوع ؟ اني لا ادري ؛ ولكني من جهة اخرى ، لم أكن استطيع ان اشرح لماذا ؛ فبينما كانت في رأيي لا يمكن ان يكون لها اي مبرر لان تكف عن حيي ، فان كونها لا تحبني بعد لم يكون اقل من ذلك يقيناً . وكنت افكر ، وانا تائه بسبب هذا التناقض بين قلبي وفكري ؛ ثم انتهى بي الامر الى القول ، كما يحدث حين يواجه المرء بعض مسائل الهندسة : « لنفكر بدماء من اللامعقول : ان هناك سبباً ؛ ففي هذا الفرض ، ما عسى ان يكون هذا السبب ؟ »

ولاحظت ان المرء يقدر ما يكون مغموراً بالشك ، يشتد تعلقه بتبصر زائف للفكر ، على امل ان يوضّح بالحجة ما جعلته العاطفة معتكراً وغامضاً . وفي تلك الساعة التي لم تكن فيها غريزتي تعطيني الا اجوبة متناقضة ، اردت ان الجأ الى تحقيق مبني على الحجج ، منظم على طريقة التحري في الرواية البوليسية : لقد قُتل شخص ما ، والقضية هي البحث عما سبب القتل ، ومن هناك نتقل بسهولة الى القاتل ... وقد كانت الاسباب ، بالنسبة لاميلي ، يمكن ان تكون من نوعين : الاول يتعلق بها ، والثاني بي . ولكن الاسباب الاولى تلتخص في سبب واحد ، كما لاحظت بسرعة : إن اميلي لم تكن تحبني بعد ، لأنها كانت تحب شخصاً آخر .

لقد حسبت لاول وهلة أن بإمكان ان أبعث في تصميم ، هذا الفرض . فليس في سلوك اميلي الحديث ما يمكن من التفكير بوجود رجل آخر في حياتها ؛ بل لقد كنت الاحظ ، على العكس ، انتكاساً في وحدتها وفي تبعيتها لي . كانت تلازم بيتها بصورة دائمة تقريباً ، وكانت تقضي وقتها في المطالعة وفي مخابرة امها او في الانصراف الى اعمالها المنزلية ؛

اما بشأن الران التسلية عندها ، كالسينما والتزهات وتناول العشاء في المطعم فقد كانت مرتبطة بي ارتباطاً وثيقاً . صحيح ان حياتها كانت من قبل أكثر تنوعاً ، وبصورة متواضعة ، أكثر اتصالاً بالناس في المهود الاولى من زواجنا ، حين كانت ما تزال تحفظ بصداقاتها كفتاة . ولكن هذه الصداقات ما لبثت ان انحلت ، وزاد تعلقها بي ، في تبعية كانت من فرط الوثوق احياناً بحيث غدت ترعجني . ولم تكن هذه التبعية قد خفت مع برود عاطفتها تجاهي . انها لم تسع الى ان تحلّ عليّ ، حتى ولان تفعل اي شيء خارجاً عني . كانت تنتظر الآن ، بلا حب ، عودتي من العمل ، كما في الماضي ، وتسلياتها الوحيدة التي كان تحققها معي . وفي هذه التبعية الخالية من الحب ، كانت ثمة ما هو مؤثر وكتيب ، موقف مخلوق يملك نزعة الاخلاص ويبقي مخلصاً بالرغم من ان اسباب اخلاصه قد انتفت . لقد كان بوسعي ان اؤكد في يقين انها لم يكن لها في حياتها إلاّ بي ، بالرغم من انها لم تعد تحبني .

ومن جهة اخرى ، كنت اعرفها او احسب اني اعرفها معرفة كافية لأعلم انه لم يكن بإمكانها ان تكون مغرمة برجل آخر . كنت اعلم انها غير قادرة على الكذب ؛ كانت تملك قبل كل شيء صراحة خشنة لا هوادة فيها يبدو امامها كل زيف مضجراً ومتعباً وصارماً . ثم انها كانت تفتقر كلياً الى الخيال ، الى حد انها لم تكن تستطيع الاهتمام بأي شيء اذا لم يكن محسوساً وحقيقياً مئة بالمئة .

وإذن فقد كنت واثقاً انها اذا احبت شخصاً آخر ، وهي تملك هذا الطبع ، فانها لن تجد افضل من ان تخبرني بذلك على الفور ، وبوحشية قاسية هي خاصية طبقتها كبورجوازية صغيرة . لقد كانت تستطيع بلا ريب ان تكون - وقد كانت بالفعل الآن - كتومة وصامتة فيما يخص تغيير عواطفها تجاهي ؛ ولكن كان يكون شاقاً عليها ان لم يكن مستحيلاً ان تعيش حياة مزدوجة فتخفي الحيانة ، اي تحترع تلك المواعيد لدى

الخياطة ، وتلك الزيارات لأهل لها او صديقات ، وتلك الالوان مسن التأخر بسبب مشهد وقتت عنده او ازدحام الشوارع - تلك الاعذار التي تلجأ اليها النساء عادة في مثل هذه الظروف . لا ، إن يرودتها تجاهي لم تكن تعني انها كانت تلتهب بالنسبة لرجل آخر . فلئن كان ثمة من سبب - ولا بد ان يكون هناك سبب - فلا ينبغي التماسه في حياتها ، بل في حياتي .

كنت من شدة استغرافي في افكاري بحيث لم الاحظ على الفور ان احدى السكرتيرات كانت واقفة امامي وهي تردد لي مبتسمة :

- يا سيد مولتيبي ، ان السيد باتيستا ينتظرك .

فانقضت وتركت قضيتي موقتاً معلقة ، ودخلت مسرعاً الى مكتب المنتج .

وفي جوف صالة واسعة ذات سقف مطلي ، وجدلان مغطاة بالاوراق المذهبة ، كان باتيستا جالساً خلف مكتب معدني مطلي بالاخضر ، شبيه بالذي يقوم في الغرفة الملحقة . وانا ألاحظ اني بالرغم من حديثي الكثير عن باتيستا ، لم أصفه بعد ، وانه ليس من غير المجدي ان افعل ذلك.

كان باتيستا واحداً من هؤلاء الرجال الذين يعطيه مساعدوه ومرؤوسوه، حين يدير ظهره ، اوصافاً جميلة من مثل « الوحش » ، « القرد الاكبر » « الغوريلا » . ولا يستطيع ان انكر حظ الحقيقة الموجود في هذه الاوصاف على الاقل بالنسبة لمظهر باتيستا الجسدي ، ولكني اكره ان انيد اي انسان بأي لقب ، ولم يسبق لي ان استعملت مثل هذه التسميات ، لا سيما وانها كانت مخطئة في كونها لا تحسب حساباً لسمة من شخصية باتيستا شديدة البروز ، اقصد دهائه ، حتى لا اقول براءته ، الذي يكمن وراء وحشيته الظاهرية . صحيح انه كان وحشاً كبيراً ، ذا حيوية مستمرة متدفقة ، ولكن هذه الحيوية لم تكن تبدو فقط في قابلياته المتعددة.

بل كانت تبدى في الثفن الدقيق الذكي الذي كان يلجأ اليه لارضاء هذه القابليات .

كان باتيستا ذا قامة ريع ، وكتفين واسعين جداً ، ونصف اعلى طويل ذي ساقين قصيرتين ؛ ومن هنا تشابهه مع قرد كبير ، هذا التشابه الذي استحق عليها تلك الالقاب . وقد كان في وجهه كذلك شيء قردي : فقد كان شعره الذي يتجلى عن صدغيه مزروعاً في منخفض جبينه ؛ وكان ذا حاجبين كثيفين متحركين ، وعينين صغيرتين ، وانف قصير عريض ، وفم واسع متقدم الفكين بعض الشيء ، بلا شفتين تقريباً ، وهو دقيق كأنه الحزوة . ولم يكن لباتيستا بطن ، بل معدة ، اقصد انه كان يحمل الى امام الصدر واعلى الجوف . وكانت يدها القصيرتان الصلبتان يغطيها شعر اسود كان يمضي الى ابعد من الرسغين ، حتى الى ما تحت أكمامه ؛ وقد سبق لي ان لاحظت ، اذ كنا يوماً معاً على شاطيء البحر ، ان صدره وكتفيه كانت مقنفة بالشعر الذي كان يتلى حتى البطن .

وقد كان هذا الرجل ذو المظهر الوحشي يتكلم بصوت رقيق ، مليء بالاماءات ، مصالح بلهجة مائعة ، ذات لكنة ، لأنه كان مولوداً في الأرجنتين . وفي ذلك الصوت اللامتوقع الاخاذ ، كنت ارى دليلاً على تلك البراعة والدقة اللتين تحدثت عنها . ولم يكن باتيستا وحده ، فقد كان جالساً امام المكتب رجل " قدمه لي تحت اسم « رينغولد » .

وكنت اعرف من يكون هذا الشخص ، ولكني كنت اراه للمرة الاولى . كان رينغولد مخرجاً ألمانياً سبق له ، في عهد السينما السابقة للنازية ، أن أخرج عدة افلام من نوع الـ « كولوسال » التي احرزت نجاحاً هائلاً . صحيح ان رينغولد لم يكن من مستوى امثال « بابسييت » او « لانغ » ، ولكنه كان مخرجاً ذا وزن ولم تكن له روح تجارية ، وكانت مطامحه جادة ، بالرغم من انها قابلة للمناقشة . وبعد صعود

هتلر ، سقط هو في النسيان . وقد رُوي انه كان يعمل في هوليود ، ولكن لم يُعرض ايّ فيلم من اخراجه خلال السنوات الاخيرة في ايطاليا .
وها هو يعود الى الظهور بصورة غريبة في مكتب باتيستا .

وفيما كان باتيستا يتحدث ، كنت انظر الى رينغولد في فصول . هل سبق لك ان رأيت على احدى القواعد القديمة صورة غوته ؟ كان وجه رينغولد النبيل ، الاولمبي ، يذكر بتلك الصورة ، وبذلك الرأس ذي العينين الفضيّتين اللامعتين . كان حقاً رأس رجل عظيم ؛ على ان امتحاناً ادق جعلني ألاحظ ان هذه الجلالة وذلك النبيل لم يكونا ثابتين ؛ كانت الملامح خشنة بعض الشيء وفيها شيء لقيي وخفيف ، كما في الاقنعة المصنوعة من الورق المقوى المعجن ؛ وكان ذلك الوجه هوجي اجيالاً بأنه لم يكن ثمة خلفه شيء ، كما في تلك السحج الكثيرة التي تحملها تلك الرؤوس الضخمة التي يتمتع بها البلهاء في الكرنفالات .

ونهب رينغولد ليصافحني وهو ينجني رأسه ويصفق عقبه بدقة ، فلاحظت اذ ذلك انه كان قصيراً ، ذا كفين عريضتين تؤكدان جلالة الوجه . ولاحظت كذلك انه كان وهو يصافحني يبتسم بوجه كبير ، ابتسامة نصف قمرية ، كاشفاً لي عن صفيين من الاسنان البيضاء الشديدة الانتظام ، جعلاني افكر ، لا ادري لماذا ، بطقم اسنان مستعار . ولكنه اذ جلس ، اخضت هذه البسمة دفعة واحدة من غير ان تخلف اثراً ، كما ينظفيء القمر حين تلمّ به غيمة ، تاركة المجال للتعبير قاسٍ مستاء ومتسلط في الوقت نفسه .

وتناول باتيستا الامور من بعيد ، على عادته . فقال لي وهو يشير الى رينغولد :

— كنا نتحدث عن كابري ... هل تعرف كابري ، يا موليتيني ؟
فأجبت : — قليلاً .

فتابع باتيستا :

— اني املك فيها مقصورة ، وكنت بالفعل امتدح لرينغولد سحر
كابري .. فحتى رجل اعمال مثلي يشعر فيها شعوراً خفيفاً انه يصبح
شاعراً !

وكانت تلك صفة من صفات باتيستا تظهر غالباً : تلك الطريقة في
ان يبحث اعجابه بالاشياء الجميلة الطيبة ، وبكل ما ينتمي الى حقل
المثالي ؛ وكان اكثر ما يجير ان هذه الحماسة كانت صادقة بالرغم من
ارتباطها على نحو او آخر بمقاصد قليلة التجرد . واستطرد بعد لحظات ،
كما لو انه قد انفعل بكلماته بالذات :

— طبيعة معطاء .. سماء رائعة .. بحر دائم الزرقة ، وزهور وزهور
في كل مكان .. أعتقد اني لو كنت كاتباً ، مثلك يا موليتي ، فاني
احب ان اعيش في كابري لاستلهمها .. ولا ادري لماذا لا يرسم
الرسامون تلك المناظر ، بل يعطوننا على العكس لوحات بشعة لا يفهم
منها المرء شيئاً .. ان اللوحات في كابري ناجزة اذا صحّ التعبير ..
ويكفي ان يقف المرء امام الطبيعة وان ينقلها .

ولم أقل شيئاً ؛ وكنت انظر الى رينغولد بطرف عيني ، فرأيت
يوميء برأسه موافقاً ، ببسمة معلقة في وسط وجهه كهلال في سماء
لا غيم فيها . ولكن باتيستا كان يتابع :

— ان في نيتي ان اسافر لاقضي فيها بضعة شهور ، بعيداً عن
الاعمال ، وللراحة وحدها ، ولكي لا انجح في ذلك .. ان لنا نحن
سكان المدن حياة ضد الطبيعة .. ان الانسان لم يصنع ليعيش في مكتب ،
بين الاضبارات .. ان اهالي كابري يبسدون أسعد منا .. ويكفي ان
تراهم مساء حين يخرجون للتزفة : شبان وفتيات ضاحكون ، هادثون ،
فرحون ، على غاية اللطف .. ذلك ان لهم حياة تخلو من الأحداث
الكبيرة ، ولهم مطامع متواضعة ، ومصالح صغيرة ، ومصاعب صغيرة ..
آه ! كم انهم محظوظون !

وساد صمت من جديد . ثم استطرده باتيستا :

— ان لي هناك مقصورة ، كما ذكرت لك ... ولكنني مع الاسف لا
أسكنها قط .. ولعلني لم امكث فيها شهرين منذ ان اشتريتها .. وكنت
اقول لرينغولد ان هذه المقصورة ستكون المكان المرغبي لتأليف سناريو الفيلم ..
ان المناظر الطبيعية ستلهمكما ، لاسيما وانها من لون الفيلم نفسه ، كما
أوضحت لرينغولد .

وتدخل رينغولد ليقول :

— ان بإمكان المرء ، يا سيد باتيستا ، ان يعمل في اي مكان ..
واختيار كابري يمكن بالتأكيد ان يكون مناسباً ، لاسيما اذا التقطنا
المناظر الخارجية في خليج نابولي ، كما اعتقد .

— تماماً ... علي ان رينغولد يقول لي انه يفضل الاقامة في الفندق
بسبب عاداته ، وهو يحب من جهة اخرى ان يكون وحيداً في بعض
الساعات ليفكر بهدوء في عمله .. وبالمقابل ، اعتقد ان بإمكانك انت ،
يا موليتيني ، ان تسكن المقصورة مع زوجتك .. ان فيها كل وسائل
الراحة ، ولن يكون من الصعب وجود امرأة لتقوم باعمال البيت .

وكالعادة ، فكرت اولاً باميلي : ان قضاء فترة من الزمن في
كابري ، في مقصورة جميلة ، يمكن ان يحل اموراً كثيرة . وتيقنت
فجأة ، بلا سبب ، ان كل شيء هناك سيتضح . وكان ان شكرت
باتيستا بجملة صادقة :

— شكراً ... اعتقد انا ايضاً ان كابري مناسبة لكتابة سناريو ..
وسنكون انا وزوجتي سعيدين بالاقامة في مقصورتك .

— حسناً .. اتفقنا اذن !

قالها باتيستا مع حركة من اليد جرحتها في غموض ، كما لو انه
كان يود ايقاف سبل من الشكر لم يكن في نيتي قط ان اعبر له
عنه . واطاف :

– اتفقنا .. سندهيون الى كابري ، وسألحق بكم .. والآن ،
لتحدث قليلاً عن الفيلم ...

وفكرت : « لقد آن الاوان ا » وترصدت باتيسنا في تنبه . وكنت
أحس الآن ندماً غامضاً اني قبلت دعوته بهذه السرعة . كنت احس ،
من غير ان ادري السبب ، بان اميلي ستنكر عليّ عجلتي . وفكرت
وانا مغیظ بعض الشيء : « كان ينبغي ان اقول اني سأفكر بالأمر ،
وان عليّ ان استشير زوجي ... » وكانت الحرارة التي تقبلت بها
ذلك العرض تبدو لي في غير محلها ، وكنت استشعر من ذلك بعض
الحجل . على ان باتيسنا كان يضيف :

– اننا جميعاً متفقون على اننا يجب ان نجد شيئاً جديداً ، لقد انتهت
فترة ما بعد الحرب ، واصبحت الحاجة ماسة الى صيغة جديدة ... لقد
اضجرت الواقعية الجديدة ، على سبيل المثال ، معظم الناس .. والحال
اننا اذا حللنا الدوافع التي أدت الى هذه التخمة ، فاننا لا شك بالغون
استنتاج هذه الصيغة الجديدة ...

وكما سبق ان قلت ، كنت أعرف ان باتيسنا كان يفضل ألاّ يطرق
اية حجة بطريقة مباشرة . انه لم يكن وقحاً ، او هو على الاقل لم
يكن يريد ان يبدو كذلك . واذن ، فقد كان من الصعب عليه ان
يقدم المسألة المادية ، كما يفعل كثير من المنتجين الاكثر صراحة منه :
فان الاستفادة التي لم تكن اقل اهمية بالنسبة اليه مما هي بالنسبة للاخرين ،
بل ربما كان العكس هو الصحيح ، كانت تظل دائماً في ظل خفي .
فحين كان موضوع فيلم من الافلام لا يبدو له مربحاً بما فيه الكفاية ،
لم يكن يقول قط : « ان هذا السناريو لن يعود علينا باي فلس ا »
وانما كان يقول : « ان هذا السناريو لا يروق لي لهذا السبب او
ذاك » – وكانت هذه الاسباب دائماً فنية او خلقية . على ان قضية
الربح كانت تظل حجر الزاوية ، وكان دليل ذلك يقوم حين يقع

اختيار باتيستا دائماً على أكثر الحلول نزعة تجارية ، بعد مناقشات عديدة حول الخير والشر في الفن السينمائي ، عندما يتبدد ما كنت اسميه « ستار الدخان » لديه . ومن اجل هذا ، كنت قد فقدت منذ زمن طويل كل اهتمام بآرائه التي لا تنتهي عن الجمال او القبح ، وعن الاخلاقية او اللاأخلاقية في الافلام ، وكنت انتظره عند النقطة التي كان ينتهي اليها بصورة حتمية : قضية الأرباح . وفي هذه المرة ، فكرت أيضاً : « انه بالطبع لن يقول ان الفيلم الواقعي الجديد قد أضجر المتحجبن لانه غير مريح .. فلنر قليلاً ما سوف يجد .. »

وبالفعل ، فان باتيستا استطرد حديثه بعد لحظة تأمل ، فقال :
— ارى ان الجميع ان كانوا قد ضجروا من الفيلم الواقعي الجديد ،
فلأنه غير صحي ..

وتوقف لحظة ، فارسلت نظرة موارية لرينغولد الذي لم يأت بحركة .
وانتقل باتيستا ، الذي كان يريد بصمته ان يؤكد على كلمة « صحي » ،
الى شرح فكرته ، فقال :

— حين اقول غير صحي ، أعني ان هذا النوع من الافلام لا يشجع
على الحياة .. لا يمنح الثقة بالحياة .. انه مؤس ، متشائم ، اسود ..
فيصرف النظر عن انه يمثل ايطاليا على انها بلد الفقراء ذوي الاممال —
وهذا ما يسرّ الاجانب الذين يهمهم ان يحكموا علينا كأمة للشحاذين —
فان الفيلم الواقعي يلحّ أكثر مما ينبغي على نواحي الحياة السلبية ، على
كل ما هناك من قبح واحطاط وشدوذ في الحياة البشرية . وأكرر انه
فيلم متشائم غير صحي ، يذكر الناس بمصاعبهم بدلاً من مساعدتهم
على التغلب عليها .

كنت أنظر الى باتيستا وأنا اتساءل مرة اخرى ان كان يفكر حقاً
بما كان يقول . لقد كان في كلامه اخلاص لا يمكن الشك فيه ، بالرغم
من انه ربما كان اخلاص انسان مقتنع بالاشياء التي تفيده ؛ وقد تابع

بهذا الصوت ذي الجرس اللانسانى الفريد ، المعدني حتى في عذوبته :
- لقد عرض عليّ رينغولد اقتراحاً بدأ لي هاماً ... لقد لاحظ ان
الافلام المستمدة من التوراة تحظى منذ حين بنجاح كبير .. وهي التي
حققت بالفعل اكبر الازياح (قال هذه العبارة بصوت منخفض ، كما
لو انه كان يفتح هلالين بلا أهمية) ولماذا ؟ لأن التوراة في رأبي هي
اكثر الكتب صحة .. لقد قال لي رينغولد : « ان الانغلو ساكسون
يملكون التوراة ؛ وانتم سكان البحر الابيض المتوسط ، تملكون هوميروس ،
أليس كذلك ؟

وهنا التفت الى رينغولد ، كما لو انه كان غير واثق من استشهاده .
ولكن رينغولد قال مؤكداً وقد انعكس على وجهه تلمل خفيف :
- تماماً ...

واستطرد باتستا وهو ما يزال يستشهد برينغولد :
- ان هوميروس بالنسبة اليكم ، انتم سكان حوض المتوسط ،
كالتوراة بالنسبة للانغلو ساكسون ... فلماذا لا نخرج فيلماً عن
« الاوديسة » مثلاً ؟
صمت . وكنت مندهشاً ، وكنت اعتقد اني اكسب وقتاً فسألت
في جهد :

- الاوديسة كلها ، ام فصل من الاوديسة ؟
وسرعان ما اجاب باتستا :

- لقد ناقشنا القضية ، وانتهينا الى ان من الافضل ان نأخذ بعين
الاعتبار مجموع الاوديسة بالذات .. ولكن ليس لذلك الا أهمية بسيطة ..
ان ما يهم (ورفع صوته) اني ادركت اخيراً وانا اعيد قراءة هوميروس
ما كنت ابحث عنه منذ وقت طويل من غير ان اشعر بذلك ، وما
كنت واثقاً من اني لن اعثر عليه في افلام الواقعية الجديدة ... شيء لم
اجده مثلاً في الموضوعات التي طرحتها عليّ يا مولتيبي ... ذلك الشيء

الذي كنت أشعر به من غير ان افهمه ، والذي هو ضروري للسينما
ضرورته للحياة : الشعر !

ونظرت من جديد الى رينغولد ؛ كانت بسمته قد عرّضت ، وكان
يوافق برأسه . وقلت كيفا تأتني لي ، وبلهجة اقرب الى الجفاف :
- في الاوديسة .. كلنا يعلم ان في كل صفحة شعراً .. والمهم هو
نقل هذا الشعر الى القيلم !
فقال باتيستنا وهو يتناول مسطرة من على الطاولة ويواجه طرفها
نحوي :

- صحيح جداً .. صحيح جداً .. ولكنكما ستكونان اثنان من اجل
هذا : انت ورينغولد .. اني اعرف ان الشعر موجود هناك .. فليكما
انما ان تستخرجاه !
وأجبت :

- ان الاوديسة عالم برّمته .. وبامكاننا ان نستخرج منه ما نشاء ..
ويكفي ان يعرف المرء من اية وجهة نظر ينطلق ..
فيدا على باتيستنا انه متزعج من قلة حماسي ، وتأملني في تنبه ثقيل ،
كما ليحزر النوايا التي كانت تخفي وراء برودتي . وبدا اخيراً انه يؤجل
امتحانه الى موعد آخر ، فنهض واستدار خلف المكتب ، واخذ يذرع
القاعة جيئة وذهاباً ، عالي الرأس ، ويداه في جيبي بنطاله . والتفتنا
ننظر اليه ، فاذا به يقول ، وهو ما قتيء بمشي :

- ان ما استوقفتني خاصة في الاوديسة هو ان شعر هوميروس هو
دائماً مسرحي ، وحين اقول مسرحي اعني ما يروق الجمهور حقاً ..
لنأخذ مثلاً فصل « نوزيكا » : اننا نرى فيه جميع هاتيك الفتيات
الجميلات العاريات اللواتي يسبحن في الماء تحت انظار يوليوس المختبيء
خلف احد الادغال .. ان هذا ، مع فارق بسيط ، هو مشهد من
« حسناوات الحمام » .. ولنأخذ الآن « بوليفام » ، المسخ ذا العين

الوحيدة ، العملاق .. انه « كنج - كونغ » ، احد انجح افلام فترة ما قبل الحرب .. و « سيرسة » في قصره ، انما هو « انتينايا » في « الاثنتيد » .. هذا ما ادعوه بالمرحي ... وهذا المشهد ايضاً هو شعري ..

ونوقف باتيستا امامنا ، وهو مهتاج جداً ، واطرافه في جلال :
- على هذا النحو ارى « اوديسة » افلام « تريومف » !
ولزمت الصمت ، وكنت ادرك ان الشعر في نظر باتيستا كان يعني شيئاً مختلفاً تماماً عما كان يعنيه في نظري ؛ فأوديسة افلام « تريومف » في مفهومه ، مستقل ثقلاً دقيقاً عن افلام هوليوود التوراتية ذات المشاهد الفخمة ، مع الشياطين والمسوخ والنساء العاريات ومشاهد الاغراء والغرام والحذقات . لقد كانت نزعة باتيستا في حقيقتها أشبه بترعة المخرجين الايطاليين الذين ينتمون الى عهد انونزيو ؛ وكيف كان يمكن ان يكون الامر غير ذلك ؟

وكان باتيستا في هذه الاثناء قد استدار حول المكتب ، وعاد يجلس وهو يهتف بي :

- واذن ، فما قولك في هذا ، يامولتيني ؟
ان كل من يعرف عالم السينما يعرف ان بعض الافلام مضمون لها ان ترى النور ، حتى قبل ان تُكتب اول كلمة في السيناريو ؛ اما بعض الافلام الاخرى ، فبالامكان المراهنة على انها لن تُنجز ، حتى ولو وقع عقد بشأنها ، وُحررت عدة مئات من صفحات مخطوطاتها . والحال اني بحاسة شمّي كسيناري محترف ، كنت احس سريعاً ، عبر كلمات باتيستا ، ان هذه الاودية ستكون واحداً من الافلام التي يتحدث عنها الناس كثيراً ، ولكنها في نهاية المطاف لن تخرج الى النور . لماذا ؟ انني لم اكن استطيع الاجابة على ذلك .. ربما بسبب الطموح المتجاوز حده في هذا العمل ، او ربما بسبب المظهر الجسدي لرينغولد الذي

يبدو جليلاً جداً حين يجلس ، وصغيراً جداً حين يقف . كنت اشعر بان هذا القيلم ، على غرار رينغولد ، سيكون ذا بداية فخمة ونهاية غير ذات قيمة .. ولكن لماذا كان باتيستا يحرص على ان ينتج فيلماً كهذا ؟

لقد كنت اعرفه حذراً جداً ، في حقيقته ، وعازماً على ان يربح من غير مجازفات . صحيح انه كان يغذي املاً خفياً في ان يجد تمويلاً كثيفاً ، ربما كان اميركياً ، وهو يستغل اسم هوميروس ، توراة شعوب البحر الابيض المتوسط ، كما كان يقول رينغولد . ولكني لم اكن أجهل ، من جهة اخرى ، ان باتيستا ، شأنه في ذلك شأن المنتجين الآخرين ، سيجد في حال عدم انتاج القيلم ، حجة صالحة لعدم التعويض عليّ مقابل عملي . ان هذا ما يحدث دائماً : فاذا اخفق القيلم في اثناء الطريق ، قُذِف بالتعويضات الى البحر ، واقترح المنتج ان يحسب تعويض السناريو الناجز على سناريو آخر يأتي فيما بعد ، فلا يجرؤ السيناري المسكين ان يرفض ، مجبراً على ذلك بالحلجة . واذن ، فقد قلت لنفسي انه كان عليّ ، في مطلق الاحوال ، ان اغطي نفسي بان اطلب عقداً ، وخصوصاً سلفة ؛ ولم يكن ثمة لبلوغ غرضي الا وسيلة : ان اخلق المصاعب ، وان اوميء الى ان مساعدتي لم تكن اقل من مضمونة . وقد اجبت بلهجة جافة :

– رأبي أنها فكرة جميلة !

– ولكن لم يكن يبدو عليك انك متحمس جداً ..

فأجبت بما فيه الكفاية من الاخلاص :

– اخشى الا يكون هذا هو النوع الذي يلائمني .. ان يكون هذا

السناريو خارج طاقتي ..

فقال باتيستا :

– ولماذا ؟ لقد سبق ان قلت لي مراراً انك كنت راغباً في المشاركة

بفيلم ضخم .. وها انت الآن تنسحب اذ أتيت لك امكانية ذلك ا
وحاولت ان افسر موقفي :

– احسني يا باتيستا مخلوقاً خصوصاً للافلام البيكولوجية ، اما هذا
الذي نتحدث عنه ، فيكون مسرحياً صرفاً ، اذا فهمت الامر جيداً ..
من نوع الافلام الاميركية المستمدة من موضوعات توراتية ...
ولم يتح لباتيستا هذه المرة ان يجيب ، اذ تدخل رينغولد على غير
انتظار ، فقال لي وهو يرسم على وجهه بسمته العادية الشبيهة بالهلل ،
كما 'يلصق ممثل' شارباً مستعاراً تحت أنفه ، منحنيماً فوقى بتعبير اجلال
يكاد يكون تملقاً :

– اسمع يا سيد مولتيني ، لقد عبر السيد باتيستا خير تعبير عن
آرائه ، ورسم لوحة كاملة للفيلم الذي اود ان اخرجه بمعونته ... على
انه قد تكلم بصفته منتجاً ، وهو يأخذ بعين الاعتبار خصوصاً الجانب
المسرحي ... ولكن اذا كنت تحس نفسك مخلوقاً للموضوعات البيكولوجية
فلا تردد في وضع هذا السناريو ، لان هذا الفيلم ، لو تعلم ، ليس
شيئاً آخر غير تنمية العلاقات البيكولوجية بين يوليسوس وبينيلوب ...
والفكرة التي اريد تصويرها هي فكرة رجل يحب امرأته وهي لا تحبه ..
وظللت مشدوهاً ، لا سيما وان مظهر رينغولد السني كانت تضيئه
بسمته المتكلفة كان يبدو وكأنه يمنع عليّ ايّ فرار : كان عليّ ان
اجيب على الفور . وفي اللحظة نفسها التي كنت اهم بأن احتج بقولي :
« ولكن من غير الصحيح ان بينيلوب لا تحب يوليسوس » – ذكرتي
عبارة المخرج فجأة قضية علاقتي مع اميلي ، وقد كانت في الواقع
علاقات رجل يحب زوجته وهي لا تحبه ، وفي الوقت نفسه ، بسبب
من تداعي الافكار ، صعدت من اعماق ذاكرتي ذكرى اشبه بحجاب
مفاجيء على السؤال الذي كنت اطرحه على نفسي خلال انتظاري في
المدخل : لماذا كانت اميلي قد كفتت عن حيي ؟

ان ما سأرويهِ الآن ربما بدأ طويلاً ، ولكن الواقع ان هذا الامر قد مرّ في ذهني بسرعة البرق .

اذن ، فيما كان ريتغولد يميل عليّ بوجهه الباسم ، تمثّلتُني فجأة في صالون مؤجّرنا ، وانا املي بضع صفحات من سناريو . وكان هذا العمل الذي يستمرّ منذ بضعة ايام على وشك ان ينتهي ، وكنت ما ازال غير قادر على ان اقول ان كانت الضاربة على الآلة الكاتبة التي كانت تعمل لحسابي جميلة على النظر ام لا ، وأنداك حدث حادث صغير فتح عينيّ ، اذا صحّ التعبير . فقد كانت تضرب على الآلة جملة لا اذكرها ، فلاحظت وانا انظر ما كانت تضربه من فوق كتنفها انها ارتكبت غلطة . وسرعان ما اردت ان اصححها ، فأنحيت اشير باصبعي الى الغلطة ، وحدث ان لامست على غير ارادة مني يد المرأة الشابة ، وهي يد كبيرة قوية كانت تتناقض تناقضاً غريباً مع ضآلة جسمها . ولاحظت انها لم تسحب يدها ، وضربت كلمة اخرى ، ولست اصابعها وانا غير بعيد عن تقصّد ذلك . واذ ذاك توجهت عيناى اليها ، فرأيت انها كانت تنظر اليّ بدورها في تعبيرٍ من الانتظار ، ومن الدعوة تقريباً . وفوجئت كما لو اني كنت اراها للمرة الاولى ، فلاحظت انها كانت امرأة جميلة تقريباً ، ذات فم ريان ، وانف خيث ، وعينين كبيرتين سوداوين وشعر غزير أجعد يكشف عن جبينها . ولكن تعبير هذا الوجه الممتع الدقيق كان تعبير كزازة واحتقار . وتفصيل أخير : حين قالت :

— المعذرة ، لقد شردت قليلاً ...

لاحظت نبرة صوتها الجافة المستاءة بوضوح .

لقد نظرت اليها اذن ، فرأيت انها كانت تصمد لنظرتي بطريقة شبه استعدادية . ولا شك في اني اظهرت بعض الاضطراب، وظنت هي اني كنت اردّ عليها بصمت ، لاننا منذ ذلك اليوم ، وخلال بضعة ايام ،

قضيتها وقتنا ونحن نتبادل النظر . او على الأصح كانت هي التي تحدق فيّ طويلاً ، كلما استطاعت ذلك ، في وقاحة مقصودة ، باحثة عن نظري حين كان يهرب منها ، جاهدة في الاحتفاظ بعينيّ حين كانتا تلتقيان عينيها وفي ترصدهما حين كانتا تستقران عليها . وقد كان تبادل هذه النظرات نادراً في اول الأمر ، ثم ازداد تدريجياً . واخيراً ، قررت بعد عمجي عن تفادي نظراتها ان املي عليها من وراء ظهرها . ولكن الخبيثة وجدت وسيلة للتغلب على هذه الصعوبة بالنظر اليّ عبر مرآة كبيرة معلقة على الجدار تجاهها ، بحيث اني كلما رفعت بصري رأيت عينيها في المرآة .

وتمّ اخيراً ما كانت ترغب في ان يتمّ : فبينما كنت ذات يوم أحنّي فوقها لأصحح غلطة ، التقت نظراتنا وتوحّد فانا لحظةً في قبلة سريعة . وكانت كلماتها الاولى ، بعد ان انفصلت شفاهنا ، ذات دلالة :

— واخيراً ! لقد بدأت اعتقد حقاً انك لن تقرر ابداً !

وكانت تبدو واثقة من انها استولت عليّ ، واثقة جداً حتى انها بعد ان اخذت القبلة ، ومن غير ان تطلب قبلة اخرى ، عادت الى العمل .

اما انا ، فكنت مضطرباً ، ممتلئاً بالندم . صحيح ان الفتاة كانت تروق لي ، والا لما قبلتها ، ولكني كنت واثقاً من اني لا احبها ، وانها في الحقيقة قد انتزعت هذه القبلة من غروري الرجالي بلإلحاق اثار ملقي .

واخذت تضرب على الآلة بعد ذلك من غير ان تنظر اليّ ، خافضة العينين ، اشد فتنة من اي وقت مضى ، بوجهها المستدير الممتقع وشعرها الكثيف المعتم . ثم ارتكبت ، عن قصد بسلا شك ، غلطة اخرى ، وكنت أتياً غريزياً لتصحيحها . وكانت هي تراقب حركاتي ، وما كاد رأسي يقرب من رأسها ، حتى التفتت فطوقت عنقي بلذراعها وامسكت

بأذني ، فجلذبت في الى فهما . وفي تلك اللحظة ، فُتح الباب ،
ودخلت اميلي .

واعتقد ان عرض ما تلا ذلك بالتفصيل غير مفيد . لقد اختفت
اميلي على التو ، وبعد ان اعلنت للمرأة الشابة في سرعة :

— لقد انتهى العمل اليوم ، يا آنسة ... فتستطيعين ان تتصرفي ...
خرجت وانا اكاد اعدو ، ولحقت بزوجتي الى الغرفة ، وكنت اتوقع
انفجار حادث من حوادث الغيرة ، ولكن اميلي اكتفت بأن تقول لي
اذ رأني داخلاً :

— كان يوسعك على الأقل ان تسمح الاحمر عن شفتيك ..
فسحت في ، وذهبت اجلس الى قربها ، وارتدت ان ابرر موقعي
بأن اروي لها الحقيقة كاملة . وقد اصغت اليّ بهيئة من الخلد المرتاب
لا يمكن وصفها ، ولكنها في واقعها رحيمة ، وصرحت لي اخيراً اني
اذا كنت احب هذه السكرتيرة حقاً، فليس لي الا ان اقول ذلك ، لانها
كانت مستعدة لقبول الانفصال . ولكنها كانت تتكلم بلا مراة ، وبنوع
من العذوبة الكئيبة ، كما لو انها كانت تدعوني في صمت الى ان انكر
اقوالها . واخيراً ، وبعد تفسيرات طويلة واضطراب شديد (لاني كنت
مدعوراً لدى التفكير بأن اميلي يمكن ان تركني) بدت مقتنعة ،
وقبلت ، مع الوان كثيرة من المقاومة والرفض ، ان تصفح عني .

وفي اليوم نفسه ، بعد الظهر ، تلفنت للسكرتيرة بحضور اميلي لاجبرها
اني لم أعد بحاجة الى خدماتها . وحاولت ان تنتزع مني موعداً خارج
بيتي ، ولكن جوابي كان هروبياً ، ومنذ ذلك الحين لم أرها بعد قط .
ربما بدت هذه القصة ، كما ذكرت ، طويلة . ولكن هذه الذكرى
انما مثلت للذاكرتي في الواقع بشكل صورة سريعة هي : صورة اميلي
تفتح الباب في اللحظة التي كنت اقبل فيها الضاربة على الآلة الكاتبة .
كيف تراني لم افكر بذلك من قبل ؟ وقلت في نفسي : لاشك في ان

الامور قد حدثت على النحو التالي: ان اميلي لم يبد عليها انها قد علقت ، على الفور ، اهمية كبيرة على ذلك الحادث ، ولكن ربما ظلت في اعماق نفسها متأثرة بالغ التأثير به . وقد فكرت فيه ، بعد ذلك ، ولفرط عودتها الى تلك الذكرى التي كانت تزداد قسوة وثقلًا ، ذهب الوهم عنها تدريجياً وتفاقم غيظها . وهكذا ، فان تلك القبلة التي لم تكن بالنسبة لي الا ضعفاً عابراً ، كانت قد احدثت في نفسها جرحاً عميقاً الزمن بدلاً من ان يلامه .

كان لا بد لي ، وانا مستغرق في هذه الافكار ، من ان ابدو غائباً ، ذلك انني سمعت فجأة ، عبر الغيمة الكثيفة التي كانت تسربل فكري ، صوت رينغولد يسألني بلهجة لا تخلو من قلق :

– ولكن ، هل تسمعي ، يا سيد مولتيني ؟

فبددت الغيوم دفعة واحدة ، وعدت الى وعيي ، ورأيت وجهه المخرج ممدوداً نحو بلطف ، فقلت :

– اعذراني ... لقد شردت قليلاً ... كنت افكر بما قلته يا رينغولد..
رجل يحب زوجته التي لا تحبه .. ولكن .. ولكن ...

ولم ادر ما ينبغي ان اقول ، فتمتمت بالاعتراض الذي خطر للذهني تلقائياً :

– عجباً ، ان بينيلوب ، في الملحمة ، تحب يوليسوس .. والاولديسة كلها ، بمعنى من المعاني ، تدور حول حب بينيلوب هذا ليوليسوس .
فأبعد رينغولد اعتراضه ببسمة ، وقال :

– ليس هو الحب ، يا سيد مولتيني ، بل الامانة ... ان بينيلوب امينة ليوليسوس ، ولكننا لا نعرف الى اي حد تحبه .. وانت تعرف ان بالامكان ان يكون المرء اميناً كل الامانة من غير ان يحب .. بل ان الامانة ، في بعض الاحوال ، نوع من الثأر ، والشانج ، والانتقام

للعزة والغرور .. اقول انها امانة ، وليس حياً ...

وزادت كلمات رينغولد هذه قلقي ، وردتني من جديد الى اميلي .
وتساءلت أتراني لا افضل على الامانة واللامبالاة الحياثة وما يتبعها من
ندم ؟ اجل ، لو ان اميلي تخونني وتشعر بندمها ، فانها تتيح لي ان
انظر اليها في امان . والحال اني اثبت نفسي اني انا الذي خنتها ،
لا هي .

وغبت مرة اخرى ، وانا تائه في افكاري، وأعادني الى الوعي صوت
باتيستا الذي كان يقول :

— حسناً ! لقد اتفقنا يا موليتيني ، انك ستعمل مع رينغولد ؟
فأجبت في مشقة :
— اتفقنا .

— حسناً جداً . هذا اذن ما سوف نفعله : ان على رينغولد ان
يسافر الى باريس صباح الغد ويبقى فيها اسبوعاً . وفي هذه الاثناء ،
ستقدم لي يا موليتيني ملخصاً للاوديصة ... وما ان يعود موليتيني ، حتى
نسافر معاً الى كابري ، وتشرعان فوراً في العمل .

وبعد بضع كلمات تلخصت محادثتنا ، نهض رينغولد ، فنهضت آلياً
كذلك . وكنت اشعر انها كانت اللحظة المناسبة للتحدث عن عقدي
وعن السلفة التي كنت اطلبها ، فاذا لم انتهز هذه الفرصة ، فان باتيستا
سيخدعني ، ولكن فكرة اميلي كانت تبليبي ، واكثر منها التشابه
الغريب بين التفسير الهوميروسي لرينغولد وبين حالي الشخصية . على
اني تمكنت من ان اتمم فيما كنا متجهين الى الباب :
— والعقد ؟

فقال باتيستا ، مخالفاً توقعاتي ، بلهجة يخالطها روح الكرم :
— وسلفتك تنتظرك ايضاً ، يا موليتيني ... وليس لك الا ان تمر

بالسكرتارية لتوقع العقد وتسحب السلفة .

وتركتني المفاجأة مذهولاً ، فبالنظر لما حدث بالنسبة لسناريوهاتي السابقة ، كنت اتوقع مساومات دقيقة من باتيستا غايتها تخفيض تعويضاتي وتأجيل دفعها ، وها هو ذا يدفع لي في التو ، وبلا مناقشة . وفيما كنا ندخل القاعة المجاورة التي كانت تقوم فيها المكاتب الادارية ، لم استطع الامتناع عن ان أتمم :

— شكراً ، يا باتيستا ، لقد كنت بحاجة الى المال ، كما تعلم ...
وعضضت على شفتي ، فقد كان من الخطأ اولاً اني كنت بحاجة الى المال ، بصورة مستعجلة على الاقل ، كما اوامأت ، واحسست بغموض انه لم يكن ينبغي لي ان اتكلم على هذا النحو . واتي باتيستا يعزز ندمي اذ قال وهو يربت على كتفي بحركة ابوية حامية :

— لقد حزرت ذلك ، يا بني ، حزرته واستجبت له .

ثم توجه الى سكرتير جالس امام مكتب :

— هذا هو السيد مولتيني ، من اجل العقد والسلفة على تعويضه .
وكان السكرتير قد نهض ففتح ملفاً سحب منه عقداً جاهزاً كان مربوطاً به شك . وبعد ان صافح باتيستا يد رينغولد ، وارسل الى ظهري تربيئة جديدة وهو يتمنى لنا عملاً طيباً ، عاد الى مكتبه .
واقرب رينغولد باسماً يده ، فقال لي :

— سنلتقي اذن يا سيد مولتيني لدى عودتي من باريس ... وفي هذه الاثناء ستقوم بتلخيص للاوديصة تقدمه للسيد باتيستا وتناقشه معه .
فقلت وقد ساورني بعض الدهشة اذ ظننت اني لاحظت انه يغمز لي بعينه غمزة من فهم :

— اتفقنا .

ولاحظ رينغولد نظرتي فأخذني فجأة من ذراعي ، ثم ادنى فمه

من اذني وقال لي هامساً :
- اطمئن بالآ ، ولا تأخذك الهموم ... ودع باتيستا يتكلم ... انا
سنعمل فيلماً ببيكولوجياً ، وببيكولوجياً فقط !
وبسم لي ، وشد على يدي ، ثم أمال رأسه وصفق عقيبته وخرج .
ورأيته يبتعد ، وارتعشت لصوت السكرتير. الذي كان يقول لي :
- أيها السيد مولتيني ، هل تفضل فتوق هنا ...؟

الفصل التاسع

لم تكن الساعة تتجاوز الساعة ، وحين عدت الى منزلي ناديت اميلي بلا جدوى ، وانا اعبر غرف الشقة الحالية . كانت قد خرجت ، ولن تعود قبل ساعة العشاء . واحسنتي خائباً خيبة شبه مريرة . وكنت آمل ان اجدها وان احدها على التو عز حادث الضاربة على الآلة ، وانا واثق من ان تلك القبلة كانت اصل اختلافنا ، وكنت أهيم نفسي ، وانا ممتليء بثقة جديدة ، لأن أبدأ في بضع كلمات سوء تفاهمنا هذا ، ثم انقل الى اميلي اخبار بعد الظهر الطيبة : عقدي من اجل الاوديسة ، والسلفة المقبوضة ، والذهاب الى كابري . قد يُقال لي ان هذا سيؤجل فحسب مدة ساعتين ، ولكني كنت احس رغم ذلك شعوراً من الحية وما يشبه نذيراً بالشؤم . لقد كنت في هذه اللحظة واثقاً من قضيتي ، فهل اكون بعد ساعتين مُقتنعاً بالدرجة نفسها ؟ وكما يبدو ، بالرغم من اني اردت اقناع نفسي بأنني قد اوضحت الموقف اخيراً ، اي وجدت السبب الحقيقي لابتعاد اميلي ، فاني في الحق لم اكن واثقاً من نفسي . وكانت هذه المعاكسة تكفي لكي تملأني خوفاً وسوء مزاج .

وقصدت غرفة الاستقبال متزعجاً ، ناثراً الاعصاب ، فبحثت آلياً على رفوف المكتبة عن ترجمة « الاوديسة » بقلم باندمونت . ثم جلست

مام مكنتي ، فوضعت ورقة على الآلة الكاتبة وتهيأت للبدء في التلخيص بعد ان أشعلت سيكارة . وكنت أظن ان العمل سيهديء من قلتي ، او يجعلني على الاقل انساه مؤقتاً ؛ وكنت قد جربت هذا العلاج من قبل .

وفتحت المجلد وقرأت على مهل النشيد الاول كله . ثم ضربت العنوان في اعلى الصفحة : « ملخص الاوديسة » وبعد ان تركت قراغاً تحته بدأت :

« كانت حرب طروادة قد انتهت منذ حين . وقد عاد جميع الابطال اليونانيين الذين شاركوا فيها الى منازلهم . جميعهم باستثناء يوليسوس الذي ظل بعيداً عن جزيرته وعن اهله . »

واذ بلغت هذه النقطة ، ساورني شك في جدوى ادخال نصيحة الآلهة التي يقوم النقاش في اثائها حول عودة يوليسوس الى ايتاك ؛ وتركت عملي معلقاً ، للتفكير بهذا الامر . لقد كان مجمع الآلهة ذاك هاماً ، لانه كان يدخل في القصيدة فكرة القدر واللاجدوى . وفي الوقت نفسه فكرة النبالة والبطولة في الجهود البشرية . وقد كان حذف هذا المجمع يعني الغاء الجانب الخارق من القصيدة ، اسقاط كل تدخل إلهي وحذف الحضور الشعري اللذيذ لمختلف القوى الإلهية . ولكن باتيستا ، بكل تأكيد ، لم يكن يريد ان يعرف اي شيء عن الآلهة التي لم تكن تمثل في نظره الا مجموعة من الأثرارين المنهمكين في اتخاذ قرارات يُمكن ان تترك المبادرة فيها للابطال الرئيسيين . واما رينغولد ، فان اشارته المبهمة الى الفيلم البيسيكولوجي لم تكن تبشر بأي شيء حسن بالنسبة للآلهة؛ إن البيسيكولوجيا تُبعد إبعاداً واضحاً القدر والتدخلات السهاوية، وقصاراتها ان تجد القدر في قلب الروح البشرية ، في طوايا نصف الوعي المظلمة . واذن فان هؤلاء الآلهة اللامسرحيين هم نافلة وضد البيسيكولوجيا ... وكانت تأملاتي حول هذه النطقة تزداد اختلاطاً وبطناً ؛ وكنت بين

الفينة والفينة ألقى نظرة الى الآلة الكاتبة وانا اقول لنفسي ان علي ان اعود الى العمل ، ولكني لم اكن انجح في اتخاذ قرار ولم اكن احرك اصبعي . وانتهى بي الامر ، وانا جامد امام مكتبي ، الى ان اسقط في حلم عميق فارغ ، محرّكاً في نفسي الطعم الحامز البارد للمشاعر المعقدة المزعجة التي كانت تنتابني ؛ ولكن لم اكن اتوصل الى تحديدها وانا في دواري وتعبتي وغيظي .

ثم فجأة خطرت لذمني هذه الفكرة ، كفقاعة هواء تلامس صفحة مستنقع : « سأكون مضطراً الآن الى ان أسخ الاوديصة على غرار الموجزات السينائية ... وحين تنجز المخطوطة ، يعود هذا المجلد الى مكتبي ليلتقي بجميع المجلدات الاخرى التي سبق ان استعملتها لسيناريوهات... وبعد بضعة اعوام ، فيما انا اجث عن كتاب آخر اذبحه من اجل فيلم آخر ، سأرى هذا وسأقول لنفسي : عجباً ... كنت آنذاك اضع سناريو الاوديصة مع رينغولد ... وبعد ان اكون قد تكلمت كل يوم ، صباحاً ومساءً ، طوال أشهر ، عن يوليسوس وبينيلوب ، وعن سيكلوب وسيريه وعن الحوريات ، لم يتم الفيلم ... بسبب نقص المال ! » ولدى هذه الفكرة انتابني مرة اخرى قرف عميق من هذه المهنة التي فرضت عليّ . ومن جديد ، شعرت ، في ألم حاد ، بان هلا القرف كان صادراً عن يقيني بأن اميلي لم تعد تحبني . اني حتى ذلك الحين لم اكن قد عملت الا اكراماً لها ، فاذا افتقدت حبها ، فلن يكون لعملي اية غاية .

لا ادري كم بقيت من الوقت جامداً ، متقوقماً على كرسي ، تجاه الآلة الكاتبة ، وعيناي محلقتان في النافذة . وسمعت اخيراً باب الشقة يصفق ، وصوت خطي ، ففهمت ان اميلي قد عادت . ولم تحرك . وفتح الباب اخيراً خلف ظهري ، وسألني صوت اميلي :

– انت هنا ؟ ماذا تعمل ؟ هل تشتغل ؟

والثقت اليها . كانت واقفة على العتبة ، وقبعتها على رأسها ، ورزمة في يدها . وسرعان ما اجبتها في تلقائية ادهشتني بعد تلك الالوان الكثيرة من الشكوك والخوف :

— لا ، لا أشغل .. كنت أتساءل اذا كان عليّ ان اقبل سناريو باتيستا الجديد ام لا .

فاغلقت الباب ، واقبلت تحدثني وهي واقفة قرب مكتبي :

— هل ذهبت الى مكتب باتيستا ؟

— نعم .

— ألم تضحاً ؟ أليس ما يعرضه عليك كافياً ؟

— بلى ، هو كافٍ ... وقد اتفقنا .

— وإذن ؟ هل الموضوع هو الذي لا يروقك ؟

— لا ، إنه موضوع جيد ..

— ما هي القضية إذن ؟

فنظرت اليها لحظة قبل ان اجيب ؛ وكانت تبدو كمادتها شاردة

لامبالية ، وكان واضحاً انها تتكلم بدافع الواجب . وأجبت بإيجاز :

— انها الاوديصة .

ووضعت رزمتها على المكتب ثم نزعرت قبعتها على مهل ، ونكتت

شعرها بيدها . ولكن تعبير وجهها كان غامضاً شاردأ ؛ فاما انها لم تكن

قد فهمت ان القضية هي الملحمة الشهيرة ، وإما انها — وهذا هو الأرجح —

لم تجد في العنوان الذي لم تكن تجهله تماماً ما يعني لها شيئاً . وقالت بنوع

من نفاذ الصبر .

— وإذن ، الا يروقك ذلك ؟

— قلت لك ان بلى .

— الاوديصة ، هي التي تتعلمها في المدارس ، اليس كذلك ؟ فلماذا

لا تريد ان تضع هذا السيناريو ؟

– لأن ذلك لم يعد يعني لي شيئاً .
– ولكنك كنت هذا الصباح بالذات قد عزمت علي ان تقبل ...
وادركت دفعة واحدة انه آن الاوان لتفاهم جديد ، ونهائي هذه
المرة . ونهضت طفرة واحدة وأمسكت اميلي من ذراعها :
– لنذهب الى الغرفة المجاورة ، يجب ان اكلمك .
فقامت بحركة تراجع . وهي اقل ذعراً من لهجة صوتي منها من القوة
التشنجية التي كنت اشد بها علي ذراعها :
– ما بك ؟ هل انت مجنون ؟
– لا ، لست مجنوناً ، لنذهب الى الغرفة المجاورة ، اريد ان
احديثك ...

وسحبته قسراً الى الصالة ودفعتها الى اريكة :
– اجلسي .
وجلست قبالتها :
– والآن ، ستحدث .
ف نظرت اليّ مترددة ، وهي ما تزال قلقة قليلاً :
– تكلم . انني مصغية اليك .
وبدأت بصوت بارد موحد :
– تذكرين اني قلت لك أمس اني غير راغب بوضع هذا السناريو ،
لاني لم اكن واثقاً من حبك ... وقد اجبتني انك كنت تحمينني ، وان
عليّ ان اقبل العرض ، أليس كذلك ؟
– هذا صحيح ...
فقلت في عزم :
– حسناً ؛ انني مقتنع بأنك قد كذبت عليّ ... لماذا ؟ لست ادري
السبب ... ربما بدافع الشفقة ، وربما بدافع المصلحة ...
فقاطعتني بمرارة :

— ولكن اية مصلحة ؟

فشرحت قائلاً :

— المصلحة في ان تظلي في هذا البيت الذي تحببته ...
فأدهشني عنف ردّ فعلها . ذلك انها نهضت فجأة وقالت بصوت مرتفع :

— ولكن ما ادراك بذلك ؟ انني لست حريصة على هذا البيت ،
على الاطلاق ... انني مستعدة تماماً للعودة الى غرفة مفروشة .. ومن
الواضح انك لا تعرفني .. إن هذا لدي سواء تماماً ...

واحسست من هذه الكلمات بشعور حاد من الألم ، كما يحدث للمرء
حين تُهان هبة له كلفته نضجيات مريرة . إن هذا البيت الذي تتحدث
عنه بهذا القدر من الاحتقار كان في الحقيقة حياتي كلها خلال هذين
العامين ؛ لقد تركت من اجله عملاً كنت أحبه ، وتخلّيت عن أعزّ
مطامحي . وسألت ، بلا صوت تقريباً ، غير مصدق مع ذلك :

— كيف ، لا تحرصين عليه ؟

— على الاطلاق ... (وكان صوتها ناشراً تقريباً لفرط ما داخله من
الاحتقار المغناظ) هل فهمت ؟ على الاطلاق !

— ولكنك حتى الامس كنت ما تزالين تقولين انك تحببته كثيراً ؟
— لقد قلت ذلك مرضاةً لك .. لاني كنت اعتقد انك انت حريص

عليه ...

وأسقط في يدي : وإذن ، فانا الذي تخلّيت عن مطامحي المسرحية ،
انا الذي لم اعلّق أية اهمية على مثل هذه الامور ، أأكون انا الحريص
على هذا البيت ؟ وادركت انها ، بدافع من سبب كنت اجهله ، كانت
ذات نيّة سيئة ، وانه لن يجدي شيئاً لإثارته ومعاندته وتذكيرها كم كانت
راغبة في هذا الذي يبدو انها تحقره الآن الى هلسا الحد . والواقع ان
ذلك لم يكن الا تفصيلاً ، وكان ما يهمني شيئاً آخر تماماً . وقد قلت

وانا اجهد في تمالك نفسي وفي اتخاذ لهجة مصالحة وتعقل :
- لنعد بيتنا جانبا ، فاني لم اكن راغبا في ان احديثك عنه بالذات ،
بل عن عواطفك تجاهي ... لقد كذبت عليّ أمس ، ولا ادري السبب ،
حين قلت لي انك تحبيني ... ولأنك كذبت عليّ لا اجد بعد القوة
على العمل للسيا ... لقد كنت افعل ذلك من اجلك وحدك .. وما دمت
لا تحبيني بعد ، فليس لدي اي سبب ...

- ولكن من قال لك اني كذبت عليك ؟

- كل شيء ولا شيء ... لقد ناقشنا ذلك بالامس ، ولست راغبا
في العودة الى هذا ... فهذه امور لا تُفسّر ، وانما تُحسّس ... وانا
احس انك لا تحبيني بعد ...

وللمرة الاولى قالت في اندفاع مخلص :

- ولكن لماذا انت حريص على ان تعرف بعض الامور بالذات ؟
قالت ذلك بصوت حزين متعب ، وعيناها تحدقان في النافذة ،
وأضافت :

- دع هذا ... فذلك أفضل لنا كلينا .

- أترين ؟ انك تعرفين اني على حق !

- انا لا اعترف بشيء ... اود فقط ان تركني بسلام ... بسلام !

وكان في صوتها غصّة دامعة . وأضاف

- والآن ، أنا ذاهبة لتغيير ملابسني ...

ثم ارادت ان تتجه الى الباب ، ولكني امسكتها من معصمها . وكانت
تلك حركة مألوفة بيننا ، حين كانت تنهض لتذهب فتمرّ من امامي :
فكنت اوقفها من معصمها الذي كان دقيقا وطويلا . ولكني كنت اقوم
بهذه الحركة فيما مضى ، مدفوعا برغبة مفاجئة كانت تتابني تجاهها ؛
وكانت تشعر بذلك فتقف بوداعة ، منتظرة ان احبط ساقها بذراعي
وان اريح رأسي في صدرها ، او ان اجلبها الى ركبتي . وبعد مقاومة

ضعيفة ومداعبات كثيرة ، كان الامر ينتهي بفعل الحب، حيث نكون،
على الاريكة ، او الديوان القريب . اما هذه المرة ، فكان قصدي مختلفاً
ولم أستطع ان افعل اقلّ من ان استرجع ذكرى ذلك في مرارة . وهي
لم تقاومني ، وظلت واقفة تجاهي ، وهي تنظر اليّ من فوق :

— هل استطيع بالاجمال ان اعرف ما الذي تريده مني ؟
— الحقيقة ...

— انك تريد ان تدفع الامور الى الاسوأ ... هذا ما تريده !
— انك تقرّين إذن ان هذه الحقيقة لا تروق لي ؟
— انا لا اقرّ شيئاً ...

— ولكنك قلت الآن .. ان هذا سينتهي نهاية سيئة ...
— قلت هذا في الهواء ... فدعني اذهب !

ولكنها مع ذلك لم تتخبط مستظرة فقط ان احلّ ضمّي عنها .
واعتقد اني كنت افضل تمرّداً عنيفاً على هذا الصبر البارد المحترق .
وعلى امل خفي في ان أثير لديها عاطفة من رقة ، وجدت حركتي القديمة
التي كانت تمهدّ في الماضي للحب ، فتركت معصمها ، وضمت
ساقها . وكانت ترتدي تنورة طويلة ، متكسرة وعريضة جداً، وشعرت
عبر هذه التنورة بساقها الجميلتين المشيقتين متصلبان ، أشبه بسارية سفينة
وسط أشرعة سخية . واستولت عليّ الشهوة ، تكاد تكون مؤلمة بفورانها
وباحساس العجز اليأس الذي كان يرافقها . وقلت وانا ارفع بصري
نحوها :

— اميلي ، ماذا لديك ضديّ ؟

— ليس لديّ شيء ... دعني اذهب .

وضغخت ذراعاي ضغطاً أشدّ على ساقها ، وقرّبت وجهي من
صدرها . وكنت عادةً حين آتي بهذه الحركة أحس بعد لحظة يدها
الكبيرة التي كنت احبها كثيراً تسريح على رأسي في ملامسة غرامية

بطيئة . وكانت تلك علامة احتياجها واستجابتها لشهوتي . اما هذه المرة ، فقد ظلت يدها المتدلية جامدة . وقد أصبت بضربة في قلبي من هذا الموقف المختلف عن الموقف الذي كنت اعرفه . وتركت ركبتيها ثم قبضت مجدداً على معصمها وانا أصرخ :

— لا ، لن تذهبي ... يجب ان تقولي لي الحقيقة ، في هذه اللحظة بالذات .. لن تذهبي قبل ان تقولي لي الحقيقة ا
فظلت تنظر الي من فوق لتحت ؛ ولم أكن اراها ، ولكن كان يخيل إلي اني اشعر بنظرها المتردد يثقل على رأسي المنحني . وقالت أخيراً :

— حسناً ا انت الذي اردت ذلك ؛ انني لم اكن اطلب اكثر من ان اظل اعيش كما في الماضي ... ولكن ما دمت تريد ذلك ، فهذا صحيح .. انني لم اعد احبك .. هذه هي الحقيقة ا

إن من الممكن تصور افطع الاشياء وتخيلها إذ يعرف المرء بفطنة انها موجودة . اما ان يرى هذه الفروض او بالاحرى هذه اليقينيات تتأكد ، فان ذلك يحدث دائماً صدمة مؤلمة ، كما لو ان المرء لم يسبق له ان واجهها قط . صحيح اني كنت قد عرفت دائماً ان اميلي لم تعد تحبني ؛ ولكن ان اسمع ذلك من فها ، هذا ما جمّد الدم في عروتي . إنها لم تعد تحبني : إن هذه الكلمات التي ترددت مراراً في ذهني كانت تأخذ على شفيتها معنى جديداً . لم تكن القضية بعد قضية افتراض ، ولو كان ممزوجاً باليقين ، بل كانت قضية واقع . وقد كان لهذه الكلمات وزن وبعده لم يسبق ان كانا لها في ذهني . ولا اذكر كيف تلقيت هذا التصريح . لقد ارتجفت على الاربع ، كما يرتجف المرء حين يقف تحت « دوش » مثلج وهو يعرف مقدماً الشعور الذي سيحسه . ثم جهدت ان اتمالك نفسي وان اظهر اني موضوعي ومتعقل ، فقلت لاميلي بأهدأ لهجة استطيعها :

– تعالي هنا ، إجلسي واشرحي لي كيف حدث ذلك ؟
فاطاعت وجلست على الديوان واجابتي ، كما لو انها مدفوعة الى
النهاية :

– ليس ثمة ما يُشرح... ان كل ما في الامر هو اني لا احبك بعد..
وعمق دار ما كنت احاول ان ابدو متعللاً ، كانت شوكة هذا الالم
الذي لا يوصف تنغرز في لحمي . وجهدت في مشقة ان ابتسم :

– انت تقرين على الاقل ان من واجبك ان تقدمي لي تفسيراً ...
فحتي حين يطرد الانسان خادماً يقدم له الاسباب ...
– لم اعد احبك ، ولا استطيع ان اقول شيئاً آخر .
– ولكن لماذا ؟ لقد كنت تحبيني في السابق ، أليس كذلك ؟
– نعم ، كثيراً ... اما الآن ، فقد انتهى الامر .

– لقد احببتي كثيراً ؟

– نعم ، كثيراً ... ولكن انتهى ذلك .

– ولكن ... لماذا ؟ ان هناك سيياً ؟

– ربما ... ولكني لا استطيع ان اشرحه .. اني لا اعرف الاشياء
واحدأ : هو اني لم اعد احبك .

فقلت وانا ارفع صوتي رغماً عني :

– لا ترددي هذا بلا انقطاع !

– انت الذي تجعلي أردد ... انك لا تريد ان تقتنع .. ولذلك

أردده !

– لقد اقتنعت الآن بذلك .

وسقط الصمت . وكانت اميلي قد اشعلت سيكارة واخذت تدخنها

خافضة العينين . وكنت منحنيأ فوق ركبي ، ورأسي بين يدي .

– واذا قلتُ أنا لك سبب هذا التغير ، هل تعرفين به ؟

– ولكنني لا اعرفه ، انا نفسي ...

– نعم ، ولكن ربما استطعت الاعتراف به اذا قلته لك ...

– حسناً ، اذن قُلْهُ ...

– لا تتحدثي بهذه اللهجة .

وكنت اوشك ان اصرخ لفرط ما جرحني هذه الطريقة اللامبالية
الشريفة في الكلام ، ولكي كنت اتمالك نفسي واجهد في الاحتفاظ
بلهجة رصينة ، فبدأت اقول :

– انك تذكرين الفتاة ، الضاربة على الآلة التي جاءت الى هنا منذ
اشهر لتضرب لي سناريو على الآلة ... لقد فاجأتنا في اللحظة التي كنت
اقبلها فيها ... وقد كان ذلك مني ضعفاً بليداً ... ولكن تلك القبلة
كانت الاولى والاخيرة ، ولم يحدث شيء آخر ، اقسم لك على ذلك ..
انني لم ار تلك الفتاة ثانية ... فقولي لي الحقيقة : ايكون ذلك الحادث
هو الذي ابعذك عني ؟ تكلمي بصراحة ... أبتداء من تلك اللحظة
بدأت تكفّين عن حيي ؟

وكنت انظر اليها في تنبّه ، فيما كنت اتكلم . وقد بدرت منها حركة
مفاجأة وانكار ، وداخلي الشعور بان افتراضي كان يبدو لها غير
معقول . ثم رأيت ملاحظتها تتغير كما لو ان فكرة مفاجئة قد خطرت
لها ، فتقول :

– لفترض ان السبب هو هذه القبلة ... فهل اطمأنتت الآن، بعد ان
وضح الامر لك ؟

وسرعان ما فهمت انها لم تكن صادقة ، ان دافعها لم يكن تلك
القبلة . كان افتراضي قد فاجأ اميلي لشدة بعده عن الحقيقة ، ثم دفعها
حساباً سريع الى قبول هذا التفسير . ولا بد ان سبب ابتعادها كان
اخطر بكثير من هذه القبلة التي لم تكن لها عواقب . وهي لم تكن تريد
ان تكشفه لي ، بسبب من بقية مراعاة لي . وكنت اعرف ان اميلي لم
تكن شريرة ، ولم تكن تحب ان تشق عليّ . ولا بد ان السبب الحقيقي

مهين مدل . وقد قلت في رقة :

— ليس صحيحاً يا اميلي ، فتلك القبلة لا دخل لها بابتعادك ...

— لماذا تقول ذلك ؟ لقد قلت لك العكس !

— لا ، ليست القضية قضية هذه القبلة ... فهناك شيء آخر !

— اني لا افهم ما الذي تقصده .

— بل تعرفينه جيداً .

— لا ، اقسام بكلمة الشرف ، لست اعرفه .

— وانا اقول لك ان بلي ...

فبدت على وشك ان تفقد صبرها ، ثم قالت بلهجة شبه رؤوم كانت تتبناها احيانا :

— لماذا انت حريص على ان تعرف بعض الاشياء ؟ انك غريب ..

فما جدوى اثاره هذا كله ... ماذا يجديك ؟

— اني افضل الحقيقة ، اياً كانت ، على الكذب ... وبالإضافة الى ذلك ، اذا لم تكلميني بصراحة ، فبامكاني ان اتصور ... شيئاً رديئاً جداً !

فنظرت اليّ من غير ان تنبس بكلمة نظرة نفاذة فريدة ، ثم قالت :

— لماذا تعذب نفسك ؟ انك مطمئن الضمير ، أليس هذا صحيحاً ؟

— انا ، بكل تأكيد !

— اذن ، ماذا يهمك الباقي ؟

فألححت : — هذا اذن صحيح ، القضية قضية شيء بشع جداً ؟

— انني لم اقل ذلك ... كل ما قلته لك ان الباقي هو بلا اهمية ، ما دام ضميرك مرتاحاً ...

— صحيح ان ضميري مرتاح .. ولكن ذلك لا يعني شيئاً .. فانه يحدث ان الضمير نفسه يخطيء ...

فقالت بلهجة ساخرة لم تفتني ، بل بدت لي اكثر جرحاً من

لامبالاته :

– ولكن ليس ضميرك ، اليس كذلك ؟

– بل حتى ضميري ...

وقالت فجأة :

– هيا ، يجب ان اذهب ... هل لديك شيء آخر تقوله لي ؟

– لن تذهبي قبل ان تقولي لي الحقيقة .

– لقد قلتها لك : انني لم اعد احبك .

هذه الكلمات الاربعة : اي ألم كانت تحدته لي ! لقد احسنتني امضع ،

وابتهلت اليها ابتهالاً معذباً بقولي :

– لقد رجوتك الا تردي هذه الكلمة ... انك تعليني !

– انت الذي تضطرنني الى ترديها...من المؤكد ان ليست لديّ أية

سعادة في قولها .

فتابعت وانا امضي في خيط افكاري :

– كيف تريدن ان اعتقد انك لا تحيينني بعدُ بسبب هذه القبله ؟

ان القبله شيء يسير ... لقد كانت هذه الفتاة خبيثة ، وانا لم ارها بعد

ذلك ابدأ ... انت تعرفين ذلك كله وتفهمينه ... كلا، انك في الحقيقة

لا تحيينني بعد بسبب ...

وكنت ابحت عن كلماتي لأعبر عن حلمي الغامض الشاق ، ثم

تابعت :

– بسبب انه حدث شيء ما ، شيء ما قد اثر على عواطفك تجاهي ،

بل قد غير كلياً الفكرة التي كونتها عني ، وبالتالي فان حبك ...

فقاطعتني قائلة بلهجة مخلصه تكاد تكون لهجة اعجاب :

– يجب الاعتراف بأنك ذكي !

– اذن ، فهذا صحيح ؟

– لم اقل ذلك ، بل قلت فقط انك ذكي ...

وكنت احسن الحقيقة قريية جداً ، وكنت على وشك ان ألمسها
بيدي :

— قبل حادث معين ، كان لك رأيّ طيب فيّ ... وبعد ذلك ،
حكمت عليّ حكماً سيئاً ، ومن ثمّ كفتت عن حبي ، أليس كذلك ؟
— هذا ممكن ...

وغمرني فجأة شعور فظيع . لقد كانت تلك اللهجة المادئة التي تبنيها
زائفة ، لم اكن متعلقاً ، بل كنت أتألم ألماً حاداً ، وكنت يائساً
وغاضباً ، كنت متلاشياً ، فلماذا تراني كنت استعمل لهجة الاعتدال
تلك ؟ ولا ادري ماذا اصابني آنذاك ، فقبل ان ادركه ، نهضت فجأة
وانا اصرخ :

— لا تظني اني اكتفي بالهدر والهديان ...
ووثبت على اميلي فأمسكتها من عنقها وقلبتها على الديوان وصحت في
وجهها :

— قولي الحقيقة ! قولها مرةً والى الابد !
وكان جسمها الكبير المنسجم الذي كنت احبه كثيراً يتخبط تحت
يديّ ، ووجهها يحمرّ ويتنفخ : لا شك في اني كنت اضغط بشدة ،
كما لو اني كنت اودّ ان اقتلها . ورددت :

— قولي الحقيقة ... قولي الحقيقة !
وكررت ضغطي وانا افكر : « سأخنها ، ولكن الافضل ان اراها
ميتة على ان تكون عدوة ! »

وفجأة شعرت بأن احدى ركبتيها كانت تسمى لان تضربني في معدتي ،
وقد تمكنت فعلاً بعنف شديد جداً حتى ان نَقَسَني قد تقطع . وكانت
تلك الضربة في مثل ايلام عبارتها ، لم أعد أحبّك ، لأنها كانت ضربة
عدو يسعى الى إلحاق أكبر الاذى بغيره . وفي اللحظة نفسها انحسر
حقدني المجرم مرة واحدة ، فأرخت ضمّتي ، وتحررت اميلي وهي

تدفعني بقوة حتى سقطتُ عن الديوان .
وقبل ان اتمكن من النهوض ، صاحت بصوت مغيظ :
- انني احقرك ! هذا هو الشعور الذي أكتّه لك ، والسبب الذي
من اجله لم أعد احبك ! انني احقرك واشمئز منك حين تلمسي ...
لقد أردتَ الحقيقة : انني احقرك واشمئز منك !
كنت واقفاً ، فامتدت بيدي وعيناي في وقت واحد الى منفضة
سكاير كثيفة من البلور كانت على الطاولة . وظننت اميلي بالتأكيد اني
كنت اريد قتلها ، لانها اطلقت صرخة رعب وغطت وجهها بلذراعها .
ولكن ملاكي الحارس ساعدني : فلم أدر كيف نجحت في السيطرة على
قمسي ، فوضعت المنفضة على الطاولة وخرجت من القاعة .

الفصل العاشر

لم تكن اميلي قد تلتقت ، كما سبق ان ذكرت ، الا ثقافة بدائية ، فبعد سنوات المدرسة الابتدائية ، لم تتابع الدروس الا فترة من الزمن ، وسرعان ما تركت الدراسة لتتعلم الضرب على الآلة الكاتبة والاختزال ، حتى بلغت السادسة عشرة ، والتحقّت بمكتب للمحاماة . صحيح انها كانت تنتمي الى ما يسمى « اسرة رفيعة » ، اي اسرة كانت مسورة من قبل وكانت في الماضي ذات املاك في جوار روما . ولكن جد اميلي كان قد هدر ثروته في مضاربات رديئة ، وكان الاب ، حتى موته ، موظفاً صغيراً في وزارة المالية . وهكذا ترعرعت في الفقر ، وظلت بتربيتها وطريقتها في التفكير من الشعب ، ولهذا كان يبدو انها لا تستطيع ان تعتمد الا على حسنها الشعبي الذي هو من الصلابة بحيث يترأى احياناً بلادة او ضيقاً في الذهن . ولكن كان يحدث لها بمساعدة هذا الحسّ وحده ان تعبر بطريقة غير متوقعة ، وغريبة في نظري ، عن افكار او عن تقديرات شديدة النفاذ ، شبيهة في ذلك بأفراد الشعب اولئك الذين هم اقرب الى الطبيعة من الآخرين والذين لا يعكّر عاكرتهم العقلية اي اصطلاح او اي تفكير مسبق . وهي لانما كانت تفكر تفكيراً سليماً ببعض الاشياء، فانها كانت تعبر عنها برصانة وصراحة ووضوح، وقد

كان لكلماتها بالفعل لهجة الحقيقة التي لا تخفي . على انها لكونها لم تكن تدرك صراحتها ، فانها لم تكن تتبجح بها ، مؤكدة بهذا التواضع السمة الحقيقية لمحاكمتها .

من أجل ذلك ، لم أشك لحظة حين صاحبت بي ذلك اليوم : « انني احتفرك ! » ان هذه العبارة التي ، لو قالها فم آخر ربما لم تكن شيئاً ، كانت تتليس في نظرها معنى دقيقاً محمداً : كانت تحترني حقاً ، وليس ثمة بعد الآن مجال لفعل شيء . وحتى لو كنت اجهل كل شيء من طبع اميلي ، فان اللهجة التي لفظت بها هذه العبارة لم تكن تترك اي شك : كانت لهجة الكلمة لدى ولادتها ، منبثقة توارثاً من الشيء نفسه ، منطوقة من قبل انسان ربما كان يستعملها للمرة الاولى ، وهو قد استمدتها ، بدافع من الضرورة ، من ارث اللغة العريق القدم ، من غير ان يبحث عنها ، وعلى غير ارادة منه تقريباً . هكذا ينطق الفلاح احياناً ، بلكنة حقله ، وبالكلمات التي يمسحها ، وبالعبارات المأتمة التي يستعملها ، جملة مشرقة بالصواب ، وبحكم نافذ لو نطق به رجل آخر لأثار الدهشة ؛ اما حين يصدر عنه هو فانه يُعجب ويبدو غير قابل للتصديق تقريباً .

« نعم ، انني احتفرك » : كان لهذه الكلمات الثلاث - وقد كنت أشعر بذلك في مرارة - الصدى الحقيقي نفسه الذي كان لهذه الكلمات الاخرى الثلاث التي كانت قد نطقت بها حين اعترفت لي للمرة الاولى بـ « انني احبك كثيراً ! »
وحيث وجدني وحيداً ، مقتنعاً بصدق هذه الكلمات القاسية وحقيقتها ، اخلت اذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، خالي الذمسن ، مرتجف اليدين ، زائغ النظرات ، لا ادري ما افعل . وكل دقيقة تمر كانت تفرز اعرق فاعمق هذه الشوكات الثلاث ، كلمات اميلي الثلاث ، في اضلعي .

ولكني ، خارج الألم الحاد المتزايد الذي كنت أعيه بالغ الوعي ،
لم اكن لأفهم بعد شيئاً . لقد كان أشق شيء عليّ ، بالإضافة الى اني
لست بعد محبوباً ، هو اني كنت محضراً ؛ ولكني لمعجزني عن ان
اجد لهذا الاحتقار أي تفسير ، مهما كان خفيفاً ، كنت استشعر
احساساً عميقاً بالظلم ، وفي الوقت نفسه خوفاً من ألا يكون ثمة ظلم ،
وان يكون هذا الاحتقار قائماً على أساس متين ، غير قابل للنقاش
بالنسبة لي . لقد كنت املك عن نفسي رأياً عالياً بما فيه الكفاية ،
مطبوعاً على الأكثر بنوع من الشفقة ، كما لو اني رجل قليل الحظ لم
يعطف عليه القدر كما يستحق ، ولكنه لم يكن يملك الا ما هو جدير
بالاحترام . وها أن عبارة اميلي هذه تأتي لتنهز هذه النظرة ؛ كنت
للمرة الاولى اتساءل اذا كنت اعرف نفسي واحكم عليها كما هي ، من
غير رضى زائف عن ذاتي .

وفي النهاية ، توجهت الى الحمام ، ووضعت رأسي تحت الماء ،
فخرجت من ذلك بشعور ارتياح : كانت عبارة زوجتي تلك قد أشعلت
النار في رأسي . وتسرحت ، ورطبت وجهي ، وعقدت ربطة عتقي
من جديد ، وعدت الى الصلاة . ولكن رؤية المائدة معدة من فتحة
النافذة أثارت استنكاري ؛ انه لم يكن بإمكاننا ان نجلس الى الطاولة
كالايام السابقة وان نأكل معاً في هذه القاعة التي كانت ما تزال مليئة
باصدء الكلمات التي هزنتني .

وفي تلك اللحظة ، فتحت اميلي الباب وظهرت ؛ كان وجهها قد
استعاد ملامحه المألوفة الصافية المرتاحة . وقلت من غير ان انظر اليها :
— لا رغبة لي بتناول العشاء هنا هذا المساء .. قولي للخادمة اننا
خارجان ، ثم ارتدي ثيابك ... فاننا ستعشى في الخارج ...
فأجابت وهي مندهشة بعض الشيء :

— ولكن العشاء جاهز منذ حين ... والأشياء جديرة بان ترمى
بعد ذلك !

فصرخت وقد عاودني غضبي :
— هذا يكفي ! ارمي كل ما تريدن ، ولكن البسي ثيابك ، لاننا
ستعشى في الخارج ..
ولم اكن قد رفعت بصري اليها ، ولكني سمعتها تتمم :
— اي سلوك هذا !
وخرجت واغلقت الباب .

وبعد بضع دقائق كنا نخرج من البيت . وفي الشارع الضيق الذي
كانت تكنته بيوت عصرية ذات واجهات متصلة بالشرفات ، شبيهة
ببيتنا ، كانت سيارتنا الصغيرة تنتظرنا بين عديد من السيارات الفارحة ؛
وكنا قد اشتريناها حديثاً ، كالبنت ، وكان معظم ثمنها ينبغي ان يدفع
بعد من تعويضات الساريو القادم . ولم يكن قد مر على اقتنائها الا
بضعة أشهر ، وكنت ما أزال أعاني شعور الغرور الطفولي الذي يوحيه
في البدء ترفاً مثل هذا . ولكن في المساء ، بينما كنا متجهين نحو
السيارة ، جنباً الى جنب ، من غير ان نتبادل النظر ، لم أستطع
الامتناع عن التفكير : هذه سيارة تمثل ، الى جانب الشقة ، تضحية
مطامحي ، وهي تضحية لا جدوى منها بعد الآن ... واخذني لمدة لحظة
الأحساس الدقيق بالمفارقة بين هذا الشارع الباذخ الذي يبدو كل شيء
فيه جديداً وثميناً ، وبين شقتنا التي كانت نوافذها تنظر الينا من الطابق
الثالث ، وبين السيارة التي كانت تنتظرنا على بضعة أمتار ، وسوء
حظي الذي كان يضفي على جميع هذه الأشياء المقتناة طابع اللاجدوى
والنفور .

وصعدت السيارة ، وانتظرت ريثما تجلس اميلي ، ومددت ذراعي
لكي أغلق الباب من جهتها . وكنت حين اقوم بهذه الحركة عادة ألامس

ركبتها ، او كنت أدير رأسي فألامس خدّها بقبلة سريعة . اما هذه المرة فقد تجنبت غريزياً ان ألمسها . وصبقت البسب ، وظللنا لحظة جامدين صامتين . وأخيراً سألت اميلي :

- الى اين نحن ذاهبان ؟

فترددت ثم اجبت كيفما اتفق :

- لنذهب الى جادة « ايبان » ...

- ولكن لم يثن الاوان للذهاب الى جادة « ايبان » ... سيكون الجو بارداً ، ولن يكون ثمة أحد .

- لا بأس ... سنكون نحن هناك ، على اي حال .

فصمبت وسلكنا الطريق باتجاه جادة « ايبان » . وبعد ان غادرنا حيناً ، عبرنا وسط المدينة وأخذنا طريق « تريونفي » و « البروميناد اركيولوجيك » ، بمحاذاة الجدران القديمة المغطاة بالطحلب والحداق والجنائن والمقاصير القائمة بين الاشجار التي كانت تسجل بدء جادة « ايبان » . ثم كان مدخل المقابر المضاء بمصباحين ضعيفين . وكانت اميلي على حق : فقد كان الوقت مبكراً بالنسبة لذلك المكان .

واذ دخلنا المطعم ذا الاسم القديم ، لم نجد في القاعة الكبرى المزينة بالقوارير والبلاط المكسر الا طاولات فارغة وموجة من الخدم . كنا وحدنا ، فخطر لذهني ان هذه القاعة الفارغة الرديئة التدفئة ، مع طابع الاستعجال المضجر الذي كان يطبع خدمها الكُثر ، لم تكن المكان الملائم لحلّ مشكلة حياتنا المشتركة . ثم تذكرت اننا منذ عامين ، في عهد حيننا ، كنا قد جئنا مراراً لتناول العشاء ، وأدركت لماذا كنت قد اخترت ، غريزياً ، هذا المطعم الكئيب المتوحد في ذلك الفصل ، من بين كثير من المطاعم .

كان الخادم واقفاً امامي ولائحة الطعام في يده ، ومن الجهة الاخرى كان الخازن ينحني ليمد لي لائحة الخمر . وأخذت اقرأ اللائحة ،

معدداً الوان الطعام لامبلي ، مائلاً عليها كزوج مستعجل متأدب .
وكانت عيناها منخفضتين ، وكانت تجيب بكلمات موجزة :

— نعم ، لا ، حسناً ...
وطلبت نوعاً من الخمر ، بالرغم من احتجاج امبلي التي لم تكن
تريده ، فقلت :

— سأشربه أنا نفسي ...

وبسم لي الخازن بسمه فاهمة وابتعد مع الخادم .
لن اصف عشاءنا بتفاصيله ، ولا اريد الا ان اصور حالي النفسية
ذلك المساء ، وهي حالة جديدة كل الجدة بالنسبة لي ، وسوف تمثل
فيما بعد الوضع الطبيعي في علاقتي مع امبلي .

يقال ان الآلية هي التي تتيح لنا ان نعيش بلا تعب يتجاوز حدوده ،
وذلك حين نجعلنا غير واعين لمعظم حركاتنا . ان خطوة واحدة تتطلب
تشغيل كمية من العضلات ، ومع ذلك ، فنحن نقوم بها من غير ان
نعني ذلك ، بفضل الآلية . وكذلك الأمر بالنسبة لعلاقتنا مع الآخرين .
ان نوعاً من الآلية السعيدة كان قد حكم حياتي المشتركة مع امبلي ،
وظللت مؤمناً بانها تحبني ، وفي سلوكي نحوها كان التفتح النهائي وحده
هو الذي يشع على ضوء شعوري ، بينما يظل الباقي كله في ظل عادة
رقيقة وآلية . اما واني قد تجردت الآن من وهم الحب ، فقد كنت
أعي كل عمل من أعمالي حتى أكثرها تفاعلاً .

كنت أقدم الكأس لامبلي ، وأقرب المملحة منها ، وانظر اليها ،
واكف عن النظر اليها : وكانت كل حركة مرفقة بمعرفة أليمة ،
مصدومة ، عاجزة ، يائسة . وكنت أحسني متزعجاً ، مضطرباً ،
مشلولاً ، غير مستطيع ان افعل شيئاً من غير ان اقول لنفسي : هل
هذا حسن ؟ هل هذا سيء ؟ وكنت قد فقدت كل اطمئنان . ان
بوسع المرء دائماً أن يؤمل استرداد الثقة المفقودة مع الأجانب ؛ اما مع

اميلي ، فقد كانت القضية قضية تجربة ماضية ، مدفونة : فلم يكن لي بعد ما أوّمله .

هكذا كان الصمت يمتد بيننا ، لا تكاد تقطعه الا "جمل" تافهة :
- هل تريدن خمرآ ؟ خبزآ ؟ مزيدآ من اللحم ؟

وكنت اودّ لو أستطيع وصف نوعية هذا الصمت الذي قام ذلك المساء بيننا لكي لا يغادرنا بعدُ ابدأ . لقد كان صمتآ لا يُحتمل ، لأنه كان سلبياً كل السلبية ، مصنوعاً من اسقاط كل ما كنت أودّ أن اقله وما كنت أحسّتي غير قادر على التعبير عنه . ولم يكن بيننا عداء ، على الأقل من جانبي ، وإنما كان بيننا عجز . كنت بحاجة الى ان أتكلم ، وكانت لديّ اشياء كثيرة اقولها ، وفي الوقت نفسه كنت احسّ ان الكلمات كانت بعد الآن بلا جدوى ، واني لن أستطيع ان اجد اللهجة المناسبة . واذن ، فقد كنت ألزم الصمت ، لا مع الشعور الرضي الهاديء الذي يحسه رجل لا يعاني الحاجة الى الكلام ، بل مع شعور رجل يغلي ذهنه بأشياء يعيها ويريد ان يقولها ، ولكنه يصطدم عبثاً بهذا الاحساس كما يصطدم بقضبان سجن حديدية . وكان ثمة ما هو اكثر من ذلك : لقد كنت اشعر ان هذا البسّم الذي لا يُحتمل كان مع ذلك أنسب وضع بالنسبة لي ؛ واني اذا قطعتنه ، حتى ولو بأفضل طريقة واحكمها ، فاني اوشك ان اخلق مناقشات هي اصعب على الاحتمال من هذا الصمت نفسه ، اذا كان ذلك ممكناً .

ومع الاسف ، لم اكن قد تعودت بعدُ ان اصمت . لقد تناولنا اللون الاول من الطعام ثم اللون الثاني : من غير ان نقول كلمة ؛ وعند تناول الفاكهة ، نفذ صبري ، فاتجهت الى اميلي :

- لماذا انت بكاء ؟

وسرعان ما اجابت :

- لأنني لا اجد ما اقله .

ولم تكن هيبتها حزينة او عدوانية ، وكان لكلامها نبرة الحقيقة .
واستطردت برصانة :

— ان ما قلته الآن يستحق ان يُشرح شرحاً وافياً .
وباللهجة الصادقة نفسها قالت :

— لإنس هذه الأشياء ... كما لو اني لم أقلها قط !
فعاودني الأمل :

— لماذا انساها ؟ ليتني متأكد انها ليست صحيحة ، وانها افلنت
منك بدافع الغضب ...

فلم تجب هذه المرة . وتعلقت من جديد بالأمل . ربما كانت قد
صارحتني باحتقارها كردّ فعل على عنفي . وألححت بحذر :

— اعترفي بأن هذه الأشياء القبيحة التي قلتها لي اليوم ليست
صحيحة ... وانها انما جاءتك لانك كنت تظنين في تلك اللحظة انك
حاقدة عليّ وانك كنت تريد ان تجرحيني ...

فنظرت اليّ نظرة عميقة ، وظلت صامته . وحيّس اليّ — وربما
كنت على خطأ — ان عينيها الكبيرتين المعتمتين كانتا مغرورقتين بالدمع .

ووثب قلبي ، فددت ذراعي وامسكت يدها على الحوان :

— اميلي ، ان ذلك لم يكن صحيحاً ، أليس كذلك ؟

فسحبت يدها بفجاءة غريبة ، تقلّص معها جسمها كله لا ذراعها
وحدها :

— بلي ، كان ذلك صحيحاً .

ولاحظت نبرة الصدق المطلق والحزين معاً في هذا الجواب . وكان
يبدو وكأنها تشعر في تلك اللحظة بأن كذبة ما نستطيع ان ترتب كل
شيء ، على الاقل لفترة من الزمن ، على الاقل في الظاهر ؛ وقد
راودها ذات لحظة اغراء الكذب ، ولكنها بعد التأمل والتدبر ، عدلت
عن ذلك . وأصبحت من جديد بتشنج ألم عنيف ، فتمتمت بين اسناني

المنقبضة وانا خافض الرأس :

– ولكن الا تفهمين ان هناك اشياء لا يمكن ان نقولها ، من غير ان نبررها ، لأي انسان ، وللزوج بصورة خاصة ؟
فلم تجب ، واكتفت بأن تنظر اليّ بنوع من الخوف ؛ ولا بد ان وجهي في الواقع كان معتكراً بالغضب ، وقالت اخيراً :

– انك تسألني ، فأجيبك .

– ولكنك ملزمة ان تفصحي .

– ماذا تعني ؟

– يجب ان تشرحي لي لماذا ... لماذا تحقريني ؟

– آه ! هذا ما لن اقله لك ابداً ... حتى ولو كنت على وشك

الموت !

وعجبت للهجة العازمة بصورة غريبة . ولكن مفاجأتي لم تدم طويلاً .
فلقد استولى عليّ غضب لم يكن يترك لي وقتاً للتفكير ، فألححت وانا امسك بيدها من جديد ، ولكن بضمّة رقيقة هذه المرة ، قائلاً :

– قولي لي ، لماذا تحقريني ؟

– لقد سبق ان اجبتك اني لن اقول لك ذلك ابداً .

– قولي لي ، والا اوجعتك ...

واستبد بي الغضب ، فلويت يدها . ونظرت اليّ ، مشدوهة لحظة ، ثم تشنج فيها بكرازة ألم ، وانتشر على وجهها ذلك الاحتقار الذي تحدثت عنه ، فقالت بوحشية :

– دعني ا هأنت تريد بالاضافة الى ذلك ان توجعني ؟

ولاحظت عبارة « بالاضافة الى ذلك » هذه التي كانت توميء الى

الوان اخرى من العنف ربما كنت قد كبّلتها اياها ، فانقطع نفسني :

– دعني ا الا تخجل ؟ ان الخدم ينظرون الينا ...

– قولي لي لماذا تحقريني ...

– لا تكن أبله ... دعني !

– قولي لماذا تحقريني ...

– اوف !

وحررت يدها بحركة عنيفة اسقطت قدحاً على الارض . وارتفع صوت تحطم زجاج ، فتهضت اميلي وانجهدت نحو الباب وهي تقول لي بصوت مرتفع :

– انني سأنتظرك في السيارة ريثما تدفع الحساب .

وخرجت ، فظلت مسمراً في مكاني ، جالساً ، متلأشياً ، لا بسبب الازدلال الذي لحق بي – فان الخدم العاطلين ، كما قالت اميلي ، لم يرفعوا انظارهم عنا ولم يفوتوا اية كلمة من كلماتنا ولا اية حركة من مشادتنا – وانما بسبب تصرف زوجتي الغريب . انها لم يسبق لها قط ان حدثتني بتلك اللهجة ، ولم يسبق لها ان شتمتني . وقد ظلت عبارة « بالاضافة الى ذلك » ترن في اذني كأحجية مزعجة اخرى يجب حل لغزها ، فتي وكيف كنت قد ارتكبت الاشياء التي كانت ، عبر هذه الجملة ، تشكو منها ؟

وناديت الخادم أخيراً ، فدفعت الحساب ، وخرجت بدوري .

ولاحظت في الخارج ان الطقس الذي كان طوال اليوم غائماً متقلباً ، قد بدأ بمطر مطراً خفيفاً ناعماً . وفي الظلام ، لمحت طيف اميلي واقفاً بازاء السيارة التي كنت قد اغلقت بابها بالفتاح ، وكانت تنتظرني في صبر تحت المطر . واعتذرت بصوت خال من الطمأنينة :

– اعلريني ، كنت قد نسيت ان السيارة كانت مغلقة .

فاجاب صوتها الهاديء :

– لا أهمية لذلك ، فالمطر رذاذ ...

ومرة اخرى ، استيقظ في قلبي امام تنازله امل المصالحة . هل من الممكن ان تحقر كائناً وتحدثه بمثل هذه اللهجة الرقيقة الودود ؟

وفتحت الباب ، ودخلنا كلانسا الى السيارة . وأدرت المحرك ،
وقلت بلهجة بدت لي فجأة خفيفة ، ذات مزاج طيب :

— حسناً ، اين تريدان ان تذهبي ، يا اميلي ؟

فاجابتي وعيناها محددتان امامها :

— لا ادري ... حيث تريد .

فاقلت ، وانطلقت السيارة . وكنت احس ، كما ذكرت ، انطباعاً
من التفاؤل والطلاقة ، بل والمرح ، كما لو اني حين أغير الامر الى
مزاج ، واستبدل بالرصانة والهوس الخفة والدعابة ، فبوسعي ان ابلغ
التقارب . ولا ادري ماذا اصابني آنذاك ؛ ربما كان اليأس قد صعد
الى رأسي ، كما يصعد الخمر المسكر ؟ وقلت بلهجة لامبالية :

— لنذهب كيفما اتفق ، مغامرین ...

ولكني اذ نطقت بهذه الكلمات أحسستني انساناً أحرقت ، اشبه باعرج
يريد ان يقوم بخطوة في الرقص . وفي هذه الاثناء كانت اميلي صامتة ،
واستسلمت لما كنت اظنه قريحتي فلم يلبث ان تكشف تجربته رديئة .
وكنت أقود سيارتي الآن على طول جادة « ايبان » التي كنا نستطيع ،
على ضوء الفوانيس التي كانت تصطف امامنا ، ان نلمح عبر الوف
الاسلاك اللامعة من المطر ، شربينها وقرميد خرائبها المحمر ، وتماثيل
الممر البيضاء ، واحجار البلاط الروماني المتصدع . وسرنا رداً من
الزمن ، ثم قطعت الصمت فجأة بصوت زائف الحماسة :

— لننس مرة واحدة من نحن ، ولنتخيل اننا طالبان يبحثان عن
زاوية هادئة ، بعيدة عن العيون الفضولية ، ليقوما بفعل الحب في
أمان .

فظلت على صمتها ، وشجعني ذلك فأوقفت السيارة . وكان المطر
يهطل الآن مدراراً ، وكانت المساحتان تروحان وتجيئان على الزجاج

الامامي فلا تنجحان في ايقاف الرشح الذي كان يعكر الرؤية . ومضيت
أقول بصوت قليل الطمأنينة :

– نحن طالبان ، ولنقل ان اسمي ماريو ، وانت ماريسا ؛ وقد
وجدنا اخيراً مكاناً هادئاً ؛ صحيح انه تحت المطر ... ولكننا في السيارة
مطمئنان ... قبليتي .

واحطت كشيها بذراعي في سرعة عزم رجل ثمل ، وحاولت ان
اقبلها .

ما الذي كنت أرجوه ؟ لست ادري ؛ لقد كان لا بدّ لتصرف
اميلي في اثناء العشاء من ان يتركني اتنبأ بما كان في امكاني ان اتوقعه .
وحاولت اولاً ، في صمت ومن غير استياء ، ان تتخلص من صمّتي ،
ثم حين رأت اني كنت الح ، واني اخذتها من ذقنها محاولاً ان ادير
وجهها نحو وجهي ، دفعتني بقوة وهي تقول :

– هل اصبحت مجنوناً ؟ هل أنت سكران ؟

فتمتت : لا ، لست بسكران ، أعطيني قبلة .

فاجابت بما كان لديها غيضاً مشرفاً ، وهي تدفعني من جديد :

– ليست لدي اية رغبة في ذلك ... وانت تعجب لماذا احتقرك ،

حين تتصرف على هذا النحو ... بعدما حدث بيننا !

– ولكنني أحبك .

– اما انا ، فلا .

وكنت أحسني مثيراً للسخرية ، ولكن مع نوع من الضيق شبيه
بضيق انسان يعي انه في وضع مضحك ولا سبيل الى اصلاحه في وقت
واحد . على اني لم اكن مستعداً بعد للاعتراف بهزيمتي ، فتمتت بلهجة
تريد ان تكون رجولية وحشية :

– ستقبليتي ، ان لم يكن بدافع الحب ، فبالإكراه !

وارتميت عليها .

ولم تقل شيئاً ، ولكنها فتحت باب السيارة فجأة ، فسقطتُ الى الامام على المقعد الفارغ . كانت قد قفزت من السيارة وهربت الى الطريق رغم المطر الذي كان يهطل بغزارة .
وظللت لحظة مشدوها . ثم قلت لنفسي : « اني أبسله » وخرجت بدوري من السيارة .

كان المطر يهطل بغزارة ، وحين وضعت قدمي على الارض ، أحسستني اغطس حتى الكعب في بركة ماء . وهذا ما فاقم غيظي حتى النهاية ، وغرقت في هوة من اليأس . وصرخت غاضباً :
— عودي ، يا اميلي ! اطمئني ، فلن أمسك بعد !
وسمعتها تقول في الليل :
— إما ان تتصرف بشكل آخر ، او اعود الى البيت مشياً على القدمين .

فقلت بصوت راجف :

— كفى ، عودي . انني اعدك بكل ما تريدين .
وكان المطر ما يزال يهطل ، وكان يدخل من ياقة معطفي فيبلل رقبتي ، وكنت أحسه يسيل على جيني وصدغي . ولم يكن ضوء السيارة ينير الا حيزاً ضيقاً من الطريق ، مع خربة رومانية فارغة السقف وشجرة شربين كبيرة كانت قممتها ترتعش في الليل ؛ ولكني حاولت كثيراً ان اعثر على اميلي ، فلم أرها . وناديت مرة اخرى ، حزينا :
— اميلي ! اميلي !

وانطلقاً صوتي في شكوى . وخرجت اخيراً من الظلمة ، فرأيتها في مرمى مصباح السيارة ، وقالت :

— أتعدني بالألا تلمسني ؟

— نعم . اعدك .

فأنت تأخذ مكانها في السيارة وهي تضيف :

– اية ولدنات ا هاندي مبلة ... ان رأسي كله مبلل ... ويجب عليّ صباح الغد ان اذهب الى المزين .
وصعدت ثانية الى السيارة ، وما لبثنا ان انطلقنا . وعطست اميلي مرتين بشكل رنان ومسرحي ، لكي تُفهمني اني عرضتها لالتقاط الزكام . ولكي لم اتوقف عند التحدي ، وكنت اقود السيارة كما لو انني في حلم . حلم مزعج كنت ادعى فيه ريشار وزوجتي تدعى اميلي ، وكنت احبها وهي لا تحبني ، بل كانت على العكس تحقرني .

الفصل الحادي عشر

استيقظت صباح اليوم التالي محطماً حزيناً ، يستولي عليّ مسبقاً نفور عميق مما كان ينتظرني ذلك اليوم والايام التالية ، مها كانت الظروف . وكانت اميلي ما تزال نائمة في غرفة النوم ، وكنت انا متمدداً على ديوان غرفة الاستقبال اتقلب طويلاً في الظل ، مستعيداً ببطء ومشقة امتلاك الواقع الذي كان النوم قد أنساني اياه .

ما الذي كان ينبغي لي ان أفعله ؟ وراجعت : كان عليّ ان اقرر هل اقبل ام ارفض سناريو « الاوديسة » ؛ وان اعرف سبب احتقار اميلي ؛ وان التمس الوسيلة لاكتسابها من جديد .

لقد قلت اني كنت أحسني محطماً ، مرهقاً ، نافذ القوى ؛ وهذه الطريقة المنهجية في تلخيص قضايا وجودي الحوية الثلاث لم تكن في واقعها - كما لاحظت بسرعة - الا وهماً كنت اريد ان انسبه الى نفسي بامتلاك قوة وتبصر كنت بعيداً عن امتلاكها . ان جنرالاً او رجلاً سياسياً او رجل اعمال يجهدون بالطريقة نفسها لمعانقة القضايا التي ينبغي ان يحلّوها بأن يواجهوها كحاجات محسوسة ، جامدة ، سهلة الانقياد . ولكني لم اكن رجلاً من هذا الطراز ؛ وكنت واثقاً من ان هذه الطاقة وهذا التبصر اللذين كنت أجهد لابتعاثها في سافقتهما تماماً حين يجب

عليّ ان انتقل من الفكر الى العمل .
انى لم أكن اجهل تقصي ؛ لم أكن مُخدوعاً ، وانا نائم على ظهري ،
مغمض العينين ، بما كان يحدث في داخلي : فأنا لا أكاد اريد تكوين
جواب على اسئلي الثلاثة ، حتى يغادر خيالي ميدان الواقع ليرتمي في
سما الميول الفارغة . واذن ، فقد كنت في الخيال أراني أنشيء سناريو
الاوديسة ، كما لو ان شيئاً لم يكن ؛ وكان ينتهي بي الأمر الى تفاهم
مع اميلي ، واكتشف ان حكاية الاحتقار هذه كلها التي هي مريعة في
الظاهر ، كانت قد وُلدت في الواقع من سوء تفاهم طفولي ؛ وكنت
في نهاية المطاف اتصالح مع زوجتي . وبالاجال . لم اكن اواجه الا
النهايات السعيدة التي كنت أصبو اليها ، ولكن كان يفتح بين هذه
النهايات وبين وضعي الحالي هوة لم يكن بوسعي ان اردمها الا بأشياء
ليس لها اي طابع من الصلابة والانسجام . فلئن كنت أصبو الى حلّ
الوضع وفق رغباتي الاثيرة ، فقد كنت اجهل اطلاقاً كيف السبيل الى
بلوغ ذلك .

لقد كنت في غفوة بلا شك ، وقد استغرقت ثانية في النوم تماماً
بعد فترة من الزمن . وفجأة استيقظت متفضلاً فرأيت اميلي في الروب
ديشامبر ، جالسة عند اسفل الديوان . وكانت الغرفة ما تزال في الظلّ ،
والمصاريح مغلقة ، ولكن مصباحاً كان مضاءً على طاولة السرير الصغيرة .
كانت اميلي قد دخلت ، فأضاءت المصباح وجلست عند قدمي من غير
ان اشعر بذلك .

واذ رأيتها في وضع عائلي مألوف كان يذكرني بيقظات اخرى تعود
الى ازمان سعيدة ، خطر لي وهمّ غامض ، فتمتمت وانا انهض :

— اميلي ، هلي تحيينني ؟

فتريئت قبل ان تجيب ، ثم قالت :

— اسمع ، يجب ان احذئك ...

فهبط عليّ بردٌ شديدٌ ، وكنت على وشك ان اقول لها اني لا اريد ان اتكلم عن شيء ، واني كنت راغباً ان أترك وشأني بأمان وان اعود الى النوم . وبدلاً من ذلك سألتها :

— عمّ تريدان ان تحدثيني ؟

— عنّا نحن .

فأجبت وانا أحاول ان املك القلق الذي كان يتسرب اليّ .

— ولكن ليس ثمة بعدُ ما يُقال ... انك لا تحبينني بعد .. انك تحقرينني .. هذا كل شيء ...

فقلت بهدوء :

— كنت اريد ان اقول لك انني عائدة اليوم بالذات الى بيت امي . وقد حرصت على ان أخبرك قبل ان اخبرها ... وها انت الآن تعرف هذا !

والواقع اني لم اكن قد تنبأت بهذا الخبر الذي كان مع ذلك منطقياً بعد ما حدث مساء أمس . ولكن فكرة امكانية ان تتركيني اميلي ، لم تكن قد خطرت لذهني اطلاقاً ، مهما بدا ذلك غريباً . كنت اعتقد انها كانت قد بلغت حدّ القسوة والوحشية معي ، وانها لا تستطيع ان تتجاوزها . ولكنها تتجاوز الآن ذلك الحدّ على نحو غير متظرر ألبتة . وتمتت ، وانا لا اكاد افهم .

— تريدان ان تتركيني ؟

— نعم .

فلم أجد ما أجيب به ؛ ثم دفعتي الالم الحادّ الذي كان يحترقني الى الى ان اعلم . فقفزت عن الديوان وتوجهت وانا في منامي الى النافذة ، كما لو اني كنت اريد ان ادفع المصاريع وأدخل النور ، ولكنني توقفت وانا ألتفت وصححت بصوت مرتفع :

— ولكنك لا تستطيعين ان تذهبي هكذا ، اني لا اريد ذلك !

فقال بصوت متعقل :

— لا تتصرف كالأطفال .. ان فراقنا هو الشيء الوحيد الذي يبقى امامنا ... ليس بيننا بعد من شيء ، على الاقل فيما يخصني ... وهذا أفضل لنا كليتنا .

لا ادري ما الذي فعلته بعد كلمات اميلي هذه ، او انني على الاصح لا اذكر الا بضع عبارات ، وبضع حركات . كان لا بد لي من أن أفعل واقول اشياء لم أكن أعيها قط ، كما لو اني كنت فريسة نوع قوي من الهليان . وأظن اني مشيت بخطى واسعة في الصالة ، وانا مرتد منامي . منفوش الشعر ، واخذت ابتهل تارة الى اميلي الا تركني ، واشرح لها طوراً وضحي ، واحاور نفسي تارة ثانية كما لو اني كنت وحيداً : كان سناريو الاوديسة ، والشقة ، والاقساط التي ينبغي ان تُدفع ، ومطامحي المسرحية المضحى بها ، وحبّي لاميلي ، ومناقشاتي مع باتيستا ورينغولد ، وجميع مظاهر حياتي واشخاصها تمتزج على شفهي في فيض من الكلمات المتنافرة ، على غرار قطع زجاجية ملونة داخل صندوق للفرجة تهزه يدٌ غاضبة. ولكني في الوقت نفسه كنت احس ان صندوق الفرجة هذا لم يكن الا شيئاً مسكيناً مضحكاً ، مجرد قطع زجاجية ملونة ، مجمعة بلا نظام ولا غاية ، وان هذا الصندوق قد نحطم ، وكانت قطع الزجاج ملقاة على الارض شظايا تحت ناظري . وكنت احس في الوقت نفسه شعوراً واضحاً بالاستسلام والتخلي ورعباً من هذا الاستسلام ، ولكني لم اكن اتجاوز ذلك ، وانا مرهق ، ممنوع عن التفكير وحتى عن التنفس . وكان كياني كله يتمرد بعنف على فكرة الفراق وفكرة الوحدة التي ستليه . ولكن رغم صدق هذا التمرد ، لم أكن أجد كلمة واحدة جديرة بأن تثنى اميلي . وبين الفينة ، كانت غيمة التبرم والذعر التي تحيط بي تتبدد ، فكنت ارى اميلي جالسة على الديوان ، في المكان نفسه ، وهي تردد في سكون :

- ولكن فكر قليلاً يا ريشارد ... ان هذا هو الشيء الوحيد الذي نستطيع ان نفعله ...

- لا اريد . . لا اريد ...

- ولماذا ترفض ؟ كنت منطقياً ...

ولا ادري ما الذي أجبت به ، ولكي ظللت أذرع القاعة ، وفجأة أمسكت شعري بـكلتا يدي . وكنت احسني ، وانا في تلك الحالة ، عاجزاً عن اقتناع اميلي ، بل حتى عن مجرد التعبير عن رأيي . واستطعت بجهد ان اتمالك نفسي ، وان اعود لأجلس على الديوان ، وأن أسأل ، ورأسي بين يدي :

- ومتى تذهبين ؟

- اليوم بالذات .

ونَهضت آنذاك وخرجت من الغرفة دون ان تلوي . وهذا الذهب الذي لم اكن كذلك أتوقعه ، شأن كل ما قالت وفعلت حتى الآن ، خلقتني مشدوهاً . وحين نظرت فيما حولى ، داخلني شعورٌ غريب ، مُثلجٌ بدفته . كان الانتزاع قد أنجز ، وكانت وحدتي قد بدأت . كانت الغرفة هي نفسها التي كانت قبل بضع دقائق ، حين كانت اميلي جالسة على الديوان ، ولكن كل شيء كان مع ذلك مختلفاً ، كما لو ان بُعداً قد نقص . كان المهجر في الهواء ، في مظاهر الاشياء ، في كل مكان ؛ ومن عجب انه لم يكن يصلر عني نحو كل ما كان يحيط بي ، بل كان يبدو صادراً من الاشياء نحوي . وهذا كله ، كنت افكر به اقل مما كنت اشعر به في غموض ، في اعماق حساسيتي المتكررة ، المتأللة ، المشدوهة . ثم لاحظت اني كنت ابكي ، لأنني بعد أن احسست تأكلاً عند زاوية شفتي ورفعت اصبعي اليها ، وجدت خدي ميلاً . وارسلت تنهدة عميقة ، واخذت ابكي باستسلام وبدموع غزيرة . وعند ذلك خرجت من الغرفة .

وفي غرفة النوم ، عبّر نورٍ بدا باهراً بعد عتمة الصلاة ، فلم
تحمّله عيناى المعتكرتان بالدمع ، لمحت اميلي جالسة على السرير المدعوك
وهي تتلفن لأمها . وقد لفت نظري تعبير التبرّم والحية على وجهها .
وجلست بالقرب منها ، ومضيت في البكاء ، ووجهي بين يديّ . لماذا
كنت ابكي على هذا النحو ؟ اني لم اكن اميّر السبب جيداً ، ربما لم
اكن ابكي كارثة حياتي وحدها ، بل بسبب ألم أشد غموضاً لم يكن له
شأن بأميلي ولا بارادتها في ان تتركني . وكانت في هذه الاثناء تتابع
مخبرتها ، ولا بدّ ان امها كانت منطلقة في خطاب طويل ومعقد ،
فقد كنت ارى عبر دموعي تعبيراً شاردأ ، مستاءً ، مريراً ، يمر على
وجهها ، سريعاً ومعتماً كظل غيمة على مناظر الطبيعة . وقالت أخيراً :

— حسناً ، حسناً ... لقد فهمت ... فلا نتحدث بعدُ بهذا ...

فقاطعتها امها في الجهة الاخرى من الخط . ولكن اميلي لم تملك هذه
المرّة الصبر على الاصغاء حتى النهاية ، فقالت فجأة :

— لقد سبق ان قلت لي ذلك ... حسناً ... لقد فهمت ... الى اللقاء .
ولا بد ان الام قد اضافت شيئاً ما ، ولكن فيما ظل صوتها يُصدني

في الجهاز ، رددت اميلي بجفاء :

— الى اللقاء .

وعلقت الساعة . ثم نهضت ، وعيناها نحوي ، من غير ان تنظر
اليّ مع ذلك ، كما لو انها في حلم . واذا ذلك تناولت يدها ب تلقائية
وتتممت :

— لا تدهي ... ارجوك ... لا تدهي !

ان الاطفال والنساء اجلاً والنفس الضعيفة والطفولية يعلقون على
الدموع قيمة حاسمة من الاقناع العاطفي . وقد كنت في تلك اللحظة ،
وانا ابكي في ألم صادق ، أغذي أملاً غامضاً بأن ارقق اميلي بدموعي ،
شأن الطفل او المرأة او الكائن الضعيف . ولئن كان هذا الوهم يعزبني

قليلاً ، فقد كان يمنحني في الوقت نفسه انطباعاً ما من الرياء ، كما لو اني كنت ابكي لغاية ، وكما لو ان دموعي كانت نوعاً من «الشانتاج» تجاه اميلي . وفجأة ، خجلت من نفسي ، ومن غير ان انتظر جواب زوجتي ، نهضت وعدت الى الصالون . ولم تلبث اميلي ان لحقت بي . وكان قد أُتيح لي ان استرد نفسي وان امسح دموعي وان ألقى روب ديشامبر فوق منامتي . وكنت اشعل سيكارة لم تكن لي رغبة في تدخينها ، وانا جالس في اريكة ، فقالت لي وهي داخلة :

— اطمئن ، ولا تحف ... فلن اذهب .

فنظرت اليها ، وكانت خافضة العينين ، وتبدو كأنها تفكر ، ولكني كنت ارى زاويتي شفيتها ترتعشان ، ويدها تقلبان طرف ثوبها في حركة تتم عن الاضطراب والشروود . وتابعت في لهجة كانت تنفاقم تدريجياً :

— ان امي لا تريدني ... وقد قالت لي انها قد أجّرت غرفتي لطالب ، وكان لديها طالبان . مما يرفع العدد الى ثلاثة ، والبيت ملآن ... والحق انها لا تحمل قراري على محمل الجد ... وتطلب مني ان افكر ... فأنا اذن لا ادري اين اذهب : وانا مضطرة ان ابقي معك !

واصابني هذه العبارة القاسية في صدقها اصابة عميقة ، واعتقد اني ارتعشت ، على اني لم استطع الامتناع عن الاحتجاج :

— ولكن لماذا تحذيني بهذه اللهجة ؟ مضطرة ان ابقي معك ... ماذا عملت لك اذن ؟ لماذا تحقدين عليّ ؟

وكان دورها الآن في البكاء ، على غير رغبة منها في الظهور بهذا المظهر ، وهي تحفي عينها بيدها . وهزت رأسها وقالت :

— انك لم تكن تريد ان اذهب ... فأنا اذن باقية ... ينبغي ان تكون مسروراً !

وغادرت اريكني ، وجئت اجلس قريباً منها على الديوان، وَاخَذْتُهَا
بين ذراعي بالرغم من حركتها الغريزية في التراجع والمقاومة . وقلت :
– طبعاً اريدك ان تبقي ، ولكن ليس على هذا النحو : مضطرة
وقسراً ... ما الذي فعلته لك يا اميلي حتى تمحدثني بهذه اللهجة ؟
– اوه ! اذا شئت ، فاني سأذهب ... سأجد غرفة استأجرها ...
ولن يكون عليك ان تساعدني طويلاً ... سأعود الى مهنة الضرب على
الآلة ... وما ان اجد عملاً ، حتى أكفّ عن طلب اي شيء منك .
فصحت : – ولكن لا ، اريد ان تبقي ، ولكن بلا قسر ، يا اميلي ،
بلا قسر ...

فأجابت وهي تبكي :

– لست انت الذي تفسرني ، انها الحياة .

ومرة اخرى ، فيما كنت آخذها بين ذراعي ، أغراني الموقف ان
أسأله لماذا كُفّت عن حبي ، ولماذا كانت تحقرني : وما الذي حدث ،
وماذا فعلت لها . ولكني كنت قد استرددت طمأنينتي ، ربما بدافع من
معارضة دموعها وتيهها . وقلت لنفسي ان اللحظة لم تكن مناسبةً لأسأله ،
وان استلتي لن تؤدي الى شيء ، وان من الافضل لبلوغ الحقيقة اللجوء
الى وسائل أكثر اقناعاً . وانتظرت قليلاً ، فيما كانت ماضيةً في بكائها
الصامت ، صارفةً وجهها عني . ثم قلت بهدوء :

– هيا لنوقف كل نقاش ، وكل شرح لا يؤدي الا الى ايذائنا
كليتنا ... انني لا اريد ان اعرف عنك شيئاً بعد ، لهذه الفترة على
الاقل .. فاستمعي اليّ : لقد قبلت في النهاية ان اقوم بكتابة سناريو
الادوية ... ولكن باتيسنا يريد ان تقوم بذلك في خليج نابولي حيث
ستؤخذ معظم المناظر الخارجية ، ولهذا قررنا ان نذهب الى كابري ...
واقسم لك انني لن ازعجك هنالك ... وكيف استطيع ذلك حقاً ؟
سيكون عليّ ان اعمل طوال النهار مع المخرج ، ولن اراك الا ساعة

الطعام ... ان كابرې مكان رائع .. وعما قريب سيحل موسم السباحة:
وسوف تتراحين وتسبحين في البحر وتترهين ... وسوف تفكرين ،
وعلى غير عجل ، ستقررين في الهدوء المسلك الذي ستسلكينه ... ان
امك ، بعد كل حساب ليست على خطأ ، فيجب على المرء الا يتصرف
الا بعد التفكير الناضج .. ثم بعد شهرين او ثلاثة ، تبلغيني قرارك ،
وعند ذاك ، عند ذاك فقط سنتناقش فيه .

وكانت ما تزال صارقةً وجهها عني ، كما لتتجنب رؤيتي . ولكنها
سألتي بصوت قد عاد اليه الاطمئنان تقريباً :

– ومتى سنذهب ؟

– قوراً ... اقصد في غضون عشرة ايام ... بمجرد ان يعود المخرج

من باريس .

وكنت اتساءل الآن، وانا أضمرها اليّ فاشعر باستدارة نهدتها وطراوتها،
عما اذا كان بإمكانني ان اجازف بتقبيلها . وفي الواقع ، لم تكن تشارك
اطلاقاً في ضمّتي ، وانا كانت تكفي بتقبيلها . غير اني كنت اتصور
ان هذا الجمود لم يكن لامبالياً تماماً ، وربما كان يقنّع جاذبية ما خفية.
ثم سمعتها تسأل بلهجة مستسلمة اكثر منها متمردة :

– اين نسكن في كابرې ؟ في الفندق ؟

وأجبت بفرح لاعتقادي بأني كنت أسرها :

– لا ، ليس في الفندق ، ان الفندق مضجر جداً .. فعندي افضل

من ذلك... ان بانيسا يقدم لنا مقصورته ... وستكون تحت تصرفنا ما دام
عملنا في السناريو قائماً .

ولم اكذ انتهني من الكلام حتى ادركت ، كما حدث منذ ايام حين
قبلت دعوة بانيسا بأسرع مما ينبغي ، ان اميلي لم تكن ، لسبب من
الاسباب ، موافقة على هذا المشروع . وبالفعل ، فانها سرعان ما تخلّصت
من ضمّتي ، وتراجعت الى الجانب الآخر من الديوان ، ورددت :

مقصورة باتيستا ؟.. وهل قبلت ذلك ؟

فقلت مدافعاً :

- كنت اعتقد ان هذا يسرك...فالمقصورة اجمل وامتع من الفندق!
- لقد قبلت اذن ؟
- نعم ، وكنت أظنّ اني حسناً أفعل ...
- وسنسكن مع المخرج ؟
- لا ، فان رينغولد سينزل في الفندق .
- وباتيستا ، هل سيأتي ؟
- باتيستا ؟

وردت هذه الكلمة وانا مندهش قليلاً لهذا السؤال :

- اعتقد انه سيأتي من حين لآخر .. فيقضي يوماً او يومين .. في عطلة الاسبوع .. ليرى اين وصلنا في عملنا ...
- وصمت هذه المرة ، ثم اخرجت مندبلها من جيب الروب ديشامبر وتمخطت . وفي هذه الحركة ، انشقت ثوبها حتى قامتها ، كاشفاً عن بطنها وساقها . وكانت قد شبكت ساقها ، كما بدافع من حشمة ، ولكن بطنها الابيض الفتيّ كان يفيض قليلاً على فخذها المعضلين في غزارة بريئة كانت تبدو اكثر تعبيراً من اي رفض . واذ كنت أنظر اليها ، فيما كان يبدو انها تهب نفسها على غير وعي منها ، استولت عليّ شهوة عنيفة ذات تلقائية لا شبيه لها ، أتملّني قليلاً بأمل امكان امتلاكها . وسرعان ما فهمت ، واحسرتاه ، أنني لن افعل شيئاً ، رغم شهوتي ؛ واكتفيت بأن انظر اليها ، خلسة تقريباً ، كما لو اني كنت خجلاً من نظراتي . وكنت اقول لنفسي : هكذا اذن ، هذا ما وصلت اليه : ان انظر خلسة الى عُري زوجتي ، مع سحر الثمرة المحرمة ، كطفل يتلصص عبر احدى الفتحات على ما يجري داخل حمام !
- وفي حركة غاضبة ، سحبت الروب ديشامبر على الساقين المكشوفتين.

ولم يبد على اميلي انها لاحظت حركتي ، ولكنها قالت بصوت استعاده هدهده ، وهي تعيد متديلهيا الى جيبها :
- اوافق على ان اذهب الى كابري .. ولكن بشرط .
فصحت فجأة ، وقد نفذ صبري :
- لا تتحدثني عن الشروط ... اننا سنذهب ، هنا مضق عليه ،
ولكنني لا اريد ان اعرف شيئاً ... والآن ، اذهبي ، اذهبي ...
ولا بد انه كان في صوتي نوع من النصب المجنون ، لأنها نهضت فجأة ، وهي شبه مذعورة ، وغادرت القاعة على عجل .

الفصل الثاني عشر

ثم كان يوم السفر الى كاهري . وكان باتيستا قد قرر ان يصحبنا الى الجزيرة ، ليعرفنا على البيت ، كما كان يقول لنا . وحين هبطنا الى الشارع ، وجدنا خلف سيارتي الصغيرة سيارة المنتج الضخمة الحمراء . وكنا في الايام الاولى من حزيران ، ولكن الطقس كان ما يزال متقلباً وغائماً ، وكانت الرياح تفر . وكان باتيستا واقفاً قرب سيارته ، وهو يرتدي سترة جلدية وبنطالاً من نسيج الصوف الخفيف ، وكان يتحدث الى رينغولد الذي كان يلبس ثياباً خفيفة مناسبة ، كالالمان الذين يعتبرون ايطاليا بلاد الشمس ، وكان يرتدي بدلة من النسيج المخطط مع قبعة بيضاء .

وخرجنا انا واميلي من البيت ، يتبعنا اليواب والخادمة اللذان كانا يحملان حقائبنا ؛ وما لبث رفيقانا أن أقبلنا علينا ؛ وبعد التحيات المألوفة ، سأل باتيستا :

— كيف نذهب ؟

ومن غير ان ينتظر جواباً ، قال :

— أقترح ان تأتي السيدة معي في سيارتي ، ورينغولد في سيارتك يا موليتي ... وهذا ما سيتيح لكما ان نتحدثا عن القيلم في اثناء الطريق .

وأضاف بلهجة رصينة وهو يتشم :
- اليوم يبدأ العمل الحقيقي .. فأنا أريد ان يكون السنايرو بين
يديّ في غضون شهرين .

ونظرت الى اميلي بصورة آلية تقريباً ، فلاحظت على وجهها هذا
النوع من تحلل الملامح الذي كنت قد لاحظته مرات سابقة والذي كان
يعني لديها تمللاً واستياء . ولكي لم أعلّق على ذلك أهمية ، كما لم
أربط بين تعبير سحتها وبين الاقتراح الذي قدمه باتستا ، وهو اقتراح
معقول بالفعل .

وقلت وانا اجهد في ان ابدر مرحاً ، كما يبدو ان ظروف هذه
الرحلة الى شاطيء البحر تقتضي :

- حسناً .. حسناً .. ان اميلي ستذهب معك ، وريبنغولد معي ...
ولكي لا أعد ان اتكلم عن السنايرو ..
وتدخلت اميلي تقول :

- اني اخشى السرعة ... وانت يا سيدي تفود بسرعة كبيرة
سيارتك هذه !

ولكن باتستا اخذها من ذراعها بانذاع وهو يصرخ :
- ولكن لا مجال للخوف معي ... ثم ممّ تخافين ؟ اني حريص
على روحي انا ايضاً !

وكان يجرّها الى السيارة فيما هو يتكلم . ورأيت اميلي تنظر اليّ
نظرة متسائلة ، خائفة ، وتسألت الا ينبغي ان أحتفظ بها معي ؟
ولكني فكرت بان من الممكن ان يُبحر باتستا من جراء ذلك ؛ لقد
كان مهووساً بالسيارات ، وكان والمحق يقال يقودها قيادة مدهشة ،
فكان ان صمت . واعترضت اميلي مرة أخرى ، في خجل :

- كنت افضل ان اذهب في سيارة زوجي ..

فاحتج باتستا ، وهو يمزح :

- زوجك ؟ ما هو هذا الزوج ؟ . ولكنك طوال النهار مع زوجك ... هيا ، تعالي ، والا فسوف أغضب !
وكانا قد وصلا في تلك الاثناء قرب السيارة ، وكان باتيستا يفتح الباب ، فأخذت اميلي مكانها ، بينما استدار باتيستا ليععد من الجانب الآخر . وكنت انظر اليهما ، حالماً ، وارتعشت لصوت رينغولد وهو يسألني :

- هل نحن مستعدان ؟

فانفضت ، وصعدت بدوري ، وأدرت محرك السيارة .
وسمعت خلفنا هدير محرك سيارة باتيستا التي كانت تُقلع ، ثم تجاوزنا وابتعد بسرعة في الشارع المنحدر الضيق . واتيح لي ان ارى لحظةً من الزجاج الخلفي اميلي وباتيستا جالسين احدهما قرب الآخر ؛ ثم اختفت السيارة عند المنعطف .

كان باتيستا قد اوصانا بان نتحدث عن الستاريو في اثناء الطريق . وكانت توصية نافلة . ذلك انا كنا قد اجتزنا المدينة على طولها بالسرعة المعتدلة اليي كانت سيارتي تتيحها لي ، وكنت افضي الى طريق « فورميو » حين بدأ رينغولد الذي كان قد التزم الصمت حتى ذلك الحين ، يقول :
- قل لي بصراحة ، يا مولتيبي ، لقد كنت تبسود ذلك اليوم ، ونحن عند باتيستا ، خائفاً من ان تشارك في فيلم « ضخم » ..
فأجبت بشرود :

- وما زلت على خوئي نفسه ، بسبب الجو الذي يرين في الاستديوهات الايطالية .

فقال بلهجة اصبحت فجأة قاسية ومتسلطة :

- ليس امامك ما تخافه .. فسوف نعمل فيلماً ببيكولوجياً ، وببيكولوجياً فقط .. كما سبق ان قلت لك .. فانا لم اعتد ، يا عزيزي مولتيبي ، ان انطوي لرغبات المتعجبين .. بل انا افعل ما اريد .. فانا ،

لدى اخذ المشاهد ، المعلم وليس احدٌ سواي .. والا امتنعت عمن
اخراج الفيلم .. هذا شيء بسيط !

وكان شيئاً بسيطاً جداً بالفعل ، وانا اقول ذلك بلهجة مرحة ، لأن
هذا التأكيد بالسيادة كان يجعلني أؤمل اتفاقاً ممكناً مع رينغولد لأقوم
بعمل أقل اضجاراً من المعتاد . واستطرد رينغولد ، بعد فترة صمت :
- اود الآن لو اعرض لك بعض افكاري .. واظن انك قادر على
قيادة السيارة والاصغاء اليّ في وقت واحد ؟

فقلت : - طبعاً !

ولكنني في اللحظة التي كنت استدير فيها نحو رينغولد ، انبثقت
عربة يجرها جاموسان من طريق معترضة ، فكان لا بدّ من ان اتوقف
توقفاً عنيفاً جداً ، فاذا بالسيارة تنحرف الى جانب ، وترسم تعرجاً
مفاجئاً ، وتعيد في مشقة عن شجرة كانت توشك ان تصطدم بها ،
ولكنني اوقفتها في الاوان . واخذ رينغولد يضحك :

- عجباً ! ما كنت اتوقع ذلك قط !

فقلت مغناظاً بعض الشيء :

- لا تهتم لهذا انني لم اكن استطيع قط ان ارى هذين الجاموسين ..
ولكنك تستطيع ان تتكلم ، فأنا مصغ اليك .
ولم يتوقف رينغولد لحظة ، بل انشأ يقول :

- اسمع يا موليتيني . لقد قبلت ان اذهب الى كاهري .. ونحن
بالفعل سنأخذ صور الفيلم الخارجية في خليج نابولي ، ولكن ذلك لن
يكون الا الديكور ؛ اما بالنسبة للباقي ، فقد كان بوسعنا ان نبقى في
روما .. وبالفعل ، فان درامة يوليسوس ليست درامة بحري او مكتشف
او منفي ، بل هي درامة انسان ... ان اسطورة يوليسوس تصور قصة
تمودج انساني معين .

فصرحت كيفها اتفق لي :

— ان جميع الاساطير اليونانية ليست الا تصوير الدرامات الانسانية
بلا مكان ولا زمان ، الدرامات الخالدة ..

— صحيح جداً .. ان الاساطير اليونانية ، بعبارة اخرى ، هي
رموز للحياة الانسانية .. والآن ، ماذا ينبغي لنا ، نحن المحدثين ، ان
نفعل لتبعث تلك الاساطير الموعلة في القدم والظلام ؟ يجب علينا ، قبل
كل شيء ، ان نجد المعنى الذي يمكن ان نحمله لنا ، نحن بشر اليوم ،
ثم ان نعمتق هذا المعنى ونفسره ونمثل له .. ولكن بطريقة حية ،
شخصية ، من غير ان ندع امهات الكتب التي استخرجها الادب اليوناني
من هذه الاساطير ، تسحقنا ؛ لناخذ مثلاً : انت تعرف بلا شك
مسرحية اونيل « الحداد يناسب الكترا » التي أخرجوا منها فيلماً ؟
— نعم ، أعرفها .

— كان اونيل قد فهم هو ايضاً هذه الحقيقة البسيطة ظاهراً بانه
يجب تفسير الاساطير القديمة بطريقة حديثة ، ومنها « الاوريسي » ..
على اني لا احب « الحداد يناسب الكترا » ، وهل تعرف لماذا ؟ لأن
اونيل قد خاف من اسخيل .. فقد فكر بان اسطورة اورست يمكن
ان تفسر بعلم النفس التحليلي .. ولكنه لخوفه من الموضوع ، نقل الاسطورة
تقلاً مبالغاً في حرفيته .. كتلميذ مجتهد يكتب موضوعه على دفتر من
ورق مسطر .. ويوسع المرء ان يرى الأسطر ، يامولتيني ..
وسمعت رينغولد يضحك لفكرته ، مسروراً من فقه لاونيل .

وكنا نعبّر آنذاك أرياف روما ، غير بعيد عن البحر ، بين روابٍ
منخفضة مذهبة بالقمح الناضج ، مع بعض الاشجار الكثيفة هنا وهناك .
ولا بد ان باتيستا قد سبقنا كثيراً ، لان الطريق ، على مدى النظر ،
كانت خالية في الخطوط المستقيمة وعند المنعطفات . لا بد انه في تلك
اللحظة قد سبقنا بنمسمئة كيلومتر ، هو الذي يسير بسرعة اكثر من
مئة في الساعة .

وسمعت صوت رينغولد يتابع :

— ما دام اونيل قد فهم هذه الحقيقة بان الاساطير يجب ان تفسر تفسيراً حديثاً وفق مكتشفات علم النفس الاخيرة ، فانه ما كان ينبغي له ان يحترم اكثر مما ينبغي الحجة ، بل ان يديرها ويقلبها ، ويبقرها ، ويجددها .. وهو لم يفعل ذلك في « الحداد يناسب الكترا » ولهذا جاءت مسرحيته باردة ومضجرة .. انها تأليف مدرسي .

— لقد بدت لي جميلة بما فيه الكفاية .

فلم يلاحظ رينغولد مقاطعتي اياه ، ومضى يقول :

— انا سنفعل بالاديسة ما لم يرد او ما لم يعرف اونيل ان يفعله بالاوريسي : ان نفتحها كما يُفتح جسم بشري على طاولة التشريح ، فنفحص حركيتها الداخلية ، ونفكك اجزاءها ثم نعيد تركيبها وفق المتطلبات العصرية ..

وكنت اتساءل ما هي غاية رينغولد من هذا ، وقلت كيفها اتفق لي :

— ان حركية الاديسة معروفة : انها المفارقة بين حين المنزل والاسرة والوطن ، وبين العقبات الكثيرة التي تحول دون العودة السريعة الى مسقط الرأس وسقف البيت .. ان كل اسير حرب ، كل منفي محتجز لاي سبب بعيداً عن بلاده ، بعد انتهاء الحرب ، هو على الأرجح يوليسوس صغير على طريقته ..

فضحك رينغولد ضحكة تشبه بقيقة دجاجة :

— كنت انتظر هنا .. المنفي ، الاسير .. ولكن لا ، يا موليتني ، لا شيء من هذا .. انك تتوقف عند المظاهر ، عند الوقائع .. فاذا روي فيلم « الاديسة » من هذه الزاوية ، فهو يتعرض لخطر ألا يكون الا فيلماً « ضحياً » للمغامرات ، كما يريد باتيستا .. ولكن باتيستا محرج ، ومن الطبيعي ان يفكر على هذا النحو .. في حين انك

انت ، يا موليتيني ، متقف .. انك ذكي يا موليتيني ، فاستعمل عقلك ، حاول ان تشغله ..

فقلت وانا متزعج بعض الشيء :

— هذا ما أفعله ، بل انا لا أفعل شيئاً آخر .

— لا ، انك لا تستخدم ذكاءك . فابحث جيداً ، وانظر عن كتب ، ولاحظ اول الامر شيئاً : ان قصة يوليسوس هي قصة علاقاته بزوجه .

فلم انبس هذه المرة بكلمة . وتابع رينغولد :

— ما الذي يلفت ذهننا اكثر شيء في الاوديسة ؟ انه بطء عودة

يوليسوس ، قضاؤه عشرة اعوام لكي يعود الى بيته .. وخلال هذه السنوات العشر ، بالرغم من حبه المعلن لبينيلوب ، يحونها في الواقع ، كلما سنحت له الفرصة .. ويقول لنا هوميروس ان بينيلوب كانت الفكرة الوحيدة ليوليسوس ، ورؤيتها من جديد كانت رغبته الوحيدة ..

ولكن ، هل يجب علينا ان نصدقه ، يا موليتيني ؟

فقلت بلهجة لا تخلو من سخرية :

— اذا لم نصدق هوميروس ، فانا لا ارى حقاً من نستطيع ان

نصدق ا

— نصدق انفسنا ، نحن البشر العصريين ، الذين نستطيع ان نرى

عبر الاساطير . اسمع : لقد توصلت ، بعد ان قرأت الاوديسة مراراً وتكراراً ، الى التفكير بان يوليسوس في الواقع ، ربما من غير ان يدرك ذلك ، لم يكن حريصاً على العودة الى بيته ، لم يكن يريد ان يلقى بينيلوب من جديد .. هذا هو استنتاجي الخاص ، يا موليتيني ..

وظللت على صمتي . وتشجع رينغولد بذلك ، فاستطرد يقول :

— ان يوليسوس هو في الواقع رجل يخشى ان يعود الى قرب زوجته ،

وسرى فيما بعد لماذا ، ولأنه يعاني هذا الخوف ، فهو يلتمس في نصف وعيه ان يخلق لنفسه عقبات حتى لا يعود .. وليست روح المغامرة الشهيرة عنده الا رغبة لا وعية بابطاء عودته ، موزعاً نفسه في مغامرات

تقطعه وتصرفه بالفعل عن طريقه . وليس « شاربيد » و « سكيلا »
ولا « كاليبسو » و « القياسيون » ولا « بوليفيم » و « سيرسيه » ،
ولا الآلهة هم الذين يعارضون عودة يوليسوس : وانما هو نصف وعيه
الذي يخلق له اعداراً صالحة ليقى هنا عاً ، وهناك عامين ، وهلم جرا ..
هكذا : الى هذا التفسير الفروبيدي كلاسيكياً كان رينغولد يريد ان
يصل . وكنت مندغشاً فقط الا اكون قد فكرت بذلك من قبل ؛ لقد
كان رينغولد ألمانيا ؛ وكان قد بدأ في برلين في موجة فرويد الاولى ،
وكان قد مرّ في الولايات المتحدة حيث كان علم النفس التحليلي شائعاً ،
فكان من الطبيعي ان يعمل على تطبيق مناهجه على الانسان الخالي من
العقد خلواً تاماً : يوليسوس .
وقلت بجفاء :

— هذا بارع .. ولكني لا ارى بعد كيف يكون الامر ..
— لحظة ، يا موليتني ، لحظة .. ان من الطبيعي اذن ، على ضوء
تفسيري — وهو التفسير الوحيد الصحيح ، بعد الاكتشافات الاخيرة
لعلم النفس الحديث — الا تكون الالديسة الا القصة الصميمية لعلم
التلاؤم الزوجي . اذا صح التعبير .. وقضية عدم التلاؤم هذا قد ناقشها
يوليسوس وتعمقها كثيراً ، ولم يستطع ان يقهرها ويتغلب عليها الا بعد
عشرة اعوام من الصراع ضد نفسه ، بقبوله الوضع الذي سببها . وبعبارة اخرى ،
فان يوليسوس ، طوال عشرة اعوام ، ظل يخلق لنفسه جميع الماطلات الممكنة ،
ويخترع جميع الاعذار حتى لا يعود الى منزله الزوجي ؛ بل هو يفكر اكثر من
مرة ان يربط حياته بحياة امرأة اخرى .. ولكنه يتوصل اخيراً الى ان
يمتلك نفسه ، ويعود .. والحال ان عودة يوليسوس هذه تعادل قبولاً
للوضع الذي سبب ذهابه والذي كان يدعوه دائماً الى تأخير عودته ..
فسألته وانا مشدوه حقاً هذه المرة :
— اي وضع ؟ الم يذهب يوليسوس بكل بساطة ليشارك في حرب طروادة؟

فردد رينغولد في نفاذ صبر :

— مظاهر .. مظاهر .. ولكنني سأتكلم عن الوضع في « ايتاك » قبل ذهاب يوليسوس الى الحرب ، وعن كل شيء آخر ، حين اشرح لك الاسباب التي جعلت يوليسوس لا يعود الى ايتاك ويخشى استعادة الحياة الزوجية .. على اني اود ان الاحظ ملاحظة هامة : ان « الاوديسة » ليست مغامرة تمتد عبر الحيز الجغرافي ، كما كان هوميروس يود ان يثبت لنا .. انها على العكس المأساة الداخلية ليوليسوس ، وجميع الظروف هي رموز نصف الوعي لدى يوليسوس .. انك طبعاً تعرف فرويد ، يا موليتيني ..

— نعم ، قليلاً .

— حسناً ! ان فرويد هو الذي سيكون رائدنا عبر نفسية يوليسوس ، لا « برار » بجرائطه الجغرافية وعلمه اللغوي الذي لا يشرح شيئاً .. اننا سنكتشف بدلاً من البحر الابيض المتوسط ، نفس يوليسوس ، او بالاحرى نصف وعيه ..

وقلت بحموية ربما كان مبالغاً فيها ، اذ كنت مترجعاً بعض الشيء :

— واذن ، فقد كان غير مجد ان نقيم في كابري لتصنع درامة « صالونية » . لقد كان بوسعنا ان نعمل في غرفة مفروشة ، او في حيّ حديث من احياء روما .

ورأيت رينغولد يقذفني بنظرة مندهشة ومجروحة في الوقت نفسه ، ثم ينفجر بضحكة مستاءة ، كما لو انه كان يفضل ان يحول الى المزاح نقاشاً لا يبشّر بالخير . وقد قال :

— الافضل ان نستأنف هذا النقاش في كابري ، في الهدوء . والحق انك لا تستطيع ، يا موليتيني ، ان تقود السيارة وان تناقشني في الاوديسة معاً .. فقدت السيارة اذن ، اما انا فسأأمل هذا المنظر الرائع .

ولم اجرؤ على معارضته ؛ وُقدت السيارة صامتاً طوال ساعة تقريباً .
واجتزنا ارض المستنقعات القديمة ، وعن يميننا القنال البطيء ، الكسول ،
وعن يسارنا السهل الاخضر الذي اخضبه الري . وهذه « سيسترا » ..
ثم « تيراسينا » . وبعد ان اجتزنا هذه المدينة ، بدأت الطريق تحاذي
البحر ، وكانت في الجهة المقابلة سلسلة من الجبال الصغيرة الصخرية
المحترقة بالشمس . ولم يكن البحر هادئاً ؛ وقد كان يبدو ، فيما وراء
التلال الرملية ، الصفراء والسمراء ، ذا لون أخضر يحدس المرء انه صادر
عن رمال الاعماق التي كانت عاصفة شديدة قد حركتها . وكانت
امواج كبيرة ترتفع في رخاوة وتأتي لتغمر الشاطئ الضيق بمياهها البيضاء
المربدة . اما في عرض البحر فقد كانت المياه معتكرة بشكل واحد ،
وكان لونها الاخضر يتغير الى ازرق شبه بنفسجي كانت الرياح تُرسل اليه
أكاليل من الزبد بيضاء . اما السماء ، فكانت تكشف القوضى المتحركة
المتغيرة نفسها : غيوم بيضاء تركض في كل اتجاه ، وفرجات لازوردية
واسعة يكتسها ضوء مشع مُعمٍ ؛ وطيور بحر مرفقة ، تنقض على
الامواج ، وتخلق كما لو انها كانت تسعى بطيرانها الى مساعدة دوامات
الرياح وهباتها . وقد كنت اقود سيارتي ، وعيناي محدتان على هذا
الديكور البحري ، وفجأة ، كما لأجيب على الندم الذي اوحى لي به
نظر رينغولد المندهش المجروح حين وصفت تفسيره ليوليسوس بأنه
« درامة صالونية » ، قلت لنفسي ، اني بعد كل حساب ، كنت على
خطأ . وسوف يكون من اليسير ، امام هذا البحر ذي الالوان الحية ،
وتحت هذه السماء المشعة ، بحذاء هذا الشاطئ الفاحل ، ان اتصور
سفن يوليسوس تنهادى فوق الامواج وتنجه نحو اراضٍ ما تزال عندها ،
يجعلها البحر الابيض المتوسط . وانما اراد هوميروس ان يصف بحراً
كهذا ، وسماء وشاطئاً مائلين ، مع اشخاص مصنوعين على صورة هذه
الطبيعة التي كانوا يملكون منها البساطة العريقة والايقاع المحبوب . كان

كل شيء هنا ، ولكن هذا وحده . وها أن رينغولد يريد ان يصنع من هذا العالم الملون المضيء الذي تنعشه الريح ، وتيره الشمس ، وتعمره كائنات دقيقة جريئة ، نوعاً من التجويف الاحشائي المشوه المتقعر ، لا شمس فيه ولا هواء : نصف وعي يوليسوس . ان الاوديسة على هذا النحو ، لن تكون بعد المغامرة المدهشة لاكتشاف البحر الابيض المتوسط ، الذي كان في إبان طفولة البشرية ، بل ستكون الدراما الداخلية لإنسان معاصر هو فريسة تناقضات عصائية .

واستنتاجاً من هذه التأملات ، قلت لنفسي انه لم يكن ممكناً لي ، في معنى من المعاني ، أن أقع على سناريو أسوأ من هذا : فقد كان ينضاف الى نزعة السينما المألوفة في تغيير ما ليس بحاجة للتغيير الى ما هو أسوأ ، غموض علم النفس التحليلي الآلي التجريدي ، حين يُطبق على اثر في محسوس وحر ، كالاوديسة .

وكنّا في تلك اللحظة نمرّ على مقربة من البحر ؛ وعلى حافة الطريق ، كانت ثمة أغصان دوال ضخمة مزروعة في الرمل تقريباً ، ثم زقاق ضيق من الحصى سودّته نفايات البحر ، وكانت امواج كبيرة نادرة تنهار عليه بين الفينة والفينة بالزبد المتموج . ووقوف السيارة فجأة ، وقلت بلهجة موجزة :

— انني بحاجة الى ازالة خدر ساقّي .

وخرجنا من السيارة ، فسلكت زقاقاً صغيراً يؤدي ، عبر الدوالي ، الى الشاطئ ..

وقلت شارحاً لرينغولد :

— ها هي ثمانية اشهر وانا اعيش مسجوناً ، ولم أر البحر منذ الصيف الماضي ، فلنذهب لحظة الى حافة الماء .

فتبعني في صمت ؛ أتراه كان ما يزال حانقاً ، وهو يعبس في ؟ وكان الزقاق يتعرج على طول خمسين متراً عبر الدوالي ويختصر على رمال

الشاطيء . وما أن صخب الامواج التي تتراكب وتتحطم في فوضى ،
يحل الآن محل هدير المحرك الآلي . ومشيت لحظة ، وانا اغامر بالسير
تارة على الرمل المبتل الممّاع ، وانسحب تارة اخرى وفق تقدم الامواج
او انسحابها . وتوقفت اخيراً على رابية ، وظللت ساكناً وقتاً طويلاً ،
وعيناي ضائعتان في الافق . وكنت أحسّ اني كنت قد ازعجت
رينغولد ، وانه كان عليّ ان استأنف الحديث ، وانه كان ينتظر ان
انفد ذلك . وبالرغم من انه كان يزعجني جداً ان اقطع تأملي النشوان ،
قررت ان اتكلم :

– المعذرة ، يا رينغولد ، ربما كنت قد اسأت التعبير منذ حين ،
ولكني أصارحك بأن تفسيرك لم يقنعني تماماً ... وانا مستعدّ ان ابيّن
لك السبب ، اذا شئت .

وسرعان ما اجاب في تواضع :

– تكلم ... تكلم ... إن النقاش جزء من عملنا ، أليس كذلك ؟
فاستطردت من غير ان انظر اليه :

– انني لا اناقش بأنه يمكن للاوديسة ان يكون لها المعنى الذي تشير
اليه .. ولكني اقول إن المزايا المميّزة للأشعار الهوميروسية ، وللفن
الكلاسيكي بالاجمال ، هي انها تغطّي جميع المفاهيم التي يمكن ان تبرز
لاذهاننا الحديثة ، في شكل أصفه بأنه عميق ...

واضفت في عصبية مفاجئة وغير قابلة للتفسير :

– اقصد ان جمال الاوديسة يكمن في هذا الايمان بالواقع كما هو ،
كما يبدو لنا موضوعياً ... في هذا الشكل الذي لا يسمح بتحليله ، والذي
هو ما هو : فلما ان يؤخذ او يُترك ...

وتابعت اقول من غير ان انظر الى رينغولد ، وعيناي متجهتان نحو
البحر :

– إن عالم هوميروس ، بعبارة اخرى هو عالم واقعي . وقد كان هوميروس

يتمني الى حضارة نمت وفقاً للطبيعة ، لا ضدها ؛ من اجل هذا كان
يؤمن بحقيقة العالم المحسوس ؛ وكان يراه حقاً كما تخيله ... واذن ،
فأنا أعتقد ان علينا ان نأخذها كما هو ، بأن نؤمن به حرفياً ، كما آمن
به هوميروس ، من غير ان نبحت فيه عن معنى خفي .
وصمت ، لا لأنني هدأت ، بل على العكس لاني اغتظت كثيراً
لمحاولتي التفسيرية ، كما لو اني بذلت جهداً لا مجدياً . وبالفعل ، فلم
يتأخر جواب رينغولد ، فقال وهو يطلق ضحكة انتصار هذه المرة :
- تعلقن بالظاهر .. تعلقن بالظاهر ... يا عزيزي مولتيني ! انك
كجميع اللاتينيين ترى الاشياء من الخارج ، ولا تدرك ان بإمكاننا ان
نراها من الداخل .. ومع ذلك فلا ضير هناك .. فانا حريص على
الاستبطان ، انك ايجابي : من اجل هذا بالذات اخترت انك ... ان
طبيعتك ستوازن طبيعيي ... وسترى ان تعاوننا سيسير على خير ما يرام !
وكنت اوشك ان اردت عليه ، واعتقد ان ردتي كان سيزعجه مرة
اخرى ، لاني كنت احسستي من جديد مغتاضاً بعناده وبذهنه المحدود ،
حين ارتفع من خلقنا صوت نعرفه جيداً يقول على حين غرة :
- رينغولد ، مولتيني ، ماذا تفعلان ؟ انكما تبتردان على شاطئ
البحر ؟

فالتفت ، ورأيت في ضوء الصباح الباهر طيفي باتيستا واميلي على
احدى الروابي المرتفعة .

وهبط باتيستا نحونا بسرعة وهو يلوح بيده على سبيل التحية . وكانت
اميلي تتبعه بشكل أبطأ ، وعيناها في الارض . وكان كل شيء لدى
باتيستا يتم عن حيوية وثقة اشد بروزاً من المألوف ، في حين أن موقف
اميلي كان يبدو وكأنه يعبر عن المزاج المعتكر والاضطراب ونوع من
الإكراه .

وناديت باتيستا ، وانا دهش :

— كنا نظنكم متقدمين علينا كثيراً ... وربما حتى « فورميا » أو أبعد منها ...

فأجاب باتيستا في لامبالاة :

— لقد سلكنا اطول الطرق .. وقد أردت ان أطلع زوجتك على احد املاكى في جوار روما حيث ابني مقصورة لي ... ثم وجدنا طريقين مسدودين ...

والثقت الى رينغولد ، واستطرد :

— هل كل شيء على ما يرام ، يا رينغولد ؟ هل تحدثنا عن الاوديسة ؟

فأجاب رينغولد بالاسلوب البرقي نفسه ، من تحت حافة قبعته البيضاء :
— كل شيء جيد .

وكان واضحاً ان وصول باتيستا كان يزعجه ؛ وقد كان يوتر المضي في النقاش معي .
— حسناً ... هذا ممتاز ...

ثم أخذنا باتيستا بود من ذراعينا وجرتنا نحو اميلي التي كانت قد توقفت غير بعيد ، على الشاطئ ، وقال في تأدب بدا لي غير محتمل :
— واذن ، يا سيدتي الجميلة ، عليك ان تقرري : هل نتناول الغداء في نابولي ام في فورميا ، اختاري ...

فأجابت اميلي ، كما لو انها أخذت على غرة :

— قررنا ذلك فيما بينكم ... ان الامر بالنسبة لي سواء .

— ولكن لا ! أن السيدات هن اللواتي يقررن !

— إذن لتتناول الغداء في نابولي ، فأنا الآن لست جائعة .

— اتفقنا : في نابولي ... حساء السمك بالطهاطم ... والاوركسترا

التي تعزف « اوسولوميو » !

مما لا شك فيه ان باتيستا كان منطلق المزاج . وسأل رينغولد :

– في اية ساعة تتجه الباخرة الى كابري ؟
– في الساعة الثانية والنصف . فن المستحسن أن نذهب .
واتجه باتيستا نحو الطريق ، من غير ان ينتظر بعد . فتبعه رينغولد
وهو يمشي الى جانبه . اما اميلي ، فانها بعكس ذلك ، لم تتحرك ،
وبدت وهي تتأمل البحر ، كما لو انها تريد ان تترك رفيقنا يسبقانا
ولكني ما كدت أدركها حتى تناولت ذراعي وقالت لي بصوت خافت:
– اريد ان اذهب الآن في سيارتك ... فحاول الا تخالفني .

فأدهشني لهجتها العجلى ، وقلت :

– ولكن ، ماذا حدث ؟

– لا شيء ، سوى ان باتيستا يقود سيارته بأسرع مما ينبغي !
وسلكنا الممرّ في صمت . واذ بلغنا الطريق امام السيارتين الواقفتين ،
انجمت اميلي بخطوة عازمة نحو سيارتي . وصاح باتيستا :

– ايه ! الا تأتي السيدة مولتيني معي ؟

والثفت : كان باتيستا واقفاً قرب باب سيارته المفتوح ، على
الطريق التي تغمرها الشمس . اما رينغولد ، وكان ما يزال بين السيارتين ،
وهو في حيرة ، فكان ينظر الينا على التوالي . فقالت اميلي في هدوء من
غير ان ترفع صوتها :

– انا ذاهبة مع زوجي هذه المرة ... وسلتقي في نابولي ...
وكنت أظن ان باتيستا لن يلحّ . ولكنه ، بعكس ذلك ، أسرع
الينا يقول :

– ولكن ، يا سيدتي ، ستبقين طوال شهرين مع زوجك في كابري...
ثم أضاف بصوت منخفض ، حتى لا يسمعه المخرج :

– وانا .. قد ضجرت في روما من صحبة رينغولد ؛ وأكد لكما
انه لا يسلي ! وليس لدى زوجك بالتأكيد ايّ اعتراض على ان تأتي
معي ، أليس كذلك ، يا مولتيني ؟

ولم يسعني الا ان اجيب ، على مشقة مع ذلك :
— على الاطلاق ... ولكن اميلي تقول لي انك تسوق بسرعة تتجاوز
الحدّ المعقول !

فقال باتيستا بلهجة عاجلة ومازحة ، في وقت واحد :
— سأسير كالبزّاقة ... ولكني أرجو كما الا تدعاني وحدي مع
رينغولد ...
وأضاف هامساً :

— ليتكما تعرفان كم هو مضجر ! انه لا يتكلم الا في السينا ...
ولا أدري لأي دافع خضعت . ربما فكرت بأن عذراً تافهاً كهذا
لم يكن يبرّر إغضاب باتيستا . فقلت ، حتى من غير ان افكر :
— هيا ، يا اميلي .. انك تريدن طبعاً ان تسرّي باتيستا .. والواقع
انه على حقّ .. فان المرء لا يستطيع مع رينغولد ان يتكلم الا عن السينا !
فأكد باتيستا ذلك راضياً :

— هذا صحيح .
ثم أخذ اميلي من اعلى ذراعها ، فيما تحت الإبطن ، وهو يقول :
— هيا ياسا سيدتي الجميلة ، لا تكوني خبيثة .. إنني أعيدك ان
أسير ببطء !
ورمتني اميلي بنظرة لم اعرف لحظتها كيف أصفها ، ثم أجابتي
بهدهوء :

— ما دمت راغباً في ذلك ... هيا ، في الطريق !
وتركت لباتيستا ان يقودها من ذراعها ، كما لو انه كان يخشى ان
تفرّ . وظللت متردداً امام سيارتي وانا ارى بانيسا واميلي يبتعدان .
وكانت تمشي الى قربه ، وهو ربع أقصر منها ، بخطوة لامبالية ومشية
عابسة كان يبدو انها تكشف مع ذلك شهوانية كثيفة وغريبة . لقد بدت
لي فجأة جميلة جداً ؛ لا على انها « السيدة الجميلة » البورجوازية

التي كان يوحى بها باتيستا بصوته المعدنيّ النافذ الصبر ، بل على أنها جميلة جلالاً صادراً من اعماق العصور ، ومنسجماً مع البحر المتلألئ والسما المشعة التي كانت قامتها الطويلة تقف دونها . وقد كان لهذا الجلال تعبير مقهور قلق لم اكن أعرف لإلام أعزوه . وفيما كنت اتأملها عبرت ذهني فكرة مفاجئة : « كم انت سخيّف ! ربما كانت تريد ان تبقى معك وحدها ، ربما كانت راغبة في التحدث اليك ، في ان توضح موقفها مرة والى الابد ، في ان تسرّ اليك بشجونها ... ربما كانت تريد ان تقول لك إنها تحبك ... وها أنت تجبرها على ان تذهب مع باتيستا ! » وأحسست بحسرة مريرة ورفعت ذراعي كما لأناديا . ولكن الاوان كان قد فات ، اذ انها قد صعدت الى سيارة باتيستا . وكان هذا قد اتخذ مكانه بدوره ، وكان رينغولد يتجه نحوي . واستقلنا كلانا سيارتي . وفي اللحظة ذاتها ، تجاوزتنا سيارة باتيستا ، وصغرت تحت انظارنا ثم اختفت في البعيد .

ولاشك ان رينغولد قد لاحظ تعكر مزاجي العنيف ، ذلك انه بدلاً من ان يستأنف حديثه عن الاوديسة ، كما كنت أخشى ، خفض قبعته على عينيه ، وتجمّع فوق مقعده ، وما لبث ان اغشى . وهكذا قدت في سكون ، دافعاً سرعة سيارتي المسكينة الى الحد الاقصى ، وكان تعكر مزاجي ، من جراء ذلك ، يزداد ويتفاقم . وكانت الطريق قد ابتعدت عن البحر ، وكانت تجتاز آنذاك ريفاً باذخاً تذهب به الشمس . ولو كنت في وضع آخر لوقعت تحت سحر تلك الاشجار الكثيفة التي كانت احياناً تشكل فوق رأسي قبة من الورق المخضوضر ، واشجار الزيتون تلك الرمادية المنتشرة على مدى النظر على الروابي الحمر ، وتلك الادغال من شجر البرتقال ذات الاوراق البراقة والمعتمة التي كان يشعّ خلالها ذهب الاثمار ، وتلك المزارع القديمة المسودة بالسنين التي كان يحرسها كومتان او ثلاث من التبن الاشقر !

ولكني لم اكن ارى شيئاً ، كنت اقود السيارة فيزداد حنقي مع مرور الزمن . ولم اكن ألتمس تحديداً للسبب الذي كان يتجاوز بكل تأكيد مجرد الندم لأنني لم الح على الاحتفاظ باميلي قربي . والحق اني لو اردت ان احلل نفسي ، لما كان ذهني المعتكر بالعصية قادراً على ذلك. إن مزاجي المستاء الذي كان اشبه بتشنج عصبي لا يُقاوم ، ثم يخف تدريجياً وينقطع مخلفاً المريض في الانحطاط والألم ، بلغ أوجه فيما كنا نجتاز الحقول والغابات والسهول والجبال ، ثم خف وتلاشى نهائياً عند وصولنا الى نابولي . وكنا نهبط بسرعة من الروابي نحو البحر ، بين أشجار الصنوبر والماتوليا ، ونحو الخليج الازرق ، وكنت احسني مسترخياً واهناً ، أشبه برجل مصاب بالصرع حطمه روحاً وجسداً تشنح عنيف لا يحتمل المقاومة .

الفصل الثالث عشر

كانت مقصورة باتيستا ، كما علمنا لدى وصولنا الى كابري ، بعيدة عن وسط التجمع ، في زاوية خالية من زوايا الشاطئ ، مقابل شبه جزيرة « سورانتا » . وبعد ان رافقنا رينفولد الى الفندق ، سلكنا ، باتيستا واميلي وانا ، الطريق الضيق الذي يؤدي بنا الى المقصورة . وكان طريقنا يتبع اولاً زقاق التزهة المظلة الذي يستدير حول الجزيرة . وكان المغيب قريباً ، وكان اشخاص قليلون يمرون تحت ظل أشجار الغار المزهرة ، فوق الارض المبلطة ، بين جدران الحدائق الكثيرة . وهنا وهناك ، بين اشجار الصنوبر والخرنوب ، كان يُلمح البحر البعيد في ازرقاق قاسٍ . كانت تضربه الاشعاعات المتألثة الباردة للشمس الغاربة . وكنت امشي خلف باتيستا واميلي ، وانا اتوقف بين الفينة والفينة لأتأمل جمال الطبيعة . وللمرة الاولى منذ وقت طويل كنت احسني سعيداً ، او على الاقل هادئاً مرتاح النفس ، وهذا ما ادهشني . وعبرنا درب التزهة بطوله ، ثم دلفنا الى ممر اضيق . وفجأة ، برزت لنا عند احد المنعطفات صخور « الفارغليونى » العالية ، وسرني ان اسمع اميلي ترسل صيحة انشدها واعجاب . وكانت تلك هي المرة الاولى التي تقصد فيها كابري ، ولم تكن حتى ذلك الحين قد فتحت فيها . وكانت الصخور

الكبيرة الحمراء تسحر النظر بغرابتها وشبهها ، وهي على سطح البحر ، برُجْم ساقطة من السماء على مرآة . ورويت لأمي ، وانا مبهور بهذا المنظر ، ان المرء يجد على صحور « الفارغليوني » نوعاً من الحرذون غير موجود في اي مكان آخر : حرذون ازرق اللون لشدة ما عاش بين لأزورد السماء وزرقة البحر . وقد اصغت لي باهتمام كما لو انها نسيت لمدة لحظة شعورها العذائي نحوي . ولم يسعني انا الا ان اداعب املاً جديداً بالمصالحة . وفي ذهني ، كان هذا الحرذون الازرق الذي كنت اصفه قابعاً في شقوق الصخور ، يصبح رمزاً لما يمكن ان نكونه نحن انفسنا اذا كنا سنبقى طويلاً في هذه الجزيرة : ان روحنا ستلبس اللازورد ، في هدوء هذا المكوث البحري ، بعد ان تكون قد اغتسلت رويداً رويداً من سواد افكارنا المدنية الحزينة ، فتشع بلازورد داخلي ، على صورة هذه الحرادين ، وعلى صورة البحر والسماء وكل ما هو نورٌ وصفاء وفرح .

ومضى الممر ، فيما بعد الفارغليوني ، متعرجاً بمحاذاة المنحدرات الجرداء الخالية من السكان والحدائق . وبدا لنا اخيراً ، في ركن منزل ، بناء طويل منخفض يمدّ سطوحته الكبيرة فوق مياه البحر : مقصورة باتيستا .

لم يكن البيت واسعاً : فانه بالاضافة الى غرفة الجلوس التي كانت منفتحة على السطحة ، لم يكن ثمة الا ثلاث غرف اخرى . وكان باتيستا يتقدمنا ، وهو يقوم بدوره كمالك ، فشرح لنا ببعض المباهاة انه لم يسبق له قط ان عاش في هذه المقصورة التي كان يمتلكها منذ عام تقريباً ، والتي تحلّى له عنها احد مدينيه كجزء من دينه . واخبرنا ان كل شيء كان ملحوظاً بالنسبة لوصولنا : فهناك زهور في آنية الصالون ، والبلاط عاد يلعب من جديد فكانت تنبعث منه رائحة شمع قوية ، وحين اقتربنا من المطبخ ، كانت هناك امرأة الحارس مشغلة في الفرن ، وهي تعدّ

لنا العشاء . وكان يبدو على باتيستا أنه مهمّ بأن يرينا كل تسهيلات المقصورة ، وقد اراد ان نزورها بكل تفاصيلها ، ودفع لطفه الى حد فتح الخزائن ، وهو يسأل اميلي ان كان ثمة مشاجب كافية . ثم عدنا الى الصالون . وتمحججت اميلي بأنها كانت تريد ان تغير ثيابها ، وخرجت . ووددت ان أحذو حذوها ، ولكن باتيستا منعتني من ذلك وهو يجلس في أريكة ويطلب مني ان افعل مثله . واشعل سيجارة ، وقال لي بشكل غير منتظر ، وبلا مقدمات :

— قل لي ، يا موليتيني ، ما هو رأيك برينغولد ؟

فأجبت وقد فوجئت بعض الشيء :

— لا ادري ... انني لا اعرفه معرفة كافية لاصدار حكم عليه ... ولكن شعوري هو انه انسان رصين جداً ... واعتبره مخرجاً ممتازاً ... وفكر باتيستا لحظة ، ثم قال :

— اسمع يا موليتيني ، انا ايضاً اعرفه قليلاً ، ولكني اعرف ماذا يفكر وماذا يريد ... انه قبل كل شيء الماني ! ونحن ، كلانا ، على العكس ايطاليان : وهذان عالمان ، مفهومان للحياة ، حساسيتان ! فلم اقل شيئاً ؛ كان باتيستا ، على عادته ، يتناول الامور من بعيد خارج كل مسألة مادية ، وكنت انتظر لأرى ما هي غايته . واستطرد يقول :

— ولئن اردت ان اضحك انت ، الايطالي ، بجانب رينغولد ، فذلك لأنني أحسه مختلفاً عنا كل الاختلاف ... ان لي ملء الثقة بك ، يا موليتيني ، وقيل ان اذهب ، لان عليّ من سوء الحظ ان اذهب بأسرع ما استطيع ، فاني حريص على ان اقدم لك بعض التوصيات . فقلت ببرودة :

— انني مصغٍ اليك .

— لقد لاحظت رينغولد في اثناء مناقشتنا للفيلم : فأما ان يعطيني

الحق ، او ان بصمت ... ولكني قد جربت البشر اكثر مما ينبغي لكي
اؤمن بمثل هذا الوضع ؛ انكم ، انتم المثقفين يا مولتيني ، انكم جميعاً ،
بلا استثناء ، تفكرون بأن المنتجين ليسوا الا رجال اعمال ، ولا شيء
غير ذلك ... لا تعطيني تأكيداً لذلك ، يا مولتيني ، فهذا هو رأيك ،
وهو كذلك رأي رينغولد .. والحال ان هذا صحيح الى حد ما ..
وربما كان رينغولد يفكر بانامتي بسلوكه السلبي ، ولكن عيني مفتوحتان
على سعتها ، يا مولتيني ، على سعتها !
فقلت بلهجة جافة :

– هل يعني هذا اجالاً انك غير واثق برينغولد ؟
– انا واثق وغير واثق ... انني اثق به كتكنيكي ، كرجل مهنة ..
ولكني لا اثق به كألماني ينتمي الى عالم مختلف عن عالمنا ..
ووضع باتيستا سيجارته على المنفضة ونظر في عيني ، ثم تابع :
– ليكن مفهومياً يا مولتيني اني اريد فيلماً قريباً الى ابعد حد ممكن
من اوديسة هوميروس . أية فكرة قادت هوميروس في الاوديسة ؟ لقد
اراد ان يروي مغامرات تملك على القارئ دائماً انفاسه ، قصة ، لتقل
مسرحية ... هذا ما اراد هوميروس ان يصنعه .. وانا اريد ان تظلالاً
امينين على هذا المفهوم .. ان هوميروس يصور لنا في الاوديسة عمالقة
وعواصف وسحرة وشياطين ، وأنا اريد ان تطوروا لنا عمالقة وعواصف
وسحرة وشياطين ...

فقلت له وانا شبه مشدوه :

– ولكننا سنريك ذلك ...

فردد باتيستا بحماسة مفاجئة :

– سنريك ذلك ... سنريك ذلك ... ربما كتبنا تعتبراني أبله ،

يا مولتيني ، ولكنني لست بالأبلة ...

وكان قد رفع صوته ، وجعل يحدجني بنظرة يتطاير منها الشرر .

وقد ادهشني نفاذ الصبر هذا المفاجيء ، وادهشتني اكثر من ذلك حيوية باتيستا الذي كان قد قاد سيارته طوال النهار ، وعبر الطريق من نابولي الى كابري ، وكان ما يزال راغباً في مناقشة نوايا رينغولد ، بدلاً من ان يرتاح كما كنت افعل لو كنت مكانه . وقلت برخاوة :

— ما الذي يجعلك تفكر بأنني ... اعتبرك أبله ؟

— موقفكما أنت ورينغولد .

— أفصح .

وتناول باتيستا سيجارته ، وقد عاوده بعض المدوء ، ثم أضاف :

— انك تذكر اليوم الذي لقيت فيه رينغولد للمرة الاولى في مكثي ...

لقد قلت لي يومذاك ، انك لا تشعر بأنك قادر على ان تعمل فيلماً « مسرحياً » ، أليس كذلك ؟

— نعم ، يبدو لي ذلك .

— وماذا قال لك رينغولد ليردّ لك اطمئنانك ؟

— لا اذكر هذا جيداً .

— انني سأرطب لك ذاكرتك ... لقد قال لك رينغولد انه ينبغي الا

تعذب نفسك ، لانه كان ينوي القيام بفيلم ببيكولوجي ، فيلم عن الحياة الزوجية ليوليسوس وبينلوب ، أليس كذلك ؟

فزادت دهشتي : لقد كان باتيستا ، تحت قناعه الوحشي ذاك ،

أرقّ مما كنت اظنّ ، وأجبت :

— نعم ، اظن انه قال لي شيئاً من هذا القبيل ...

— حسناً ، ما دام السيناريو لم يبدأ بعد ، ولم يفعل شيء بعد ،

فن المستحسن ان احذر بك كل جدية . ان الاوديسة في رأبي هي شيء آخر غير الصعوبات الزوجية ليوليسوس وبينلوب .

وصمت ، ثم استطرد باتيستا بعد توقف قصير :

— حين اريد ان اعمل فيلماً عن الحياة الحميمة بين زوج وزوجته ،

أخذ رواية عصرية ، وانا لا أترك روما ، بل أخذ الفيلم بين غرف النوم والاستقبال ، ولا اذهب لأزعج هوميروس والاولديسة ... هل اركت قصدي ، يا موليتيني ؟

— نعم ، نعم ، فهمت .

— ان العلاقات بين الزوج والزوجة لا تهمني ، لو تعلم ، يا موليتيني ! والاولديسة ، في نظري ، هي قصة مغامرات يوليسوس خلال رحلة العودة الى ايتاك ، والفيلم الذي اريده هو فيلم مغامرات يوليسوس ... اقول لك ذلك بوضوح حتى لا يبقى ثمة اي شك ممكن ؛ انني اريد فيلماً مسرحياً ، مسرحياً ، هل تسمع ، يا موليتيني ؟

فقلت مترعجاً بعض الشيء :

— حسناً ، ستحصل على فيلم مسرحي .

ورمي باتيستا سيكارته وتابع بلهجة عادية :

— ان لي حساباً ، في آخر المطاف ... فأنا الذي يدفع .. وافهم يا موليتيني اني حدثتك على هذا النحو لاني لا اتجنب كل التباس . انك ستبدأ العمل صباح الغد ، وقد اردت ان انبهك في الوقت المناسب ، لمصلحتك الخاصة . ان لي ثقة بك ، واريدك ان تكون ترجاني بالقرب من رينغولد . يجب ان تذكره ، كلما وجدت ذلك ضرورياً ، بأن الناس اذا كانوا قد احبوا الاولديسة ولا يزالون يحبونها ، فذلك بسبب الشاعرية التي تتضمنها ... وانا حريص على ان تنقل هذه الشاعرية كلها الى فيلمي ، كلها ، كما هي ...

وفهمت ان باتيستا قد استرد هدوءه كلياً ، فهو في الواقع لم يكن يتحدث بعد عن الفيلم المسرحي الذي كان يطلبه منا ، بل عن الشاعرية . واذن ، فقد عدنا ، بعد جولة قصيرة في اقية النجاح المالي ، الى مناطق الفن والفكر . وقلت ببسمة مغتصبة :

— لا يساورك اي خوف يا باتيستا... ستحصل على شاعرية هوميروس

كلها ... على الاقل الشاعرية التي نستطيع ان نعر عليها عنده .

— حسناً ... حسناً ... لا نتكلم بعد بهذا .

ونفض باتيستا وهو يتمطى ، ونظر الى ساعته في معصمه ، واعلن فجأة انه ذاهبٌ ليستعد للعشاء ثم خرج .

وظللت وحدي . وكنت قبل ذلك بلحظة افكر اننا ايضاً في ان انسحب الى غرفتي لأعدّ نفسي قبل العشاء . ولكن النقاش الذي قام بيننا كان قد أهجاني وشردني ؛ ورحت اخرج الغرقة جيئة وذهاباً ، بآلية . كانت كلمات باتيستا قد جعلتني أحسّ ، للمرة الاولى ، بصعوبة هذا العمل الذي كنت قد قبلته بشيء من الخفة ، اذ لم أر فيه الا الحسنات المادية ؛ وكان يحيل لي الآن اني استشعر مسبقاً التعب والضجر اللذين لا يمكن الا ان احس بهما حين ينتهي السيناريو . وفكرت : « لماذا هذا كله ؟ لماذا ألزم نفسي بهذا العمل المزعج ، وبالمناقشات التي لا مفر منها بيني وبين باتيستا ، من غير ان اتحدث عن المناقشات التي ستقوم بيني وبين رينغولد، والتسيريات التي ستنشأ عن ذلك بالضرورة، والمرارة التي سأحسها حين اضع توقيعي في اسفل عمل مصطنع ومأجور... لماذا هذا كله ؟ »

واذن ، فهذه الاقامة في كابري التي كانت قد بدت لي مليئة بالسحر حين كنت أتأمل صحخور الفاراغليون من أعلى المر ، كانت تبدو لي الآن وهي مطبوعة بضجر مهمة عاقبة مشكوك فيها : هي مهمة التوفيق بين متطلباتي ككاتب شريف ومتطلبات المنتج المختلفة كل الاختلاف . ومرة اخرى ، وبشكل واضح كل الوضوح ، كنت احس بأن باتيستا كان المستخدم ، وكنت انا المستخدم ، وان الخادم يستطيع ان يفعل كل شيء ، باستثناء عصيان معلمه ، وان الدهاء والتبجيل اللذين يحاول بهما ان يتجنب سلطة سيده هما اشد اذلالاً من الطاعة الكاملة ، واني اذ اوقع عقدي بالاجمال ، اكون قد بعثت روحي لشيطان اكثر تطلباً من

جميع الشياطين . وكان باتيستا قد اوماً الى ذلك في اندفاع من صراحة
واخلاص حين قال : « انا الذي أدفع ! » ولم أكن بالتأكيد في حاجة الى
مثل هذا الاخلاص لأقول لنفسي : « وانا الذي يُدفع له ! » لقد كانت
هذه العبارة ترنّ في اذني كلما فكرت بالسنايو . وفجأة، اوحى لي هذه
الافكار شعوراً بالاختناق ، وراودتني الرغبة في ان اتنفس هواء مختلفاً
عن الذي كان يتنفسه باتيستا .
وقصدت الباب — النافذة ، ففتحته ، وخرجت الى السطحة .

الفصل الرابع عشر

كان الليل هابطاً ، وكانت السطحة مضاءة بالضوء اللامباشر الذي كان القمر غير الظاهر يرسله في السماء كثيفاً . ومن السطحة ، كان سلّم صغير يؤدي الى الطريق الذي يحيط بالجزيرة . وترددت لحظة في هبوط هذا السلم لأذهب في نزهة ، ولكن الوقت كان متأخراً ، وكان الطريق مظلماً . وعزمت على ان ابقى على السطحة ، فارتفعت الحاجز واشعلت سيجارة .

وفوقى ، كانت صخور الجزيرة ترسم أشكالها السوداء الحادة على السماء المتلألئة . وكان الصمت عميقاً ، فلم اكن اسمع اذ ارهف اذني الا وشوشة الموج الذي يتصاعد من الشاطئ ويلهب فيرتمي بين الفينة والفينة على صخور الحصباء ، ثم ينسحب . والحق ان ذلك قد لا يكون الا وهماً ، ولم يكن ثمة الا تنفس البحر الهاديء الذي كان يفتح ويتمدد وفق المدّ والجزر . وكان الهواء جامداً ، من غير نسمة ريح ، وكان بوسعي وانا ارفع عيني نحو الافق ان المح في البعيد ، على القارة ، الضوء الصغير الابيض لمنازة كامبانيا التي كانت تدور بلا كلل ، مضاءة تارة ، منطفئة تارة اخرى ، وكان هذا الضوء الذي لا يكاد يرى في الليل الهائل هو العلامة الوحيدة للحياة المحسوسة .

وسرعان ما هدّاني هذا الليل الهاديء الى هذا الحدّ ، ولكنني كنت أشدّ تبصراً من ان يغيب عني ان جميع ألوان الجمال في العالم لم تكن تستطيع ان توقف مجرى همومي ومشاغلي الا فترة قصيرة . والواقع ان فكري ، بعد ان بقيت مدة طويلة في الظلام ، جامداً والعقل مني فارغ ، عاد بالرغم عنه الى فكرته الطاغية ، فكرة اميلي ؛ وربما استوحيت حديثي باتيستا ورينغولد وهذا المشهد الموحى من فصول الملحمة الهوميروسية ، لأجمع جمعاً غامضاً فكرة اميلي الى فكرته سناريو الاوديسة .

وانبثقت في ذهني فجأة ، لا ادري من اين ، ذكرى مقطوع من آخر نشيد في الاوديسة يصف فيه يوليسوس ، ليثبت هويته ، سرير الزواج . واذاك تعرف بينيلوب زوجها ، فيمتقع لونها ويغمى عليها نصف إغماء ، وترتمي اخيراً على عنقه وهي تبكي وتقول له هذه الكلمات التي كتبت احفظها عن ظهر قلب لشدة ما قرأتها وردتها بيني وبين نفسي :

آه ! لا تغضب مني يا يوليسوس .
انت الذي ظهرت دائماً وفي جميع الظروف
أعقل الناس . إن الآلهة قد حكمت
علينا بالشقاء ، وهي لم تُرد ابداً
ان نستطيع جنياً الى جنب ان نتمتع
بسنواتنا الخضراء المزهرة
وان يرى احدنا ، مع الزمن ، رويداً رويداً
شعر الآخر يبيض

ومن سوء الحظ اني لم اكن اعرف اليونانية ، ولكنني كنت احس ان ترجمة « باندمونت » لم تكن امينة ، لانها لم تكن تنقل اي شيء من الجمال الطبيعي للنص الاصلي . على ان هذه الابيات ، حتى في تعبيرها المفخّم ، كانت تروق لي كثيراً بسبب العاطفة التي تشف عنها .

وكان قد حدث لي وانا اقرأها ان قارنتها بأبيات بترارك في القصيدة
المعروفة التي تبدأ هكذا :

لقد أرانا الحب مرفاً هادئاً

وتنتهي بالثلاثية :

ولاشك في انها كانت ستجيني
وهي تتهد بعض الكلام المقدس
بوجهينا المتغيرين كشعرها وشعري

ان ما استوقفتني آنذاك ، لدى هوميروس وبترارك ، هو الشعور
بحب ثابت غير قابل للهضم ، حب لا يستطيع شيء ان يزعه او
يضعفه ، حتى ولا الزمن . لماذا كانت تلك الأشعار تعاود ذاكرتي في
تلك اللحظة بالذات ؟ وادركت ان هذه الذكرى قد استيقظت لدى
التفكير بعلاقتي مع اميلي ، تلك العلاقات المختلفة كل الاختلاف عن
التي كانت تشدّ يوليسوس وبينيلوب ، وبترارك ولور ، عن العلاقات
التي بدأ تزعرعها ، لا بعد وحدة طويلة دامت عشرات السنين ، بل
بعد بضعة اشهر ، والتي لم تكن تستطيع ان تسمح لنا بالركون الى
المنظور المعزّي بحياة تنتهي ببقاء الحب لدى اثنين ، كما كانا عاشقين
منذ اليوم الاول ، بالرغم من « تغير وجوهنا وشعرنا » . غير اني
كنت قد تمنيت كثيراً ان تبرّر حياتنا الزوجية أمل مستقبل مماثل ،
وكنت اظنّ تائها مذعوراً امام الانفصام الذي لم اكن افهمه والذي كان
يحول دون تحقق حلمي . لماذا ؟ وكما لو اني كنت التمس جواباً على
سؤالي في هذه المقصورة التي كانت زوجتي موجودة فيها ، أوليت
البحر ظهري لانظر الى النوافذ .

وكان بإمكانني ان ارى ، من زاوية السطیحة التي كنت جالساً فيها ،
ما كان يجري في الصلاة ، من غير ان أرى . واذا رفعت نظري ،

رأيت ان باتيستا واميلي كانا كلاهما في غرفة الجلوس . وكانت اميلي التي ترتدي الثوب الاسود العاري الظهر نفسه الذي كانت ترتديه يوم لقائنا الاول بباتيستا ، واقفة قرب بار صغير متحرك ، وكان باتيستا منحنيًا فوق البار يُعدّ مشروباً كحولياً في قلدح كبير من البلور . وادهشني ان اجد لدى اميلي تعبيراً غير طبيعي ، هو مريج من اللامبالاة والانزعاج ، وكان يتمّ عن الضيق والاغراء . كانت واقفة بانتظار ان يمدّ لها باتيستا قلدحاً ، وكانت تنظر فيما حولها نظرة مترددة كنت اكتشف فيها آثار قلق معتكر . وبعد ان أنهى باتيستا مزيجيه ، ملأ قلدحين في عناية واستقام ليقدم لاميلي احدهما . واصيبت هي برعشة ، كما لو انها كانت تستيقظ من شرود عميق ، وقدمت يدها . وتوقفت عيني عليها ، متصببة امام باتيستا ، متراجعة قليلاً الى الوراء ، ويدها مرفوعة تحمل قلدحها ، والاخرى معتمدة على ظهر اريكة ؛ ولم استطع الامتناع عن التفكير بأنها كانت تبدو وكأنها تهب نفسها بكل جسمها ، مادةً نهديها وبطنها تحت القماش اللهاج الذي كان يقولب اجزاء جسمها . على ان شيئاً من هذه الاعطية لم يكن يبدو على وجهها الذي كان على العكس يحتفظ بتعبيره الملتبس . واخيراً ، قالت شيئاً ما وهي تدير رأسها نحو داخل الصالة حيث كانت بضع ارائك مصفوفة قرب المدخنة ، ثم اتجهت نحو تلك الناحية في تحفظ ، حتى لا تدلسق كأسها . واذذاك حصل ما كنت اتوقعه في اعماقي :

فقد لحق بها باتيستا الى وسط القاعة ، فأحاط قامتها بذراعه ، وادنى وجهه من وجهها . وسرعان ما احتجّت ، بلا قسوة ، ولكن بحيوية مبتهلة ، وربما كانت متدلّلة ، وهي توميء بعينها الى القلدح الذي كان بين اصابعها .

وأخذ باتيستا يضحك ، وهز رأسه ثم جذبها جذبة مفاجئة ، حتى

ان المشروب انقلب كما كانت تخشى . وفكرت : « سيقبلها الآن في
فها ، ... ولكني لم اكن احسب حساب شخصية باتيستا ووحشيته .
وبالفعل ، فانه لم يقبل اميلي ، بل قبض على ثوبها من العنق ، عند
الكتف ، فلوى القماش بعنف غريب قاس ، وجذبها كاشفاً الكتف
العارية . وعند ذلك مال رأس باتيستا ليطلع على الكتف شفّيته . وظلت
هي مستقيمة جامدة ، كما لو انها كانت تنتظر في صبر ان تنتهي
حركة الرجل . ولكن أتيج لي ان ارى ان وجهها وعينيها كانت تحتفظ
أنداك بتعبيرها المتلملل المضطرب . ثم نظرت ناحية النافذة ، وشعرت
بأن عيوننا تلتقي ؛ وقامت بحركة غاضبة ، وامسكت بيدها بروتيل
ثوبها المتزوع ، وغادرت القاعة على عجل . وبدوري دلفت في العتمة .
احسست فوق كل شيء بالاضطراب والذهول ، باعتبار ان ما رأيته
بدا لي متناقضاً تناقضاً فاضحاً مع ما كنت اعرفه وما ظننته حتى ذلك
الحين . إن اميلي التي لم تكن تخيبي بعد ، وكانت حسب عباراتها
بالذات تحتقري ، كانت تخونني اذن مع باتيستا . لقد انقلب الوضع
اذن ما بيننا : فبينما كنت متتهماً بغموض ، اوشك ان اصبح متتهماً ؛
بعد ان رأيتني محترماً بلا داع ، اصبح يمكنني الآن ان أحتقر بحق .
واصبح سر مسلك اميلي تجاهي يتلخص كله بواحدة من الدسائس
الغرامية الاشد شبيوعاً . ولعل تلقائية هذه الافكار المنطقية الموجزة التي
أملتها الانانية اكثر من اي شيء آخر ، منعتني في التو من الشعور بأي إحساس
لاكتشاف خيانة اميلي (او ما بدا لي انه خيانة) ولكني اذ كنت
اقرب مترخماً من حاجز السطحية ، غصّ قلبي بألم مفاجيء ، فتأكدت
من ان ما كنت قد رأيته لا يمكن ان يكون الحقيقة . إن اميلي استسلمت
طبعاً لقبلة باتيستا ، ولكن هذا لا يعني اني لم اكن ايضاً آتماً ، ولم
اكن امالك من جراء ذلك الحق بان احتقرها بدوري . بل لقد كان

يبدو لي ، من غير ان استطيع تفسير ذلك ، انها بالرغم من تلك القبلة كانت تحتفظ بذلك الحق تجاهي . كنت في الحقيقة على خطأ : انها لم تكن خائنة ، او ان خيانتها على الاقل لم تكن الا ظاهرية ، وكانت الحقيقة المتعلقة بمسلكها بحاجة بعدُ الى جلاء ، من غير الاهتمام بالمظاهر .

وتذكرت انها كانت قد اظهرت تجاه باتيستا نفوراً شديداً لم اكن افهم تفسيراً له ؛ وفي ذلك الصباح بالذات كانت قد رجعتي مرتين ألاّ أدعها تسافر وحدها مع المنتج . فكيف كان يمكن لمثل هذا الموقف ان ينسجم مع تلك القبلة ؟ إن بما لا شك فيه انه لم يكن لذلك الحادث من سوابق ؛ وعلى الأرجح كان باتيستا قد عرف ان ينتهز الفرصة الملائمة التي لم تتح له من قبل هذا المساء . واذن ، فان شيئاً لم يضعه ؛ كان ما يزال بإمكانني ان اعرف لماذا سمحت له اميلي بان يقبلها ، ولماذا خصوصاً كنت احسن في غموض بأن شيئاً ما بيننا لم يتغير ، بالرغم من هذه القبلة ، وانها كانت تحتفظ كالسابق بحقها في ان تحرمني من حبها وان تحتقرني .

قد يقال ان اللحظة لم تكن مناسبة قط لمثل هذه الافكار ، وان حركتي الاولى والفريدة كان ينبغي ان تكون اقتحامي الصالة لكي افاجيء العاشقين ؛ ولكني كنت قد اعتدت منذ وقت اطول مما ينبغي على التفكير بسلوك اميلي تجاهي بحيث لم يكن ممكناً ان الجأ الى مثل ذلك الانفجار المفاجيء الساذج . ثم إن ما كان يشغلي من جهة اخرى كان لقاء الضوء على خلافنا الصميمي اكثر من تخطيط اميلي . فلئن برزت فجأة في الصالة ، فاني كنت احرم نفسي نهائياً امكانية معرفة الحقيقة وامكانية اكتساب اميلي من جديد . كان يجب عليّ ، بعكس ذلك ، ان اتصرف بكل الحكمة والاحتراس اللذين كانت تتطلبها ظروف دقيقة وخفية المعنى .

واوقفتني فكرة اخرى امام عتبة غرفة الجلوس ، وهي فكرة اكثر انانية : كنت املك الآن سيباً وجيهاً للتخلي عن كتابة سناريو الاوديسة ، وترك ذلك العمل الذي لم يكن يروق لي والعودة الى مسرحي العزيز . وكانت هذه الفكرة تملك ميزةً انها تخدمننا نحن الثلاثة ، انا وباتيسا واميلي . فالواقع ان تلك القبلة كانت تسجل ذروة الالتباس الذي كانت حياتي تتخبط فيه ، سواء من حيث الحياة الزوجية او المهنة . وقد كانت لدي اخيراً امكانية توضيح هذا الالتباس مرة الى الابد . ولكن كان ينبغي لي ان اتصرف بلا عجلة ، ومن غير ان اثير فضيحة ، وبصبر .

كل ذلك خطر بذهني سريعاً ، مشوشاً كدوامه ربح تقتحم غرفة فتحت نافذتها على حين غرة ، وهي تحمل ورقاً وغباراً ونفايات من كل نوع . وكما تسرد الغرفة صمتها وهدوءها ما ان تغلق النافذة ، كذلك فرغ ذهني وصمت دفعة واحدة ووجدتني ، متلاشياً ، عيناى ضائعتان في الليل ، لا حسّ عندي ولا افكار . وفي ذلك الحسدر الروحي توجهت ، من غير ان أحسّ تقريباً الى الباب — النافذة ففتحته ودخلت غرفة الجلوس . كم من الوقت كنت قد بقيت على السطیحة بعد ان فاجأت باتيسا واميلي ؟ اطول مما كنت اظن بلا شك ، لاني وجدتها كليها جالسين الى المائدة وقد بلغا منتصف الطعام . ولاحظت ان اميلي كانت قد نزعت الثوب الذي كان باتيسا قد مزقه وارتدت الثوب الذي كانت تلبسه في اثناء الرحلة . ولا ادري لماذا اثار هذا التفصيل اضطراباً عميقاً لدي ، كما لو انه تأكيد بليغ وقاس لخيانتها .

وقال باتيسا في جذل :

— كنا نظن انك قد ذهبت تأخذ حماماً ... فأين كنت بحق الشيطان ؟

فأجبت بصوت خافت :

— كنت هنا ، في الخارج .

ورأيت اميلي ترفع عينيها نحوي ، فتنظر اليّ لحظة ، ثم تنخفض عينيها ، فجاءني اليقين بانها كانت قد رأني على السطّيحة ، فيما كنت أرصدهما ، وانها لم تكن تجهل اني كنت أعرف انها قد رأني .

الفصل الخامس عشر

في اثناء العشاء ، ظلت اميلي صامئة ، بلا ادنى ارتباك ظاهر ، وهذا ما ادهشني ، لاني كنت اعتقد انها لا بد ان تكون مضطربة ، وكنت قد ظننتها حتى ذلك الحين غير قادرة على اخفاء ما يعتلج في داخلها . اما بانيستا فلم يكن على العكس ، ليخفي مزاجه المرح المنتصر ، ولم يكف عن التحدث فيما هو يأكل بشهية كبيرة ويشرب ، ربما اكثر من المعقول . وعمّ تحدث ذلك المساء ؟ عن كثير من الاشياء ، ولكن خصوصاً عن نفسه ، مباشرة او غير مباشرة . كانت « الأنا » تعود عودة هجومية على شفتيه بكثرة اثار غيظي ؛ ولم اكن اقل انزعاجاً من طريقته في اللجوء الى ادنى الحجج والاعذار ليعود بلا انقطاع الى شخصه الخاص . وكنت ارى جيداً ان هذا التلذذ نحو نفسه كان معزواً الى رغبة رجولية في ان يمجّد نفسه بعيني اميلي وربما في ان يخفضني اكثر مما كان معزواً الى الغرور ؛ كان مقتنعاً بأنه قد انتصر على اميلي فكان يتلذذ تلذذاً طبيعياً في ان يتطاوس ، مزيناً نفسه باكثر الريش التامعاً تجاه المرأة المهزومة . والحق انه ينبغي الاعتراف بان بانيستا لم يكن ابله ، وانه فيما هو ينشر غروره الرجولي ، كان يظل ثابت القدمين على الارض وكان يقول اغلب الاحيان اشياء هامة . مثال ذلك

حين روى لنا ، في نهاية العشاء ، رحلته الاخيرة الى الولايات المتحدة
وزيارته لاستوديوهات هوليوود بلهجة جذابة ، ولكن كذلك بوثوق في
الحكم كبير . ولكن لهجته هنا ايضاً بدت لي غير محتملة ؛ وكنت
أتصور ، بشيء من السذاجة ، ان هذه اللهجة لا بد ان تبدو كذلك
لاميلي التي كنت أصراً على ان انسب اليها العواطف نفسها تجاهه ، بالرغم
مما كنت اعرفه وما رأيته .

ولكني كنت مخطئاً مرة اخرى . ان اميلي لم تكن تنفر من باتيستا،
بل على العكس ؛ ففيما كان يتكلم ، حسبتني اكثر من مرة افاجيء في
عينها نظرة إن لم تكن مسحورة ، فهي على الاقل مهتمة بصورة
جدية ، وهي في بعض اللحظات ، محملة بتقدير معجب . وقد كانت
تلك النظرة بالنسبة لي اشد ازعاجاً واكثر مرارة من غرور باتيستا
المتباهي ؛ وقد ذكرتي بنظرة اخرى لم اكن استطيع ان اذكر اين
ومتى كنت قد لاحظتها : كانت تقريباً النظرة نفسها التي رأيتها في عيني
المخرج « بازيي » يوم تناولت الغداء في منزله . كان بازيي المتعق
التافه يتحدث وزوجته تتأمله بعينين نشوانتين كان يبين فيهما الحب
والخضوع والاعجاب والاخلاص . وبالطبع ، لم تكن اميلي قد وصلت
الى هذا الحد مع باتيستا ، ولكن كان يخيل اليّ اني بدأت اكتشف
في نظرتها ظل المشاعر التي كانت السيدة بازيي تغذيها نحو زوجها .
كان باتيستا على حق في ان يتباهى ، فقد كانت اميلي تصف مسحورة ،
ولن تلبث طويلاً حتى تصبح مسحورة تماماً ، بشكل لا يُفسر

وعند هذه الفكرة ، اخترق قلبي ألمٌ حاد ، اقوى من ذلك الذي
كنت قد عانيته حين رأيته يقبلها . ولا بد ان وجهي قد أظلم ، ولا شك
في ان باتيستا قد لاحظ هذا التغير لانه ، بعد ان قدفني بنظرة متفحصة ،
سألني قائلاً :

— ماذا رأيت يا موليتيني ؟ الست مسروراً بان تكون في كابري ؟

هل هناك ما لا يروق لك ؟

— لماذا ؟

فأجاب وهو يصب الخمر :

— لآنك ... تبدو حزياً ، ذا مزاج معتكر ...

وهكذا كان يهاجم ، عارفاً جيداً ان هذه افضل طريقة للدفاع عن نفسه . وقد أجبت بسرعة فاجأتني :

— لقد جاءني هذا المزاج وانا انظر الى البحر من على السطیحة .

فرغ حاجیه متسانلاً ، ونظر اليّ من غير ان يريم :

— آه ! صحيح ؟ ولماذا ؟

ونظرت الى اميلي : هي ايضاً لم تكن مضطربة . لا بد انها كليهما واثقان من نفسيهما وثوقاً لا يصدّق . ومع ذلك ، فان اميلي كانت قد رأني بلا شك ، وقد ابغت ذلك الى باتيستا بالتأكيد . وقبل ان اتمكن من التفكير ، انبثقت من في هذه الكلمات :

— باتيستا ، هل يمكنني ان احدث اليك بكل صراحة ؟

وأعجبت به ان يظل على هدوئه :

— بكل صراحة ؟ ولكن طبعاً ! ان على المرء ان يكون صريحاً

دائماً !

قلت وانا انظر الى البحر :

— لقد تخيلت ذات لحظة اني هنا اعمل لحسابي الخاص ... وأنا

طموح ، كما تعلم ، الى الكتابة للمسرح ... واذن ، فقد كنت اعتقد اني في الزاوية المثالية التي تتيح لي ان اكرّس نفسي لعملي : جبال ، وصمت ، وصميمية مع زوجتي ، وليس ثمة من همّ ... ثم تذكرت ان عليّ في هذا الاطار الجميل الموحى — واعذرني ، فقد طلبت مني ان اكون صريحاً ... تذكرت ان عليّ ، بالعكس ، ان اقضي وقتي في كتابة سناريو سيكون بالتأكيد شيئاً جيداً ، ولكنه في حقيقة الامر

لا شأن له بي ... انني سأعطي افضل ما عندي الى رينغولد الذي سيستعمله بالشكل الذي يريده ، ثم ابقى في نهاية المطاف وفي يدي شك ... مع العلم بانني اكون قد اضعفت ثلاثة اشهر او اربعة من وقت اعتبره اثنان في حياتي واكثره طاقة على الخلق ... انا اعرف ان هناك اشياء لا تُقال ، لا لك ولا لأي منتج آخر ... ولكنك اردت ان اكون صريحاً ... انك تعرف الآن لماذا انا سيء المزاج .

لماذا تراني قد نطقت بهذه الكلمات بدلاً من تلك التي كانت تحرق لساني والتي كانت تخص باتيستا وزوجتي ؟ لم استطع ان افسر ذلك ؛ ربما كان بسبب من وهن اعصابي التي كانت متوترة اكثر مما ينبغي ؛ وربما لانني كنت اعتقد اني اعبر هكذا بطريقة غير مباشرة عن ياسي تجاه خيانة اميلي التي كنت احسها مرتبطة ارتباطاً خفياً بطبيعة عملي ، هذا العمل المرتق الذي كان يجعلني تابعاً لكل التبعية . ولكن باتيستا واميلي اللذين لم يتأثرا بمقدمتي المهسدة ، لم يُظهرا اي عزاء امام اعتراف الضعف البائس الذي تبع ذلك . وقد اجابني باتيستا في جد :

— ولكني واثق يا مولتيني انك ستكتب لنا سناريو جميلاً جداً !
لقد كنت اسلك بالتأكيد درباً سيئاً ، ولم يكن لي بعد الا ان اتابعه حتى النهاية ، ولذلك استطرقت مقتاناً :

— انني كاتب مسرح ، يا باتيستا ، لا سيناري محترف .. فهما بلغ هذا السناريو من الجمال والكمال ، فانه لن يكون بالنسبة لي ، واسمح لي ان اصارحك بذلك ، الا عملاً مصنوعاً لغاية ربح المال وحدها ... والحال ان من هو في السابعة والعشرين يملك عادة مثلاً أعلى ... ومثلي الأعلى هو ان اكتب للمسرح ... فلماذا لا استطيع ملاحقته ؟ لأن عالم اليوم مصنوع على نحو لا يمكن أحداً من اختيار الدرب الذي يريغه ، بل عليه بعكس ذلك أن يفعل ما يريده الآخرون ... لماذا يحفل المال مثل هذا المكان في ما نفعله ، وفي ما نلحن عليه ، وفي ما نريد ان

نصبه ، في مهنتنا ، وافضل امانينا وحتى في علاقاتنا بالذين نحبهم ؟
ولاحظت اني كنت منفعلاً ، وان عيني ، من شدة حماسي ، كانتا
قد امتلأتا بالدموع . وشعرت من ذلك بالحجل ، واحتقرت داخلياً
روحي العاطفية التي كانت تدفعني الى القيام بمثل هذه الاعترافات امام
الرجل الذي كان ، لدقائق خلت ، قد حاول بنجاح ان يغوي زوجتي .
ولكن ذلك لم يكن كافياً لجعل باتيستا يضطرب ، فقال :

– اتعرف يا باتيستا اني اذ اسمعك تتحدث على هذا النحو ، انما
احسب اني اسمع نفسي حين كنت في مثل سنك ؟
فتمتت مشدوهاً :

– أصحيح هذا ؟

فتابع باتيستا وهو يصب لنفسه خمرأ :

– نعم ... لقد كنت فقيراً جداً ، وكانت لي انا ايضاً مثل عليا ،
كما تقول ... فما كانت هذه المثل ؟ انني لا استطيع الآن ان اقولها
لك .. ولكن كانت لي مثل .. او بالاحرى لم يكن لي هذا المثال او
او ذاك ، بل كان لي المثال الاعلى بحرف « م » كبيرة ... ثم التقيت
رجلاً انا مدين له بالكثير ، إن لم يكن لشيء ، فلأنه على الأقل
علمني اموراً كثيرة ...

وتوقف باتيستا بهدوء وجلال ، فتذكرت ، على مضض مني تقريباً ،
ان الرجل الذي كان يعنيه بلا شك منتج من منتجي الافلام كان
منسياً في هذه اللحظة ، ولكنه كان مشهوراً في العهد الاول للسبينا
الايطالية ، وكان باتيستا قد بدأ تحت رعايته مهنته الناجحة ؛ رجل كان
يقال انه لم يكن لديه ما يُعجب ، رغم كل شيء ، الا طاقته على
جمع المال . وتابع باتيستا :

– وقد ألتقيت على هذا الرجل الخطاب نفسه الذي ألتقيته عليّ هذا
المساء ... اتعرف ما كان جوابه ؟ ما دام المرء لا يعرف تماماً ماذا

يريد ، فن الافضل ان ينسى المثل الأعلى ، ان يتركه جانبا .. ثم إن عليه ، بمجرد ان يضع قدمه على ارض صلبة ، ان يُخرج ذلك المثل من جديد ... إن الورقة الاولى من فئة الالف التي يكسبها : هذا هو المثل .. وفيما بعد ، ينمو ويتطور ، فيصبح بالنسبة لنا ستوديو ومسرحاً وافلاماً ، يصبح عملنا اليومي بالاجال ... هكذا ما قاله لي ... وقد تبعت نصيحته ووجدتني من ذلك في خير ... وانت يا موليتني تملك امتيازاً كبيراً هو انك تعرف ما هو مثلك : كتابة مسرحيات ... حسناً ! سوف تكتب مسرحيات ...

فلم استطع الامتناع عن التردد ، وانا حائر وفي الوقت نفسه معزى بعض العزاء :

- اجل ، سأكتب مسرحيات .

والح باتيستنا :

- نعم ، سكتب اذا كنت تريد ذلك حقاً ، حتى ولو عملت من اجل كسب المال ، حتى ولو كتبت سناريوهات لحساب « افلام النصر » .. أتريد ان تعرف سر النجاح ، يا موليتني ؟
- ما هو ؟

- ان يتبع المرء الصف في الحياة ، كما يتبع الصف امام نافذة قطع التذاكر في المحطة ... إن دورنا يصل دائماً اذا كنا نملك صبراً ، واذا لم نغير صفنا ... ان دورنا يأتي لان موظف التذاكر يعطي كلاً تذكرته ... ولكل حسب استحقاقه طبعاً ... ومن يستطيع ان يذهب بعيداً سينال تذكرة الى استراليا ، من يدري ... اما الآخرون الأقل طموحاً ، فيأخذون تذكرة لرحلة اقصر ، الى كابري مثلاً ..

واخذ يضحك مسروراً بإشارته المهمة الى رحلتنا واضاف :

- انني اتمنى لك ان تتلقى تذكرة لمكان بعيد ... اميركا ؟ هل تحب ذلك ؟

نظرت الى باتيستا الذي كان ييسم لي بحنان ابوي ، ثم أدت عيني الى اميلي التي كانت تبسم ايضاً بسمة سريعة ولكنها لم تكن اقل صراحة. وادركت مرة اخرى ان باتيستا كان قد عرف في يوم واحد ان يحول النفور الذي كانت تكته له الى شعور من الود تقريباً . وهنا عاودني الحزن الذي كان قد ارهقني حين حسبتي ارى في نظرة زوجتي تعبير السيدة بازيني . قلت « الحزن » ولم اقل « الغيرة » ... والواقع اني كنت متعباً من جراء السفر الى ابعد حد ، وكذلك من جراء جميع حوادث اليوم ، وكان الارهاق يمتزج بجميع عواطفني ، فيحولها الى كآبة عاجزة حزينة .

وانتهى الطعام بشكل غير متوقع . فبعد ان كانت اميلي قد اصغت بلذة الى باتيستا ، بدت وكأنها تتذكرني فجأة ، او بالاحرى تتذكر وجودي ، وذلك على نحو أكد قلقي . فقد كنت اقول بغموض :
- ان بإمكاننا ان ننقل الى السطحة .. فلا بد ان القمر قد بزغ ..
فاذا هي تجيب بحفاة :

- ليست لدي رغبة في الخروج .. اني ذاهبة للنوم .. فأنا متعبة . ونهضت من غير ان تنتظر فاستأذنت وخرجت . ولم يبد على باتيستا انه فوجيء بهذا الذهاب المباغت ، بل خيل اليّ انه كان مسروراً به ، كما لو انه كان يرى فيه علامة اضطراب عرف كيف يزرعه في روح اميلي . اما انا ، فكنت احس ضيقي يتفاقم . وبالرغم من اني كنت احسني نافذ القوى ، وكنت اقول إن من الافضل تأجيل كل شرح الى الغد ، لم املك الجرأة على ان اتمالك نفسي فحييت باتيستا بدوري ، بحجة اني كنت ناعساً ، وخرجت من الصالة .

الفصل السادس عشر

كان بين غرفتي وغرفة اميلي باب اتصال . وقد طرقت هذا الباب ، دون انتظار ، فقالت لي اميلي ان ادخل .

كانت جالسة على السرير ، جامدة ، في وضع تفكيري . ولكنها اذ رأني سارعت تسألني بلهجة متعبة حائقة :
- ماذا تريد مني أيضاً ؟

فأجبت في برودة ، لأنني كنت أحسني الآن على غاية الهدوء والصفاء :

- لا شيء ... سوى ان أتمنى لك ليلة سعيدة ...

- قل بالاحرى إنك تريد ان تعرف رأيي بالحديث الذي جرى هذا المساء بينك وبين باتيستا ... حسناً ! ان كنت تريد ان تعرف رأيي ، فسأقوله لك : إن ذلك الحديث كان مضحكاً وفي غير محله تماماً !
وتناولت كرسيّاً فجلست عليه ، وسألتها :

- لماذا ؟

فقالت وهي ترفع صوتها :

- انني لا أفهمك ... حقاً لا أفهمك ... كنت تبدو حريصاً جداً على كتابة ذلك السناريو ، ثم تذهب فتقول للمتج إن المال وحده يهملك في الامر ، وان هذا العمل لا يروق لك ، وان مثلك الاعلى هو ان

تكتب للمسرح ... اترك لا تدرك انه اذا اعطاك ، هذا المساء ، الحق
في ما ذهبت اليه بدافع التأدب ، فسوف يفكر غداً ويحترز جيداً ان
يطلب خدمتك في مرة اخرى ؟ أمن الممكن ألا تستطيع فهم أمر بسيط
كهذا ؟

هكذا كانت تأخذ الهجوم . وعلى اني فهمت انها تفعل ذلك لتخفي
هموماً اخرى اشد خطورة ، فلم استطع الامتناع عن الاحساس بأن في
صوتها صراحة حقيقية ، حتى ولو كانت مُدلتة لي وجارحة . وكنت
قد وعدت نفسي ان اظل هادئاً . ولكنني اشتعلت امام هذه اللهجة
الاحتقارية بالرغم مني ، فصحت :

— ولكنها الحقيقة ! ان هذا العمل لا يروق لي ، وهو لم يرق لي
قط .. وليس وارداً ان اقوم به ...

— اوه ! بل من المؤكد انك ستقوم به !

يقيناً انها لم يسبق لها قط ان أرثني مثل هذا الاحتقار . وقد كززت
على أسناني وقلت بلهجة قوية وانا اتمالك نفسي :

— لعلني لن اقوم به ! كنت هذا الصباح ما ازال انوي القيام به ،
ولكن بعد ما حدث اليوم ، فن المرجح اني سأبلغ باتيستا ، غداً على
أبعد تقدير ، اني عدلت عن كتابة هذا السيناريو ...

وكنت قد تفصّدت ان انطق بهذه العبارة العرفية ، مع إحساس
صميمي بالانتقام . لقد سبق لأميللي ان عذّبني كثيراً ... وقد اتى دوري
في إيلامها بالاعياء الى ما كنت قد رأيت عبر النافذة ، من غير ان اتكلم
عن هذا مباشرة وفي وضوح ودقة . وقد نظرت اليّ بإحداذ وسألتنني
بصوت هاديء :

— ما الذي حدث ؟

— أشياء كثيرة !

— وما هي ؟

كانت تلحّ ؛ لكأنها كانت تريد ان أهمها ، وأن آخذ عليها خيانتها لي . ولكنني ظللت على تهربي :

- اشياء متصلة بالفيلم ... امور بيني وبين باتيستا ... وهي لا تعنيك .
- ولماذا لا تريد ان تقولها لي ؟
- لأنها لا تمك اذا قلتها لك ...
- بلى ... والحق انك لن تملك الشجاعة للتخلي عن كتابة هذا السيناريو .

ولم أفهم اذا كانت تعبر في هذه الجملة عن احتقارها او عن املها ، فسألتها بتحفظ :

- لماذا تعتدين ذلك ؟
- لأنني أعرفك ...
- وصمتت لحظة ، ثم اضافت :
- إن الامر يجري هكذا دائماً بالنسبة لسيناريوهاتك ... لقد سمعتك مراراً تؤكد انك لم تكن تريد ان تقوم بهذا العمل او ذاك ثم تنتهي الى القيام به .. إن الصعوبات تُندلج دائماً في مثل هذه الامور .
- نعم ، ولكن الصعوبة هذه المرة لا تكمن في السيناريو ...
- اين ، إذن ؟
- في نفسي بالذات .
- ماذا تقصد ؟
- ووددت ان اصيح في وجهها :
- لقد قبلك باتيستا ..

ولكنني تمتعت ؛ فاننا في مناقشاتنا الصميمية لم نذهب قط الى قلب الحقيقة ، ولم نلجأ إلا الى الاشارات والابحاشات ... إن اموراً كثيرة كان ينبغي ان تقال قبل الحقيقة العارية !

وملت عليها وقلت بجدّ :

- اميلي ، انت تعرفين ما افكر به .. وقد قلته ونحن على المائدة:
انني "تعب" من ان اعلم للآخرين ، وأودّ أخيراً لو اعلم لحسابي الخاص.
- ومنّ يمنعك ؟
- فقلت في تفخيم :
- أنت !

وإذ رأيتها تأتي بحركة احتجاج ، قلت :
- لا انت بصورة مباشرة ، بل حضورك في حياتي ... إن حياتنا
المشتركة هي مع الأسف ما هي ... فلا نتحدث عنها ... ولكنك زوجتي ،
وقد قلت لك مراراً اني لا أقبل هذه الاعمال الا من اجلك .. ولولاك
لما ألزمت نفسي بها ... إنك بالاجمال تعرفين ذلك تماماً ، وغير مُجَدِّدٍ
أن أردّده : إن علينا ديوناً كثيرة ، ويجب ان نواجه استحقاق عدة
سندات من ثمن الشقة ، وحتى السيارة نفسها لم نف كل ثمنها بعد ...
من اجل هذا اكتب السيناريوهات ... على اني اليوم اريد ان اقدم لك
اقتراحاً ...

- ما هو ؟

وكنت أحسبني هادئاً جداً ، عاقلاً جداً ، ولكن انزعاجاً دقيقاً
كان ينبغي في الوقت نفسه بأن هذا الاعتدال الظاهري كان مزيفاً ، بل
كان أكثر من ذلك لامعقولاً . لقد رأيت اميلي ، بعد كل حساب ،
بين ذراعي باتيستا ، وهذا وحده ما ينبغي ان يكون له اهمية في نظري.
على اني تابعت كلامي :

- هذا ما أقترحه عليك : ان تقرري انت نفسك ان كان ينبغي
ان اكتب هذا السيناريو ام لا ... وانا أعدك ، اذا اتخذت قراراً
سليماً ، ان ابلغ باتيستا صباحاً هذا الامر ، وسنغادر كابري في اول
باخرة ...

فلم ترفع رأسها ، كما لو أنها كانت مستغرقة في افكارها ، وقالت
اخيراً :

— كم انت خبيث !

— لماذا ؟

— لأنك اذا ندمت على ذلك فيما بعد ، كان بإمكانك دائماً ان تلقي

تبعة ذلك عليّ !

— لن اقول شيئاً من هذا ... لاني انا الذي أرجوك ان تقرّري .

وكان واضحاً أنها كانت تفكر بالجواب الذي ستعطيني اياه . وفهمت

ان هذا الجواب سيكون بصراحة توكيداً لعاطفتها ، اياً كانت هذه

العاطفة ، تجاهي . فاذا شجعتني على القيام بالسيناريو فهذا يعني أنها

تحتقرني الى حدّ الحكم بأنه لا شيء يعارض المضيّ في عملي ؛ اما اذا

كان جوابها على عكس ذلك سلبياً ، فهذا يعني أنها ما تزال تحتفظ

ببقية من احترام لي ، ولا تريد ان تراني أعمل تحت ادارة عشيقها .

وهكذا كان كل شيء يعود الى السؤال نفسه : هل كانت تحتقرني ،

ولماذا ؟ وعزمت اخيراً فقالت :

— هذه قرارات لا يترك المرء للآخرين اتخاذها !

— ولكنني اطلب منك ان تقرّري .

فقالت بنوع من الجلالة :

— هل تراك ستذكر انك ألححت ؟

— نعم ، لن انسى ذلك .

— اذا كان الامر كذلك ، فأنا اعتقد انك قد التزمت ، ولا تستطيع

الآن العودة عن كلمتك .. والحق انك قلت لي انت نفسك اكثر من

مرة : إن باتيسنا يمكن ان يستاء من ذلك ويكفّ عن تكليفك بأي

شيء آخر ... ولهذا اعتقد أن من الضروري لك ان تنفّذ الامر .

هكذا كانت تنصّحني بالألّا أقوم بأي صخب ؛ لقد كانت ، كما

توقعت ، تحقّرني نهائياً وبغير نقض . وألححت :

– أتعتقدين ذلك حقاً ؟

– بكل تأكيد !

ولم اكن ادري ماذا اقول بعد ، على اني حذرتها بلهجة قاسية :
– حسناً ، ولكن لا تأتي لتقولي لي فيما بعد انك أعطيتني هذه
النصيحة لأنك كنت قد حذرت رغبتني الحفية ... كما حدث يوم كان
عليّ ان أوقّع عقدي ... ليكن واضحاً بيننا اني ، شخصياً ، لا رغبة
لي اطلاقاً بكتابة هذا السيناريو ...

قالت وقد نهضت لتتجه نحو الخزانة :

– اف ! انك تتعبني ! لقد اعطيتك رأبي ... وستفعل ما يبدو لك !
كانت قد عادت الى لهجة الاحتقار : إن افراضاتي تتأكد . وفجأة
أحسنتي مغموراً بذلك الالم نفسه الذي كنت قد شعرت به في روما
حين صارحتني للمرة الأولى بنفورها . وصححت :

– اميلي ، ما سبب هذا كله ؟ لماذا نحن منتصبان هكذا احدنا في
وجه الآخر ؟

وكانت قد فتحت احد مصراعي الخزانة وأخذت تنظر في المرآة .
وقالت في شرود :

– ماذا تريد ؟ انها الحياة ...

وبقيت صامتاً ، مصعوقاً ، جامداً . لم يسبق لأميلي قط ان حدثني
على هذا النحو ، بهذه اللامبالاة المطلقة ، وهذه اللهجة الاصطلاحية .
ولكنني كنت أعلم انه ما زال بامكاني ان اعود سيّد الموقف بأن اقول
لها اني رأيتها بين ذراعي باتيستا ، وهذا ما لم تكن تجمله ؛ وأني إذ
طلبت اليها ان تقرّر بدلاً مني قبول السيناريو ، انما اردت ان امتحنها
– وكانت هذه هي الحقيقة – وان كل شيء بالاجمال يتلخّص بالمسكلة
نفسها : حياتنا الصميمية المشتركة . ولم تواتني تلك الشجاعة ، او انني

بالاخرى لم املك القوة على ذلك ؛ وكنت أحسني متعباً حتى اعماق نفسي ، من غير امكانية التمالك . ولم أستطع الا ان اقول في حياء تقريباً :
- وما الذي سفتعلينه طوال الوقت في كابرني ، بينما اكون في عملي؟
- لا شيء خاصاً ... سوف أنتزّه ، وأستحمّ ، وأذهب بشرتي في الشمس ... ما يفعله الجميع هنا ...

- وحدك ؟

- نعم ، وحدي .

- أترآك لن تضجري وحدك ؟

- اطلاقاً ... إن هناك اشياء كثيرة افكر فيها .

- هل تفكرين بي احياناً ؟

- طبعاً افكر ايضاً بك ...

- وبم تفكرين ؟

- وكنت قد نهضت واقربت من اميلي فتناولت يدها .

- لقد تحدثنا بهذا الموضوع مرات عديدة ...

- وكانت تصمد لضغط يدي ، من غير ان تسحب يدها مع ذلك .

- الا تزالين تفكرين بي ، على النحو نفسه ؟

- فترآجت هذه المرة وقالت فجأة :

- اسمع ، من الافضل ان تذهب فتنام .. إن هناك اشياء لا تروق

لك ، وانا أفهم ذلك .. ومن جهة اخرى ، لا أستطيع الا ان اردّها

لك ... فأية حاجة بك الى التحدث عنها مرة اخرى ؟

- لتتحدث عنها مع ذلك ...

- ولكن لماذا ؟ سأكون مضطرة الى ان اقول لك ما سبق ان قلته

مرات كثيرة .. وانا لم اغير رأيي لأنني في كابرني ، بل على العكس...

- على العكس ؟ ماذا تقصدين ؟

- فشرحت في شيء من الارتباك :

– أقصد اني لم أغير رأسي ... هذا كل ما في الامر .
– انك بالاجمال ما تزالين تحسّين نحووي بالشعور نفسه ، أليس ذلك صحيحاً ؟

فصاحت بصوت بدا فجأة انه يوشك ان ينحطم :
– ولكن لماذا تعدّيني هكذا ؟ أتظنّ انه يلدّني ان اقول بعض الاشياء ؟ انها تؤذيبي اكثر مما تؤذيك !
وانفعلت للالم الذي كنت احسّه في صوتها . وتناولت يدها من جديد
وانا اقول :

– اما انا ، فلا افكر الاّ بالخير تجاهك ، وسأظل هكذا دائماً ...
وأضفت لتفهم اني كنت أصفح عنها :
– مها حدث ...

فلم تجب ، ولكنها ادارت عينيها ، وكان يبدو انها تنتظر . ولكنني
في الوقت نفسه أحسست انها كانت تسمى لتحرير يدها ، خفية ، بحركة
عدائية عنيدة . واذ ذلك تركتها على التوّ ، متمنياً لها ليلة سعيدة ،
وعدت الى غرفتي . وما لبثت ان سمعت المفتاح يدور في القفل ، فأحسست
بغصّة في قلبي .

الفصل السابع عشر

استيقظت صباح اليوم التالي في ساعة مبكرة ، ومن غير ان اسعى لمعرفة اين كان باتيستا واميلي ، خرجت ، او بالاحرى ، هربت من البيت . فبعد ان نمت واسترحت ، كانت أحداث الليلة الفائتة ، ولاسيما سلوكي ، تبدو لي في ضوء غير مستحب ، كأنها كانت سلسلة من الاعمال اللامعقولة اللامجدية ؛ وكنت اريد الآن ان افكر في الهدوء بما كان ينبغي ان افعل من غير ان اورط حرة عملي بقرار عاجل لاسيلا الى اصلاحه .

وإذن ، فقد غادرت المنزل ، وسلكت الدرب الذي كنت قد عبرته الليلة الفائتة ، واتجهت الى الفندق الذي كان رينغولد مقيماً فيه . وسألت عن المخرج ، فأجابوني بأنه كان في الحديقة ؛ وتوجهت اليها فلمحت في نهاية احد الممرات حاجز سطيحة جميلة بلتتهما النور المشع من البحر والسما الصافية ؛ وكانت بضع كراسي وطاولة صغيرة موضوعة مواجهة ، ولدى وصولي نهض رينغولد بحيني بيده . وكان يرتدي لباس ضابط بحرية ، بقبعة زرقاء ذات مرسة مذهبة ، وسترة زرقاء وبنطال أبيض . وكان على الطاولة بقايا طعام خفيف وقرطاس مع كل وسائل الكتابة .

كان رينغولد يبدو ذا مزاج ممتاز :
- ما تقول ، يا موليتي ، بهذه الصبيحة ؟
- اقول انها رائحة .

وأضاف وهو يأخذني من ذراعي ويقرب معي من الحاجز :
- وما قولك يا موليتي بأن نترك عملنا نائماً لنستقلّ قارباً ونجذّف
بهدوء على البحر ، حول الجزيرة ؟
فأجبت بلا اقتناع ، وانا افكر بأن نزهة كهذه بصحبة رينغولد مستفقد
حظاً كبيراً من سحرها :
- بلى ، هذا أفضل ، من بعض التواحي .
فصاح متصراً :

- لقد قلتها يا موليتي ، من بعض التواحي ... ولكن من اية ناحية؟
ليس من الناحية التي نفهم بها الحياة...إن الحياة في نظرنا هي الواجب،أليس
كذلك ؟ الواجب قبل كل شيء ، إذن ، الى العمل ، يا موليتي !
وكان بهمّ بأن يعود للجلوس امام الطاولة الصغيرة، ومال عليّ ونظر
في عينيّ واضاف بلهجة جلييلة :
- اجلس تجاهي .. سنكتفي هذا الصباح بالتحدث ... إن لدي اشياء
كثيرة اقولها لك ...

وجلست ، وأخفض رينغولد طرف قبعته على عينيه،واستطرد يقول:
- انت تذكر ، يا موليتي ، اني شرحت لك ، في اثناء رحلتنا
من روما الى نابولي ، طريقي في فهم « الاوديسة » .. وقد انقطع هذا
الشرح بوصول بانيسنا ؛ ثم تمت بقية الرحلة ، ولم استطع في النهاية ان
أتميز تومسيغ فكرتي ... أتذكر ؟
- طبعاً ...

- وتذكر ايضاً اني كنت قد اعطيتك مفتاح « الاوديسة » : إن
بوليسوس ينفق عشرة اعوام في العودة الى بيته ، لأنه في الواقع ، لم

يكن راعياً ، في اعماقه اللاواعية ، ان يعود ا

– تماماً ...

– سأقول لك الآن لماذا لا يريد يوليسوس ، في رأيي ، ان يعود

الى بيته ...

وتلث رينغولد لحظات ليؤكد اهمية كشفه ، واستطرد يقول وهو

يحدق في بنظرة متسلطة ، فقطب الحاجبين :

– إن لاوعي يوليسوس يدفعه لعدم العودة لأن حياته الزوجية مع

بينيلوب ليست سعيدة ... هذا هو السبب يا موليتي .. وتلك الصعوبات

ترجع الى ما قبل سفر يوليسوس للحرب . واذا كان يوليسوس قد ذهب

الى الحرب ، فلأنه لم يكن مرتاحاً في بيته ، وهو لم يكن مرتاحاً لأن

علاقاته بزوجته كانت سيئة ...

وصمت رينغولد لحظة ، ولكنه لم يفقد هيئة الدوغمائية المتسلطة ؛

وانتهزت هذا التوقف لأدبر كرسيه حتى لا تكون الشمس في عيني .

ثم اضاف :

– لو كانت حياة يوليسوس الزوجية سعيدة لما ذهب الى الحرب ..

فليس يوليسوس متظاهراً بالشجاعة ولا محباً للقتال .. انه رجل حكيم نافذ

البصيرة ... ولو كان سعيداً مع بينيلوب لاكتفى بارسال بعثة بقيادة احد

رجاله الثقات ، وذلك ليُظهر فقط تضامته مع مينيلاس . والحال انه قد

ذهب ؛ فهو ينتهز فرصة هذه الحرب ليذهب ، فراراً من زوجته .

– هذا منطقي تماماً .

– تقصد انه بسيكولوجي ، يا موليتي ..

هكذا صحح رينغولد جوابي .. وقد لاحظ بلا شك لهجتي الساخرة ،

واضاف :

– بسيكولوجي تماماً .. ولا تنس ان كل شيء يتوقف على علم

النفس .. فبلا علم النفس ، ليس هناك من طبائع ، وبلا طبائع ، ليس

هناك من تاريخ . فما هي ببيكولوجية يوليسوس وبينيلوب ؟ إسمع جيداً :
إن بينيلوب هي المرأة التقليدية لليونان القديمة ، الاقطاعية والارستقراطية :
انها ذات فضيلة ونبل وغطرسة ، وهي دينية ، وربة منزل ، وام صالحة
وزوجة صالحة . اما يوليسوس فيعتبر ، على العكس ، عن سمات اليونان
المتقدمة في الحضارة ، يونان السفسطائين والفلاسفة : انه رجل بلا احكام
مسبقة ، وهو عند اللزوم بلا وساوس ، دقيق ، ذكي ، لا ديني ،
شكّاك ، بل هو احياناً وقح ...

واعترضت :

— بخجل اليّ انك ترسم ليوليسوس شخصية سوداء ، فالواقع انه في
الاديسة ...

فقاطعتي رينغولد بنفاد صبر :

— ليس لنا ان نشغل بالاديسة ... اقصد انا نفس الاديسة ونعلّق
عليها ... ولا تنسَ اننا نعمل فيلاً يا مولتي .. لقد سبق للاوديسة ان
كُتبت ، اما الفيل فلم يُعمل بعد ...
والتزمت الصمت . واستطرد :

— إن سبب مصاعب يوليسوس وبينيلوب يجب ان يلتبس في اختلاف
طبائهما ... فقيل حرب طروادة كان من سوء حظ يوليسوس انه لم يرق
ليبينيلوب ... فاذا فعل ؟ هنا يتدخل « الراغبون » ... وتنبئنا الاديسة
ان الذين يرغبون في يد بينيلوب كانوا يعيشون ، منتظرين ، في منزل
بينيلوب الخاص ، وعلى حساب يوليسوس ... ويجب قلب الموقف ..
ونظرت اليه فاغر الفم ، فسألني رينغولد :

— الا تفهم ؟ سأشرح لك : إن « الراغبين » — ومن الانسب لنا ،
بلا شك ، ان نخفض عددهم الى واحد فقط ، انطينوبس ، مثلاً —
كانوا يحبون بينيلوب قبل حرب طروادة ، وكانوا لذلك يخرقونها بالمدايا ،
على مألوف عادة اليونانيين . وقد كان بودّ بينيلوب ، المرأة المترفة ،

القاسية ، على الطراز القديم ، ان ترفض هذه الهبات ؛ وكانت تحرص خصوصاً على ان يطرد زوجها هؤلاء « الراغبين » ولكن لسبب مازلنا نجعله ، وسنجده في سهولة، كان يوليسوس يخشى ان لا يروق « الراغبين » . وهو ، كرجل حسن سليم ، لا يعلق كبير أهمية على الغزل الذي يمارسه منافسوه ، لأنه يعرف ان زوجته امينة ؛ كذلك فهو لا يعزو اية أهمية للهدايا التي لم يكن ، في صميمه ، لامبالياً بها . اذكر يا مولتي ان جميع اليونانيين كانوا متعطين للهدايا . إن يوليسوس طبعاً لا ينصح بينيلوب ابدأ ان تستسلم لرغبات « الراغبين » فيها ، ولكنه يحثها على ألا تثبطهم ، لان ذلك ، كما يبدو له ، لا يستحق هذا ... إن يوليسوس يريد ان يعيش في سلام ، وهو يحقر الفضيحة .. اما بينيلوب التي كانت تتوقع كل شيء من زوجها الا هذا الجمود ، فقد ساءها ذلك ، ولم تصدق أذنيها .. وهي تمنح وتثور ... ولكن يوليسوس لا يفقد برودته ، وينصح بينيلوب مجدداً ان تقبل الهدايا التي تقدم اليها ، وان تظهر بمظهر اللطف .. فهذا في نهاية المطاف لا يمكن ان يكلفها شيئاً كبيراً ! ... وتتبع بينيلوب في آخر الامر نصيحة زوجها ... ولكنها في الوقت نفسه تكن له احتقاراً عميقاً ؛ انها تشعر بأنها قد كفت عن ان تحبه ، وتقول له ذلك ... واذ ذاك يلاحظ يوليسوس ، ولكن بعد فوات الاوان ، انه بسبب احتراسه المبالغ فيه ، قد فقد حب بينيلوب . ويجهد في إصلاح خطئه ، واستعادة زوجته ، ولكن عبثاً ... وأصبحت حياته في « ايتاك » جحيماً .. واخيراً ، ينتهز فرصة حرب طروادة ، وهو يانس ، فيغادر منزله . وبعد سبع سنوات ، وضعت الحرب اوزارها ، فاستقل يوليسوس البحر للعودة الى « ايتاك » ... ولكنه يعلم ان من ينتظره في منزله انما هي امرأة لا تحبه بعد ، بل هي تحقره ... لذلك كانت جميع الحجج صالحة ، في لاوعيه ، لتأجيل هذه العودة المقلقة والمخيفة . على انه لا بد من العودة في نهاية المطاف . ولكن يحدث

ليوليسوس لدى العودة الى المنزل ما حدث « للفارس » في اسطورة « التنين » .. هل فهمت ما أقصد اليه ، يا موليتيني ؟ لقد فرضت الاميرة على « الفارس » ان يقتل التنين ، واعطته الاميرة قلبها . وهكذا وجدت بينيلوب يوليسوس ، وبعد ان برهنت له عن امانتها ، أفهمته ان هذه الامانة ليست مستوحاة من الحب ، وانما من الكرامة وحدها . وهي لن تستطيع ان تحب زوجها من جديد الا بشرط : هو ان يقتل « الراغبين » ... ونحن نعلم ان يوليسوس لا يملك شيئاً من صفات الرجل الدموي الحفود ، وهو يؤثر ان يُبعد « الراغبين » باللطف والحسني ، مستعملاً الاقتناع ... على انه يعزم . ذلك انه يعرف في الواقع ان احترام بينيلوب، ومن ثم حبها، يتوقفان على قتل « الراغبين » . وهكذا يقتل الراغبين . واذ ذلك ، فقط ، تكف بينيلوب عن احتقاره وتبادل حبه . ويستعيد يوليسوس وبينيلوب سعادتهما بعد تلك الاعوام الطويلة من الفراق ، ويحتفلان بعرسهما الحقيقي ، عرس الدم . هل فهمت يا موليتيني ؟ لتلخص الموضوع : النقطة الاولى : بينيلوب تحقر زوجها لأنه لم يتصرف كرجل وكزوج وكملك تجاه ازعاجات « الراغبين » . ثانياً : هذا الاحتقار بسبب ذهاب يوليسوس الى حرب طروادة . ثالثاً : يعرف يوليسوس انه سيجد في منزله امرأة تحقره ، فيؤخر عودته ما أمكنه ، بلاوعي . رابعاً : وليستعيد احترام بينيلوب وجبها ، يقتل يوليسوس « الراغبين » ... وهكذا ... هل فهمت يا موليتيني ؟

فأجبت أن نعم . وهذا كله لم يكن بالفعل صعباً على الفهم . ولكن الثغور الذي كنت أحسه منذ البدء لتفسير علم النفس التحليلي الذي اوردته رينغولد ، كان يولد في من جديد أقوى من اي وقت مضى ، وكان يبعث لديّ التملهل والحلم . وفي ذلك الحين كان رينغولد يواصل حديثه وهو يضفي عليه مزيداً من الأهمية :

— أتعرف ما الذي اعطاني مفتاح الموقف كله ؟ انه تأمل بسيط بمقتل « الراغبين » الذي روته الاوديسة . لقد لاحظت ان هذا القتل الوحشي الذي لا هوادة فيه يناقض مناقضة مطلقة طبع يوليسوس كما قدّم لنا حتى ذلك الحين : داهية ، حكيم ، بعيد النظر ... وقلت في نفسي : لقد كان بوسع يوليسوس ان يطرد « الراغبين » ، من غير تعقيدات ؛ كان ذلك بوسعه ، فهو في بلده ، وهو الملك ... وكان يكفيه ان يجبر الناس على الاعتراف به ... واذا لم يفعل ذلك ، فلأن لديه أسباباً وجيهة ... إن يوليسوس يريد ان يبرهن طبعاً انه ليس فقط داهية ، حكيماً ، بعيد النظر ، ولكنه كذلك ، عند الضرورة ، عنيف كأجاكس ، غضوب كأشيل ، قاس كأغاممنون . ولن يريد ان يثبت ذلك ؟ ليينيلوب دون ما شك !

لم أقل شيئاً . كانت محاكمة رينغولد الفكرية مياسكة ومنسجمة مع نزعته الى تحويل الاوديسة الى تعاقب ببيكولوجي متسلسل . ولكن هذه التزعة بالذات كانت توقظ لديّ نفوراً عميقاً كما لو أن القضية تدنيس او انتهاك حرمة . إن كل شيء لدى هوميروس بسيط ، نقي ، نبيل ، ساذج ، حتى دهاء يوليسوس الذي تتضمنه ، بشكل شعري ، حدود تفوقه الفكري . اما في تفسير رينغولد ، فان كل شيء ، بالعكس ، منخفض الى مستوى درامة عصرية اخلاقية مزعوم أنها ببيكولوجية . وقد انتهى رينغولد الى القول ، وهو راض كل الرضى عن نظريته :

— انت ترى يا مولتيني ان الفيلم قد أنجز ، في جميع تفاصيله .. ولا يبقى لنا الا ان نكتبه !

وقاطعته بما يشبه العنف :

— اسمع يا رينغولد ، إن تفسيرك لا يروق لي إطلاقاً !
فاتسعت عيناه ، وبدا لي وقد فوجيء بجرأني اكثر منه بمخالفتي اياه :
— انه لا يروق لك يا عزيزي مولتيني ؟ ولماذا ؟
فقلت في جهدي ، ولكن في ثقة كانت تنمو ما كنت اتكلم :

– ان تفسيرك لا يروق لي لأنه يشكل تزييفاً كاملاً لطبع يوليسوس الأصلي . ان الاوديسة تصور يوليسوس رجلاً ذكياً بارعاً ، ولكنه دائماً في حدود الشرف والكرامة ... فهو لا يني قط يظهر بمظهر البطل ، اي المحارب العظيم ، والملك ، والزوج الكامل ... اما تفسيرك فاسمح لي يا عزيزي رينغولد ان اقول لك انه ، على العكس ، يوشك ان يظهره كإنسان بلا كرامة ولا شرف ولا معرفة للحياة ... هنا بصرف النظر عن انك تبتعد عن روح الاوديسة اكثر مما ينبغي .

وفيما كنت اتكلم ، كنت ارى بسمة رينغولد العريضة تتقلص ، وتمحى ، وتزول . وقال بمرارة وهو يبرز في كلامه اللهجة الجرمانية التي كان ينجح اجمالاً في اخفائها :

– اسمح لي ، يا عزيزي مولتيني ، ان اقول لك انك ، كالعادة ، لم تفهم شيئاً !

فرددت ، منزعجاً ، بلهجة ساخرة :

– كالعادة !

فأجاب رينغولد :

– نعم ، كالعادة ، وسأقول لك السبب فوراً : هل تسمعي جيداً ،

يا مولتيني ؟

– انني اصغي اليك ، كن على ثقة من ذلك .

– انا لا اريد ، كما تشير ، ان اجعل من يوليسوس رجلاً بلا كرامة ولا شرف ولا معرفة بالحياة ... بل اريد بكل بساطة ان امثل الرجل كما يبدو حقاً في الاوديسة . من هو يوليسوس الاوديسة ؟ ماذا يمثل ؟ انه يمثل بكل بساطة الانسان المتمدن ، انه يجسد الحضارة ... ومن جميع الابطال الآخرين الذين هم كائنات بدائية ، يعتبر يوليسوس الوحيد المتحضر ... واين تكمن حضارة يوليسوس ؟ انها تلخص في ان يكون المرء بلا افكار

مسيقة ، وان يعتمد دائماً على العقل ، في جميع الظروف ، حتى في مسائل معرفة الحياة والكرامة والشرف ... كما تقول ... وان يظهر ذكياً ، موضوعياً ، علمياً تقريباً ، كما اقول .. ان الحضارة طبعاً مساوئها ، فهي مثلاً تنسى بسهولة اهمية القضايا التي توصف بأنها قضايا الشرف ، بالنسبة للاشخاص البدائيين . اما بينلوب ، فليست هي امرأة متحضرة ، انها امرأة حسب التقاليد ، هي لا تفهم المحاكمة العقلية ، وانما تفهم الغريزة والدم والكبرياء . انتبه جيداً يا موليتني ، وحاول ان تفهمني: ان الحضارة يمكن ان تبدو ، وهي تبدو غالباً في عيون الكائنات البدائية ، فساداً ولااخلاقية وانقضاء للمبادئ ووقاحة ... كان هذا هو مثلاً مأخذ هتلر ، وهو رجل متحضر بالتأكيد ، على الحضارة ... لقد كان هو ايضاً يتحدث كثيراً عن الشرف ... ولكننا نعرف اليوم من كان هتلر ، وما كانت قيمة شرفه ... وبالاجمال ، فان بينلوب ، في الاوديسة ، تمثل البربرية ، ويوليسوس الحضارة ... وهل تعلم ، يا موليتني ، اني في حين كنت اعتبرك متحضرأ كيوليسوس ، أراك تتكلم كبينلوب ، تلك البربرية !؟

نطق رينغولد بهذه الكلمات الاخيرة في بسمة عريضة ، وكان واضحاً انه مسرور بالعثور على هذه اللقمة اذ شبهني بينلوب . ولكن هذا التشبيه ازعجني اكثر مما كنت أتصور . بل لقد أحسستني امتنع من شدة الغضب ، وقلت بصوت معتكر :

— اذا كنت تعتبر برهاناً على الحضارة ان يحمل رجل الشمعة لمن يغوي زوجته ، فاني يا عزيزي موليتني افخر بأن اكون بربرياً !
وأدهشني ان رينغولد لم يغضب هذه المرة ، بل قال وهو يرفع يده :

— لحظة ... انك هذا الصباح تفكر على نحو رديء يا موليتني ، مثل بينلوب تماماً .. واذن ، فهذا ما سوف نفعله : اذهب فخذ حماماً

في البحر ، وفكّر ... ثم تعود للقائي صباح الغد لتقول لي نتيجة
تأملاتك ... هل انت موافق ؟

فأجبت متزعجاً :

- حسناً ! ولكن ليس من المرجح اطلاقاً ان اغير رأبي !

فكرر رينغولد وهو ينهض ويمد لي يده :

- فكّر ! ...

فنهضت بدوري . واضاف رينغولد بهدوء :

- اني متأكد انك غداً ستعطيني الحق ...

فأجبت :

- لا اظن ذلك .

ومضيت .

الفصل الثامن عشر

لم يكن حديثنا قد استمر أكثر من ساعة . فكان امامي اذن النهار بطوله لكي « افكر » ، كما قال لي رينغولد ، حتى اقرر هل اقبل تفسيره ام ارفضه . واعترف اني ما كدت اغادر الفندق حتى انجسه فكري ، لا الى رينغولد ، بل الى طرد ذكره من ذهني لآتمتع بالنهار الجميل على هواي . ثم انني كنت اجد في افكار المخرج شيئاً يتجاوز عملي كسيناري ، شيئاً لم اكن اعرف بعد ان احدهه ، ولكن رد فعلي المتطرف كان قد كشفه لي بغموض . كان لا مناص ، في نهاية المطاف من التفكير حقاً . وتذكرت اني ، قبل ساعة ، اذ خرجت للقاء رينغولد ، كنت قد لمحت تحت المقصورة خليجاً صغيراً متوحداً ؛ فعزمت ان اقصده ، اعتقاداً مني اني سأجد الراحة للتفكير وفق نصيحة المخرج ، والا سأكتفي بأن استحم فيه بكل بساطة .

وسرت على الرصيف الذي يحيط بالجزيرة . وكان الوقت ما يزال باكراً في الصباح ، وكان الطريق المظلل خالياً تقريباً ، الا من صبي يوقظ الصمت بوقع قدميه العاريتين على القرميد ، وفناتين متعانقتين ، ترثران بصوت منخفض ؛ وسيدتين او ثلاث من العجائز يتزهن كلابهن .

واذ بلغت نهاية الطريق ، سكت الممر الذي يتعرج في الجزء الاكثر
توحداً ووعورةً من الجزيرة . وسرت قليلاً ، ثم توقفت امام مفترق :
كان ثمة ممر اضيق يفضي الى سطيحة صغيرة معلقة في الفضاء . ودلفت
الى هذا الممر ، وحين بلغت السطيحة نظرت فيها تحي . كان البحر على
انخفاض مئة متر يخفق ويتلألأ تحت الشمس ، مغيراً لونه وفق انقاس
الريح ، فهنا زرقة مصفرة ، وهناك بنفسجية ، وهناك زمردية . ومن
هذا البحر الصامت ، كانت صخور الجزيرة المقنفة تبدو وكأنها تصعد
من الهاوية اليّ ، كسهام ذات رؤوس عارية متلاثلة بالضوء .
وفجأة غمرني ، من غير ان ادري السبب ، نوعٌ من الهوس ،
فأحسست ان الحياة ثقيلة على كتفي ، وأني موشك في هذه اللحظة ان
اقوم بقفزة في المدى الضوئي ، فأموت ميتةً تكاد تكون جديدة بأفضل
جزء من نفسي . أجل ، اني مستعد ان اقتل نفسي لأبلغ في الموت
ذلك النقاء الذي افتقدته في الحياة .

كان اغراء الانتحار هذا صادفاً ، وكانت حياتي بلا شك معرضة
للخطر مدة لحظة . ثم فكرت في اميلي ، كما لو كان ذلك بدافع
الغريزة ، وبالطريقة التي ستستقبل بها نياً هوتي . وقلت في نفسي فجأة :
« انك تود ان تموت ، لا ضجراً من الحياة ، بل من اجل اميلي »
وخففت هذه الفكرة من حدة هوسي اذ عرته من اي سمة مجردة .
وتساءلت : « بسبب اميلي ، ام من أجاها ؟ ان التمييز هام جداً ... »
ولم يلبث الجواب ان جاء : « من اجل اميلي ، لكي استرد احترامها ،
ولو بعد الوفاة ... لكي اخطف لديها ندماً انها قد احتقرتني ظلماً . »
وما كدت اكون هذه الفكرة ، كما في لعبة الاطفال تلك حيث
يجب اعادة تكوين صورة بواسطة كمية من القطع الصغيرة المتناثرة ،
حتى اكتملت لوحة وضعي الحالي بهذه الفكرة الأخرى : « لئن كان ردّ
فعلك عنيفاً الى هذا الحد على افكار رينغولد ، فلأنه وهو يشرح علاقات

يوليسوس وبينيلوب قد اوما بطرف خفيّ ، على ما خيّل اليك ، وبلا نية من جانبه ، الى العلاقات القائمة بينك وبين اميلي . وحين كان رينغولد يتكلم عن احتقار بينيلوب ليوليسوس ، فكرت باحتقار اميلي لك ... ولقد بدت لك الحقيقة غير محتملة ، وقد احتججت ، اجبالاً ، على الحقيقة ... »

ولكن اللوحة لم تكن قد اكتملت بعدُ تماماً ؛ فقد جاءت افكار اخرى تتمّها ، نهائياً هذه المرة . « لقد اردت ان تموت لأنك لا تلعب لعبة صريحة مع نفسك ... فلكني تسترد احترام اميلي ، لست بحاجة اطلاقاً الى ان تقتل نفسك ... يكفي شيء اقل من هذا كثيراً .. لقد ذلك رينغولد على ما ينبغي ان تفعل : ان يوليسوس ، من اجل ان يفوز بحب بينيلوب ، استأصل « الراغبين » ... وعليك ، نظرياً ، ان تقتل بياتيستا ... ولكن العالم الذي نعيش فيه هو اقل عنفاً واطلاقاً من عالم الاوديسة ... ويكفيك ان تتخلى عن السيناريو الذي كان المفروض ان تكتبه ، وان تقطع كل علاقة بياتيستا ، وان تعود غداً صباحاً الى روما ... لقد نصحتك اميلي الا تتخلى عن السيناريو لأنها ، على الأرجح ، تريد ان تحتقرك وترغب في ان يعطيها مسلكك الحق ... فلا تتم بأرائها ... ان عليك ، بالعكس ، ان تتصرف كما تصرف يوليسوس ، وفق نظرية رينغولد . »

مُقتضى الأمر اذن : كنت قد درست وضعي دراسة عميقة ، بلا هوادة ، وبأكبر حظ من الاخلاص . ولم اكن بحاجة الآن الى التفكير كما طلب مني رينغولد ، لم يكن لي بعد الا ان اعود ادراجي وان اذهب الى المخرج فأبلغه قراري الذي لا مردّ له هذه المرة . ولكنني قلت لنفسي ، برد فعل من الاحتراس ، انه لا ينبغي لي ان اتصرف بحمقة وطيش ، وان اعطي الانطباع عن عملية معاندة ، لأن كل حساب اصبح الآن نافلة . فاني سأقصد رينغولد بعد الظهر ، بكل هدوء ،

فأبلغه قراري . وبمثل هذا الهدوء ، حين اعود الى المقصورة ، سأرجو اميلي ان تُعدّ الحقائق . اما باتيستا ، فلم اكن اعتقد من الضروري التحدث اليه . ففي الصباح ، عند ذهابنا ، سأبعث اليه برسالة مقتضبة جداً ، عازياً قراري المفاجيء الى عدم الانسجام بين افكاري وافكار رينغولد ، وهذا ما كان ، في حقيقته ، صحيحاً . وقد كان باتيستا ذكياً ، فهو اذن سيفهم ، ولن اراه بعد ذلك ابداً .

كنت مستغرقة في افكاري، فعُدت ادراجي من غير ان احس بذلك، وكنت قد سلكت الطريق آلياً حتى الى مساحت مقصورة باتيستا ؛ وهبطت بسرعة ممراً وعرماً ورملياً نحو الخليج الصغير الوحيد الذي كنت قد لاحظته ذلك الصباح بالذات . فبلغته وانا أُمث قليلاً ، ولكي استرد انفاسي ، توقفت لحظة عند صخرة انظر فيما حولي . وكانت الرملة الصغيرة محشورة بين كتل كثيفة من الصخور التي كانت قد انفصلت عن الرابية وتدحرجت حتى الاسفل ؛ وكان رأسان متعرجان يُغلقان الرملة من كل جهة ، متصبين فوق مساء خضراء شفاقة كانت أشعة الشمس تحترقها حتى انها لتضيء الحصبة البيضاء في الاعماق . ثم لمحت صخرة سوداء ، متآكلة منحوية ، غارقة حتى نصفها في الرمل والماء، فأخذتني الرغبة في ان اذهب فأتمدد في ظلها لاحتمى من الشمس المحرقة. واذ كنت استدير حولها ، رأيت اميلي متمددة على الحصى ، عارية تماماً. والحقيقة اني لم اتعرفها على الفور لأن وجهها كان مغطى بقبعة كبيرة من القش ؛ بل لقد كانت حركتي الاولى ان انسحب وانا اظنني تجاه مجهولة . ولكن حين استقر نظري على الذراع التي كانت قد بسطتها على الارض وانتقل الى اليد ، تعرفت في سباتها الخاتم ذا الحجر اللبي المذهب المزوج المُدب الذي كنت قد اهديته الى اميلي منذ فترة، بمناسبة عيد ميلادها. كنت خلف اميلي التي كانت عارية ، كما ذكرت ، وكانت ثيابها موضوعة الى جانبها مشكلة كومة صغيرة من الاقشة الملونة ، صغيرة جداً

حتى انه كان يبدو مستحيلاً ان تلبسَ هذا الجسم الكبير . وبالفعل ،
فان اول ما لفت نظري في عُري اميلي ، لم يكن هذا التفصيل او
ذلك، وانما المجموع ، فكرة الكبير والقوة التي كان هذا الجسم يوحىها.
كنت اعرف جيداً ان اميلي لم تكن ذات قامة اطول من قامة معظم
النساء ، ولكن عُريها في تلك اللحظة كان يبدو لي هائلاً ، كما لو ان
البحر والسماء كانا في تلك اللحظة يعبرانها عظيمتهما . وفي ذلك الوضع
المتمدد ، كان النهدان يفقدان من بروزهما وانتفاخها العضل ، ولكن
حجمها كان يبدو لعيني اكبر من الحجم الطبيعي ، وكذلك
الدائرة الوردية لحلمتيها ؛ وكان أكبر من الطبيعي ايضاً ذلك
الخصران اللذان كانا يتمددان على الرمل في تفتح شهواني قوي ،
وكذلك البطن الذي كان يبدو وهو يتلقى في دائرته اللحمية كل أشعة
الشمس ، ومثل ذلك كان الساقان اللتان كانتا أكثر انخفاضاً من باقي
الجسم ، بسبب انحدار الارض ، فكانتا تبدوان مشدودتين بثقلها الخاص ،
وتظهران اطول من الطبيعي . وتساءلت من اين كان يأتي هذا الاحساس
بالكبر والقوة ، العميق المقلق ؟ وادركت انه كان صادراً عن شهوتي
التي استيقظت بوحشية . شهوة روحية أكثر منها جسدية - بالرغم من
تلقائيتها وزخها - في ان اتحد بها ، لا بجسدها ، بل عبّر جسدها. كنت
حقاً متعطشاً لها ، ولم يكن ارواء هذا العطش يتوقف عليّ ، بل عليها
وحدها ، على موافقتها تبيء قبل شهوتي . ومن اسف اني كنت أحس
ان هذه الموافقة ، كانت تمنعها هي عني ، بالرغم من انها كانت ،
بوهم من اوهام الرؤية ، تبدو في عُريها وهي تمنحني نفسها .

ولكني لم أكن استطيع ان ابقى الى ما لا نهاية وانا أتأمل هذا الجسم
المحرم . وقت بخطوة الى الامام ، وناديت في الصمت ، بوضوح :

- اميلي !

فندت عنها حركة سريعة في وقتين : فقد ألفت اولاً قبعتها عنها ،

ومدت يدها لتتناول قيصها عن كومة الملابس لتغطي به نفسها ؛ ثم جلست وأدارت رأسها لتنظر خلفها . ولكني حين أضفت قائلاً :

— هذا انا ، ريشارد ا

رأني وتركت قيصها يسقط . وفكرت بأنها قد خافت ان تجد نفسها امام غريب ، ولكنها اذ رأت اني انا القادم ، حكمت بأنه من غير المجدي ان تغطي نفسها ، كما لو كان الامر يتعلق بشخص غير موجود . وانا اورد هذه الفكرة ، اللامعقولة في حقيقتها ، لأصور حالتي النفسية في تلك اللحظة . ولم تخطر بذهني فكرة أنها اذا لم تكن تُحس الحاجة الى اخفاء جسمها ، فلأنني كنت زوجها ، ولم اكن غريباً . لقد كنت من شدة الاقتناع بأنني غير موجود بالنسبة اليها ، على الأقل من الوجهة الغرامية ، بحيث فسرت حركتها الملتبسة على انها دليل آخر على عدم وجودي . وقلت بصوت منخفض :

— لقد مرت خمس دقائق على الاقل وانا انظر اليك .. وهل تعرفين

انه يخيل الي اني اراك للمرة الاولى ؟

فلم تجبني بشيء ، ولكنها استدارت اكثر من ذي قبل لتراني على نحو ايسر ، واحكمت على أنفها نظارتها السوداء بحركة فضول آلية . وقلت :

— هل ترين مانعاً في ان ابقى هنا ، ام تفضلين ان اذهب ؟

فتأملتني ، ثم اضطجعت من جديد على ظهرها في هدوء وهي تقول لي :

— إبقى ، ان كان هذا يسرك ... شرط ألا تحرمني من شمسي ا

لقد كانت تعبرني اذن كأنني غير موجود ، مجرد جسم كثيف يستطيع ان يقف بين اشعة الشمس وجسدها العاري ، هذا الجسد الذي كان المفروض فيه ، على العكس ، ان يُحس نفسه مرتبطاً بجسدي ،

وان يعبر عن ذلك على نحو ما ، حتى ولو كان الحشمة او الخوف .
وقد حيرني عدم الاكتراث هذا بشكل مؤلم ، فجفّ فمي جفافاً مفاجئاً ،
وشعرت بأن وجهي يتخذ بالرغم مني تعبيراً متردداً ، شاردأ ، لا مبالياً
بشكل مزيف وشاق . وقلت :

– الجلو هنا جميل ، وسأخذ انا ايضاً حماماً ..
ولكي أتمالك نفسي ، جلست على بعد خطوات منها ، مسنداً ظهري
الى صخرة .

وامتد الصمت بيننا . وكانت امواج وموجات من الضوء المذهب
الباهر الرقيق تغمرني ، ولم يسعني الا ان اغضض عيني في احساس
عميق بالسعادة والهدوء . على اني لم اكن انجح في اقناع نفسي بانني
كنت هناك لأخذ حمام شمس ، شاعراً بانني لن استطيع ان اتذوقه تذوقاً
كاملاً الا اذا كانت اميلي تحبني . وقلت وانا افكر بصوت مرتفع :
– إن هذا الركن من العالم يبدو وكأنه مصنوع للعشاق والمحبين ..
فأجأهت بصوت تخفقه بعض الشيء قبعة القش التي كانت تغطي
وجهها :

– تماماً .

– ولكن ليس لنا نحن اللذين لم يعد احدنا يحب الآخر ..
فلم تجب وظللت محمداً عيني بها ، وانا احس من جديد تلك الرغبة
التي اثارني حين لمحتها للمرة الاولى اذ خرجت اليها عبر الصخور .
ان من ميزات المشاعر الكثيفة انها تدفعنا الى العمل بكل تلقائية ،
بلا مساعدة من ارادتنا ، وعلى نحو شبه لاواع . لقد وجدني فجأة ،
من غير ان اعرف كيف تم ذلك على ركبتي قرب اميلي المضطجعة
الجامدة ، منحنيماً بوجهي فوق وجهها . ولا ادري كيف كنت قد نزعنت
القبعة العريضة التي كانت تغطي ملامحها ، واذا انحنيت لأقبلها ، نظرت

الى فمها كما ينظر المرء الى ثمرة يوشك ان يقضمها . كان لها فم كبير
ريّان ؛ وكانت الشفتان المنصوغتان تبدوان جافتين مشقتين ، كما لو
ان لمياً داخلياً ، بصرف النظر عن الشمس ، كان قد جفّفها . وكنت
افكر بان هذا الفم لم يكن قد لمس فمي منذ وقت طويل ، وان مذاق
تلك القبلّة ، اذا بادلتني اياها وهي في احلامها ، سيكون بالنسبة لي
اكثر إسكاراً من اقوى المشروبات . واعتقد اني ظلت طوال دقيقة على
الأقل تأمل هذا الفم ، ثم ادنيت شفّي بكل هدوء . ولكنني لم أقبلها
بعد ، متريفاً في الاحساس بفمي شديد القرب من فمها . وكنت اشعر
بالنفس الخفيف الهاديء الذي كان يخرج من منخريها ، وكذلك بحرارة
شفتيها الملتهبتين ، على ما كان يخيل الي . وكنت انجبل ، فيها وراء
هاتين الشفتين ، في داخل الفم ، رطوبة اللعاب شبيهةً بجليد مثلج في
اعماق ارض تحرقها الشمس ، مدهشة ومرطبة كهذا الجليد . وفيها
كنت مسبقاً اتذوق هذه الرطوبة ، التقت شفتاي اخيراً بشفتي اميلي .
ولم يبد هذا الاتصال مفاجئاً لها ، او موقظاً اياها . وضغطت شفّي
برقة اول الامر ، ثم بقوة ، واذا ألفتيتها جامدة ما تزال ، جازفت
بقبلّة اعرق . واحسست هذه المرة ، وفق رغبتي ، فمها يفتح على مهل ،
اشبه بصدفّة تنشق مصاريحها على خفق حيوان حي ، غاطس في ماء
بحري رطيب . كان فمها يفتح ، ويفتح ، فتكشف الشفاه عن لثتها ،
وكنت اشعر في الوقت نفسه بذراع تحوط عنقي .

ارتعشت ارتعاشاً عنيفاً واستيقظت مما كان بالطبع غفوةً خلقها الصمت
وحرارة الشمس . كانت اميلي على بعد خطوات مني ، ما تزال متمددة
على الرمال ، ووجهها مخنّف تماماً بقبعتها القشبية . وادركت اني كنت
قد حلمت بهذه القبلّة ، او اني بالاحرى كنت قد عشتها في تلك الحالة
من الحنين الهاديء الذي كان يبدو وهو يحل دائماً محل الواقع الموثس وهماً
فتاناً . كنت قد قبلتها وبادلتني قبلي ، ولكن هذا العناق كان عناق

طيفين بعشتهما الشهوة ، منفصلين عن شخصيتنا الجامدين المتباعدين .
واحتوى نظري اميلي . وقلت لنفسي : « ولنفرض الآن اني احاول
حقاً ان اعانقتها ؟ » وسرعان ما اجبت نفسي : « انك لن تفعل شيئاً
من ذلك ، لشدة ما انت مشلول بالحجل وبالاحاساس باحتقارها لك . »
وفجأة ناديتها بصوت قوي :

— اميلي !

— ماذا هناك ؟

— لقد غفوت وحطمت بأني كنت اقبلك ...

فلم تقل شيئاً . وراعني هذا الصمت ، فأردت ان اغيّر الموضوع
وسألت ، كيفما اتفق لي :

— اين باتيسنا ؟

فأجاب صوتها الهاديء من تحت القبعة الكبيرة :

— لا ادري .. وبالمناسبة ، انه في هذا الصباح لن يتناول الفطور
معنا .. لقد ذهب يقوم بترهة في البحر مع رينغولد .

وقبل ان يتاح لي وقت للتفكير ، خرجت هذه الكلمات من شفطي :

— اميلي ، لقد رأيتك مساء أمس ، حين كان باتيسنا يقبلك .

— كنت اعرف ذلك .. لقد رأيتك ، انا ايضاً ..

وكان صوتها طبيعياً تماماً ، لا تكاد تضعفه اطراف القبعة .

وُدعرت ان اراها تتلقى تصريحتي على هذا النحو ، كما دُهشت
بقراري المفاجيء . وفكرت ان صمت البحر والحدّر الذي خلقته الشمس
كانا في الحقيقة قد أذابا ومحوا ، اذا صح التعبير ، خلافتنا ، في شعور
عام من اللاجدوى واللامبالاة . ومع ذلك ، فقد اضفت في جهد :

— اميلي ، يجب ان نتكلم كلانا ..

— ليس الآن .. اني اريد ان آخذ حمامي الشمسي وان اكون هادئة ..

- اذن ، فيما بعد ، بعد الظهر ؟
– اتفقنا ، اليوم بعد الظهر .
ونهضت ، ومن غير ان ألقى نظرة خلفي ، عدت اسلك الطريق
الذي يقضي الى المقصورة .

الفصل التاسع عشر

لم نتبادل ، على مائدة الغداء ، الا كلمات قليلة . وكان الصمت يبدو وهو ينفذ حتى صميم البيت مع النور الماجري . وكانت السماء والبحر اللذان يملآن التوافذ الواسعة يباعدان فيما بيننا ، فيما كانا يبهراننا ؛ فكأن هذا اللازورد كله كان يملك كثافة ماء يجري ، وكأننا كنا جالسين في قعر البحر ، مفصولين بالكتلة المائية المشرقة ، عاجزين عن الكلام . ومن جهة اخرى ، كنت مصمماً على ألا أواجه التفاهم مع اميلي قبل الساعة التي كنت قد حددتها انا نفسي . إن بإمكان المرء ان يفكر بان شخصين يقوم احدهما في وجه الآخر وبينهما مناقشة معلقة ، لا يفكران بشيء آخر ، في مثل هذه الظروف . ولم يكن ذلك وضعنا بالتأكيد ؛ اني لم اكن افكر بقبلة باتيستنا ولا بخلافنا الصميمي ؛ وكنت واثقاً من ان اميلي لم تكن اقل من ذلك بعداً عن هذا . كان ذلك التوقف الزمني ، وذلك الحذر ، وتلك اللامبالاة تتجدد كلها على نحو ما ، فتنصحنني في ذلك الصباح على الشاطيء بارجاء كل مناقشة الى ما بعد .

ونفضت اميلي بعد الغداء ، وقالت انها ذاهبة لتستريح ، وخرجت . وظللت وحدي لحظة من غير ان تحرك ، وانا انظر عبر النافذة الى خط الافق المشرق ، حيث كانت زرقة البحر القاسية تذوب مع لازورد

الماء العميق . وكانت سفينة صغيرة سوداء تتقدم على ذلك الخط كدبابية على خيط ممدود ، وكنت اتابعها بعيني وانا اتخيل ، بطفولة ، ما كان يحدث تلك اللحظة على الشاطيء : بحارة يلمعون النحاس او يغسلون الجسر ، وطباخ ينظف الاواني بين الجسرين ، وضباط ربما كانوا ما يزالون على المائدة ، وميكانيكيون نصف عراة يرمون رزماً من فحم في المحرقة .. كانت سفينة صغيرة جداً ، ليست اكبر من نقطة في عيني ، ولكنها عن كذب شيء عظيم ، مليء بالناس ، محمّل بالمصائر البشرية . وبالمقابل ، كنت افكر بان هؤلاء البحارة ربما كانوا هناك ، وهم ينظرون الى شواطيء كايري ، يحدثون في النقطة البيضاء الضائعة على الشاطيء ، من غير ان يدركوا ان هذه النقطة كانت المقصورة ، واني كنت فيها مع زوجتي ، وان احدنا لم يكن يجب الآخر ، وان اميلي كانت تحقرني ، واني لم اكن اعرف كيف استرد احترامها وجبها .

ولاحظت ان النعاس كان يستولي عليّ ، فعزمت في انتفاضة مفاجئة ان انقذ الجزء الاول من خطتي : ابلاغ رينغولد انني ، بعد تفكير ناضج ، عدلت عن التعاون معه . وخلقّت هذه الفكرة لديّ تأثير دوش بارد . وغادرت المقصورة وقد استيقظت تماماً .

وبعد نصف ساعة ، كنت قد اجتزت بخطوة سريعة الطريق الذي يستدير حول الجزيرة ، فدخلت قاعة الفندق . واعطيتهم اسمي ثم ذهبت اجلس على اريكة . وكان لدي شعور بانني انعم بصفاء ذهني كبير ، صفاء عصبي مزوج بالاهتياج . ولكنني كنت أحسني ، عبر العزاء المتزايد القرح الذي كنت اشعر به لدى التفكير بما سوف افعله ، سائراً على الطريق السوي . وبعد بضع دقائق دخل رينغولد القاعة ، واقبل علي بوجه مهموم ومفاجأ في وقت واحد ، مفاجأ بزيارتي في تلك الساعة مع خشية وجود أبناء سيئة . وسألته في تأدب :
- ربما كنت نائماً يا رينغولد ، فهل ايقظتك ؟

فقال مؤكداً :

— لا ، لا ، لم اكن نائماً ، فأنا لا أقبل ابداً .. ولكن تعال ،
يا موليتيني ، لنذهب الى المشرب .

وتبعته الى المشرب الذي كان خالياً في تلك الساعة . وسألني رينغولد ،
كما لو انه كان يريد ان يؤخر المناقشة التي كان يخشاها ، عما كنت
اريد ان اشرب : قهوة ام مشروباً ؟ وكان يعرض علي ذلك بهيئة تشبه
هيئة بخيل مقسور على القيام بضيافة سخية . ولكنني كنت ادرك ان
سبب استيائه كان شيئاً آخر ، وانه كان يؤثر ألاماً يراني . ولم ارد ان
أأخذ شيئاً ، وبعد بضع عبارات تافهة ، باشرت الحديث عن السبب
الرئيسي لزيارتي :

— انك مندهش بلا شك ان تراني اعود اليك مبكراً ، في حين
اني كنت املك النهار كله للتفكير ، ولكن بدا لي غير مجد ان انتظر
حتى الغد .. لقد بحثت القضية بما فيه الكفاية من العمق وأتيت ابلغك
نتيجة افكاري ..

— وما هي هذه النتيجة ؟

— انني لا استطيع المشاركة في هذا السيناريو ؛ انني بالاجمال اتخلى
عن هذا العمل .

— ولم يتلقَ رينغولد تصريحاً في دهشة ، فقد كان يتوقع ذلك طبعاً .
ولكنه بدا مأخوذاً بنوع من الهياج ، واجابني بصوت متغير :
— اسمع ، يا موليتيني ، لقد كنا بحاجة ان نتحدث ، انت وانا ،
حديثاً واضحاً .

— يبدو لي انني كنت واضحاً اشد الوضوح .. انني لن اكتب
سيناريو « الاوديسة » .

— ولماذا ، رجاءاً ؟

— لانني غير موافق على تفسيرك للموضوع .

فقال بصوت غير متوقع :

— انك اذن متفق مع باتيستا ؟

وغاظني بدوري هذا المهجوم الذي لم اكن اتوقعه . انه لم يسبق لي ان فكرت بان اختلفي مع رينغولد يعني بالضرورة اتفاتي مع باتيستا، وقد قلت في غضب :

— ما شأن باتيستا هنا ؟ انني لا اتبني وجهة نظره اكثر مما تبنيت وجهة نظرك .. ولكي اصارحك يا رينغولد اني اذا كان لي ان اختار بين الوجهتين ، لفضلت باتيستا عليك .. انني آسف ، ولكي اعتقد ان المرء اما ان يكتب اوديسة هوميروس او لا يكتبها .
— حفلة تنكرية بالتكنيكولور ، مع نساء عاريات ، وكغ — كونغ ، ورقصات البطن ، وعرض النهود ، ومسوخ من الورق المقوى ، وعارضات ! ..

— انني لم أقل ذلك ، بل قلت اوديسة هوميروس !

وانفجر رينغولد بلهجة اقتناع عميق :

— ولكن اوديسة هوميروس هي اوديسي ، يا مولتيي !
ولا ادري لماذا أحسست دفعة واحدة بالحاجة الى اثاره غضب رينغولد : لقد كانت بسمته الاحتفالية المزيفة ، وقسوته الطغيانية الحقيقية ، ونظراته التحليلية القصيرة اموراً لا تُحتمل عندي في تلك اللحظة . وقلت في غضب :

— لا ، إن اوديسة هوميروس ليست هي اوديستك ، بل اقول لك اكثر من ذلك ، ما دمت تدفعني الى النهاية ، إن الاوديسة تفتني ، وما تريد انت ان تصنعه منها ينفرني !

— مولتيي !

قالها رينغولد وهو يبدو هذه المرة مغتاضاً حقاً . فتابعت كلامي وقد انطلقت فيه :

— نعم ، إن « اوديستك تنفّرني ، ارادتك في ان تخفض البطل
الموميروسي لاننا لسنا قادرين على ان نصنعه مرة اخرى كما خلقه
هوميروس — إن عملية التشويه هذه تثير اشترازي ولن اشارك فيها بأي
شئ !

— مولتيني !... انتظر يا مولتيني !

فقاطعته غاضباً :

— هل قرأت « يوليسوس » لجيمس جويس ؟ اتعرف من هو

جويس ؟

فأجاب رينغولد بلهجة منزعجة الى ابعد حد :

— لقد قرأت كل ما يمت الى الاوديسة .

— لقه فسرّ جويس هو ايضاً الاوديسة تفسيراً عصرياً ... وفي هذه

الارادة بالتعصير ، اي بالتشويه والخفض والتدنيس ، ذهب أبعد منك
بكثير ، يا عزيزي رينغولد : لقد جعل من يوليسوس عكروناً ، شاذاً
جنسياً ، إمعة ، هروياً ، عاجزاً ، وجعل من بينلوب مومسا مجرّبة...
وقد أصبح « ايول » محرر جريدة ؛ والهبوط الى الجحيم جنازة رفيق
مدمن ، و « سيرسيه » زيارة لماخور ، والعودة الى « ايتاك » العودة
« الى البيت » ليلاً عبر شوارع دويلن ، مع توقف لقضاء حاجة جنسية
في زاوية من الزوايا . ولكن جويس تحفّظ على الاقل فلم يذكر البحر
الابيض المتوسط ولا البحر ولا الشمس ولا الاراضي البور القديمة ...
لقد وضع « يوليسوسه » في الشوارع المتشققة لمدينة شمالية ، في الحانات
والمواخير والمخادع والمراحض ... لا شمس ولا بحر ولا سماء .. ولكن
كل شيء هناك عصري ، اي منحط ، مشوه ، على قياسنا البائس...
اما انت يا رينغولد ، فلا تملك حتى تحفّظ جويس هكذا ، ولهذا ،
اكرر لك اني اذا دُعيت للتفضيل بينك وبين باتيستا ، افضل باتيستا...

لقد أردتَ ان تعرف اسباب رفضي العمل بهذا الساريو .. وانت الآن تعرفها .

وتداعيت للسقوط في أريكتي ، غارقاً بالعرق . وكان رينغولد يحدجني قاسياً ، جاداً ، مقطب الحاجبين :

— انتَ إذن بالاجال على اتفاق مع باتيستا ؟

— لا ، انا ببساطة على خلاف معك .

فقال رينغولد وهو يرفع صوته فجأة :

— عفواً ، لا على خلاف معي ، ولكن على اتفاق مع باتيستا ...

وأحسست فجأة الدم ينسحب من وجنتي ، ولا بد اني كنت ممثعاً الى حد الموت ، فقلت بلهجة مضطربة :

— ما الذي تقصده ؟

فقال رينغولد علي وقال بصوت يفح ، وهلة هي الكلمة المعبرة ، لأنه يذكر بأفني مُنحس أنها مهددة :

— أقصد ما أقصد... لقد تناولت الغداء مع باتيستا ، وهو لم يُخفِ

عني افكاره ، ولا حقيقة انك تشاطره ايها ... إنك على وفاق معه ،

مهما اراد .. وليس القن هو غايتك يا مولتيني ؛ إن ما يعينك هو المال..

هذه هي الحقيقة يا مولتيني .. إن شيئاً واحداً يهلك : ان تقبض ...

بأي ثمن !

فصحت محتجاً بصوت قوي :

— رينغولد !

فتابع ملحاً :

— لقد فهمت يا سيدي العزيز ، واكرر لك : بأي ثمن !

وكنا الآن وجها لوجه ، لاهئين ؛ كنت انا ممثعاً كورقة بيضاء ،

وكان هو في حمرة قرمزية . وقلت مردداً ، ولكني كنت ادرك ان

صوتي كان يعبر عن ألم أكثر منه عن غيظ :
- رينغولد !

وكانت هذه الصيحة تبدو رجاءً أكثر منها تعبيراً عن غضب رجل مهان ، يوشك ان ينتقل من العنف الكلامي الى الضرب . ولكني في الوقت نفسه كنت أشعر اني على وشك ان أصفح المخرج . ولم يتح لي الوقت لذلك . ولدهشتي الكبيرة ، بدأ رينغولد الذي كنت أحسبه ثقيل الذهن ، مدركا الألم الكامن في صوتي ، وبدأ فجأة يهالك نفسه ويسترد برودة اعصابه . وقد ابتعد قليلاً ، وقال بصوت منخفض اراده ان يكون متواضعاً :

- اعدرني يا موليتيني ، لم اكن افكر بما قلته !
فأتيت حركة عصبية كما لاقول « انني اعدرك » وشعرت بالدموع تصعد الى عيني . واستطرد رينغولد بعد لحظة ارتباك :

- حسناً .. لقد تفاهنا ... انك لن تشارك في هذا السيناريو .. هل أبلغت باتيستا ؟
- لا .

- وهل تفكر في ابلاغه ؟
- افعل انت نفسك ذلك .. انا لا اعتقد اني سأرى باتيستا من جديد .
وصمت لحظة ثم أضفت :

- وقل له ان يبحث عن سيناري آخر ... وليكن هذا واضحاً ،
يا رينغولد !

فسألني بدهشة :
- ما هو ؟

- انني لن اكتب سناريو عن الاوديسة ، لا وفق افكارك ولا وفق افكاره .. لا معك ، ولا مع مخرج آخر ... هل فهمت جيداً ؟

فعبّر عينيّه نور تفهّم . ولكنه سأل في حذر :
— ايكون ما ترفضه هو سناريوي انا ، ام السناريو بذاته ، على
اي حال ؟

فقلت بعد تفكير قصير :

— لقد سبق ان قلت لك اني لا اريد تفسيرك ؛ ثم اني أرى اني
اذا علّلت رفضي على هذا النحو ، أسأت اليك عند باتيستا .. ولذلك
فاننا سنتفق على ما يلي : انت تعلم اني غير موافق على تفسيرك ، ولكن
ليكن مفهوماً ، بالنسبة لباتيستا ، اني ارفض معالجة هذا الموضوع مها
كان التفسير الذي يُعطاه .. قل له لاني لا أحسنّ بالمستوى المطلوب ،
واني متعب ، وأني مصاب بانهايار عصبي ... ما رأيك ؟
فيدا رينغولد مرتاحاً ، ومع ذلك فقد قال ملحاً :

— وهل يصدق باتيستا ذلك ؟

— سيصدقه ، وليطمئن بالك ، سترى انه سيصدقه !

وتبع ذلك صمت طويل ؛ وكنا مترعجين كلانا ؛ وكان نزاعنا ما
يزال في الهواء ، وما كان بوسعنا ان ننسأه سريعاً . وقال رينغولد اخيراً :
— آسف جداً ألا تكون معاوني يا مولثيني .. وربما كان بإمكاننا
ان نضق !

— لا اعتقد ذلك ...

— ان اختلاف وجهات النظر بيننا ، ربما لم يكن كبيراً الى هذا
الحد ، بعد كل حساب ؟

فقلت بحزم وقد استرددت كل هدوئي :

— لا ، يا رينغولد ، لقد كان اختلافاً كبيراً جداً . إن من الممكن
ان تكون على حق وانت ترى الاوديسة من وجهة نظرك .. اما انا ،
فاني من وجهتي مقتنع بان الاوديسة ، حتى اليوم ، يمكن ان تُقدّم كما

كتبها هوميروس .
فأجبت بلهجة مصالحة :
- لنفترض ذلك .. ولكني أصبر الى عالم شبيه بعالم هوميروس ،
اما انت ، فلا ...
- انت على خطأ يا مولتي : انا ايضاً ... فنذا الذي لا يصبو
اليه ؟ ولكن حين تكون القضية قضية صنع فيلم ، فان الاحلام لا
تكفي ...
صمت آخر . ونظرت الى رينغولد ، وكنت ارى انه بالرغم من
ادراكه لاسبابي لم يكن مقتنعاً تماماً . وسألته فجأة :
- انت تعرف بلا ريب انشودة يوليسوس في « المهزلة الآلية » !
فأجاب وقد أدهشه سؤالتي قليلاً :
- نعم اعرفها ، ولكني لم أستحضرها تماماً في ذهني ...
- اسمح لي ان اتلواها عليك ، فانا احفظها عن ظهر قلب ...
- اذا كان ذلك يترك ...
ولم اكن ادري حقاً ما الذي كان يدفني لتلاوة هذ المقطع من
دائتي ؛ وفكرت فيما بعد ان ذلك ربما كان يبدو لي افضل طريقة لأن
أردد لرينغولد بضعة أشياء من غير ان اجازف باهائته من جديد . وفيما
كان المخرج مستريحاً في اريكته هيئة الاستسلام ، قلت :
- إن دائتي يجعل يوليسوس يروي نهايته ونهاية رفاقه ..
- اعرف ذلك يا مولتي ، اعرفه ، اقرأ ...
فريث لحظة ، منخفض العينين ، ثم بدأت :
- ان الاشكال الاكبر في الاسطورة القديمة ...
وتابعت بلهجة عادية ، متجنباً التضخيم ما وسعني ذلك . وبعد ان
تأملني رينغولد لحظة ، مقطّب الحاجبين تحت قبعته القماشية ، صرف
نظره نحو البحر وكف عن الحركة . وتابعت في هدوء ، بصوت صاف ،

ولكني ابتداءً من البيت :

اوه ! يا اخوتي بمئات الالوف ...

أحسست ان انفعالاً مفاجئاً كان بالرغم مني يُرعرش صوتي . وكنت انكر فعلاً بأن هذه الايات كانت تعبيراً لا فقط عن الفكرة التي اكونها عن شخصية يوليسوس، بل كذلك عن الفكرة التي اكونها عن نفسي وعن حياتي كما كان ينبغي ان تكون ولم تكن مع الاسف كذلك . وكنت أشعر أن هنا الانفعال كان يصدر عن المفارقة بين وضوح هذه الفكرة وجمالها وبين عجزتي الحقيقي . ومع ذلك ، فقد مجحت في امتلاك رعشة صوتي ، وتابعت من غير انقطاع حتى آخر بيت :

الى ان ينغلق البحر ثانية علينا ...

واذ انتهيت ، نهضت مستأذناً . وكذلك فعل رينغولد ، وهو يقول

بسرعة :

— اسمح لي يا موليتيني ، اسمح لي ... لماذا قرأت علي مقطع داتني

هذا ؟ انه جميل جداً ، ولكن ما هو السبب ؟

— لأن هذا ، يا رينغولد ، هو يوليسوس الذي كنت اريد ان

أصوره ... انني هكذا اراه .. وقد حرصت قيل ان اتركك على ان

أوكدك لك بصورة لا تحمل الشك .. وقد خيل الي أن هذا المقطع كان

يشرحه لك خيراً من كلماتي ...

— طبعاً ... ولكن داتني هو داتني : رجل من القرون الوسطى ،

اما انت يا موليتيني ، فن العصر الحديث ...

ولم اجب هذه المرة ، ومددت له يدي ، ففهم وأضاف :

— على اي حال ، يؤسفني يا موليتيني كثيراً ان استغني عن مساعدتك

لقد كنت تعودت عليك ...

— سيكون ذلك لمرة اخرى .. انا ايضاً كنت أتمنى ان اعمل معك.

ولكن ، لماذا إذن ، يا موليتيني ؟

فقلت باسماء وانا اشد على يده :

– القدر !

وابتعدت . وبقي هو امام الطاولة ، في المشرب ، متدلي الذراعين ،
في حركة حائرة كما لو انه ما يزال يتساءل عن السبب .
وخرجت بسرعة من الفندق .

الفصل العُشرون

كانت عجلتي للعودة الى البيت مثلها في مغادرتي ، وبفاد صبر وحاسة شديدين لم يكونا يسمحان لي بالتفكير في هدوء بما حدث . والحق اني لم اكن افكر في شيء وانا اعدو تحت الشمس المحرقة ، عبر الطريق الاسمنتي الضيق . ولكني كنت أحس انه قد وُضع أخيراً حدٌ لجمود وضع طال أكثر مما ينبغي ، واني عما قليل سأعرف لماذا كانت اميلي قد كفت عن حبي : ولم يكن شيءٌ موجوداً بالنسبة لي ، فيما وراء هذا اليقين . إن التفكير يتعلّق باللحظة التي تسبق العمل او تليه ؛ اما ما يقودنا في إبتان العمل فهي افكارٌ منسية ، حولتها روحنا الى اهواء. كنت أعمل ، فلم أكن إذن افكر . ولكني كنت اعرف ان فكري سيستيقظ فيما بعد ، بعد ان تم الاعمال الضرورية .

واذا بلغت المقصورة ، رقيت ركضاً السلم المؤدي الى السطحة ودخلت غرفة الجلوس . وكانت خالية ، ولكن مجلة مفتوحة على اريكة ، وأعقاب سجائر محمّرة في المنفضة والراديو الذي كانت تنبعث منه موسيقى راقصة خافتة ، كل ذلك كان يشهد بأن اميلي كانت حاضرة منذ لحظات . ولست ادري ، أكان السبب روعة ذلك النور الاصيلي المعتدل العذب ، او تلك الموسيقى الخافتة ، ولكن غضبي هداً دفعة واحدة بينما كانت

العوامل التي اوحى به ما تزال على وضوحها وعدم ترعزها . وتوقفت قبل كل شيء عند المظهر الهاديء الفاره الاليف لغرفة الجلوس هذه . فكأننا كنا نسكن هذا البيت منذ أشهر ، وكأن اميلي كانت قد اتخذت فيه عاداتها كما لو انه بيت نهائي . لقد كان ذلك الراديو ، وتلك المجلة ، وهذه السجائر المدخنة نصف تدخين ، تدكرني بهوس اميلي القديم ببيتها ، وتلك الصبوة المؤثرة ، الغريزية والانثوية ، الى المنزل ، والى الاستقرار فيه . واذن ، فقد كانت ، رغم الظروف والاحداث ، تهيء نفسها لاقامة طويلة ، سعيدة ان تكون في كابري ، في بيت باتيستا . والحال اني كنت قادماً لابلغها انه كان علينا ان ننصرف .

واتجهت مهموماً الى غرفة اميلي وفتحت الباب . ولم يكن فيه أحد ، ولكني لاحظت هناك ايضاً آثار عاداتها البيئية : الروب ديشامر الممدد بعناية على أريكة ، والخلفين عند أسفل السرير ، وزجاجات الزينة والعلب الصغيرة وجميع ادوات التجميل مصفوفة على الرف ، امام المرأة ؛ وعلى الطاولة ، كان ثمة كتاب نحو انكليزي ، لانها كانت منذ حين قد شرعت في دراسة هذه اللغة ، ودفتر لتعريفاتها ، وقلم .. أما الحقائق المحمولة من روما ، فكانت قد اختفت . وفتحت الخزانة بحركة غريزية : كانت اثواب اميلي القليلة معلقة بمشاجب ، وكانت قد وضعت على احد الرفوف مناديل واحزمة وشرايط وزوجاً من الاحذية . وفكرت متسائلاً ماذا كان يهتمها ان تحبني او تحب باتيستا ، ما دام لها بيت ، وما دامت تستطيع الاعتماد على اقامة طويلة ، بلا ادنى هم .

وخرجت من الغرفة ، وتوجهت عبر ممر صغير نحو المطبخ الذي كان يقوم في بناية صغيرة متصلة بالمقصورة . وعلى العتبة ، سمعت صوت اميلي التي كانت تتحدث الى الطباخة . وبقيت آلياً خلف الباب لأصغني .

وكانت اميلي تعطي تعليقاتها بشأن العشاء . كانت تقول :
- ان السيد مولتيي يحب الطبخ السهل ، بلا مرق ... المسلوق
والمشوي على العموم .. وهذا افضل لك يا انيزينا ، فهذا ما يخفف
عملك .

- اوه ! ان هناك يا سيدتي ما يشغلني دائماً .. حتى الطبخ السهل ،
ليس سهلاً الى هذا الحد ! إذن ، ما الذي سنصنعه لهذا المساء ؟
صمت قصير . ولا بدّ ان اميلي كانت تفكر ، ثم سألت :
- أمن الممكن إيجاد سمك في هذه الساعة ؟

- نعم ، اذا قصدت البائع الذي يورّد للفنادق .
- إشتري إذن سمكة كبيرة جميلة بوزن كيلو او اكثر .. سمكة
دقيقة ، ليس فيها حسك كثير ، مرجانة او عجل بحر .. ما تجدينه
اخيراً ، وضعيها في الفرن او اسلقها جيداً .. وهل تحسّنين صنع
المايونيز ، يا انيزينا ؟
- نعم ، يا سيدتي .

- حسناً .. اذا سلقت السمكة ، لصنعي مايونيز ، ثم سلطة او
خضرة ما ، جزر او كوسى او لوبيا .. ما تجدينه ، وخصوصاً
فاكهة ، فاكهة كثيرة تضعينها في التلاجة فور عودتك من السوق حتى
تكون باردة عند تقديمها ..

- وبمّ تبدآن ، يا سيدتي ؟
- آه .. صحيح .. البله ! ليكن لهذا المساء شيئاً سهلاً جداً :
اشتري لحم خنزير ، لا لحم الجبل المبالغ في تملّحه ، ثم بعض التين
في الوقت نفسه .. هناك تين ، أليس كذلك ؟
- نعم ، يا سيدتي .

بينما كنت أسمع هذه المحادثة المتزلية التافهة ، الهادئة ، كانت
الكلمات الاخيرة التي تبادلتها مع رينغولد تعاودني ، لا ادري لماذا . لقد

قال لي اني كنت اصبو الى عالم شبيه بعالم الاوديسة ، فأقررت على ذلك ؛ ولكنه ردّ بأن صبواتي كانت لا مجدبة ، باعتبار ان العالم العصري لا شأن له بعد بعالم الاوديسة . ومع ذلك ، فقد فكرت بان الوضع تحت عينيّ يمكن ان يكون التمثيل الدقيق للظروف التي سادت في عهد هوميروس : سيدة البيت تتحدث مع خادمتها وتعطيها اوامرها من اجل العشاء .. لقد ايقظت هذه الفكرة في صورة هذا النور الجميل العذب الذي كان يملأ الصالة ، واصبحت مقصورة بانيسنا ، كما يفعل السحر ، بيت « أيتاك » ، واصبحت اميلي بينيلوب وهي تتحدث الى خادمتها . أجل ، لقد كنت على حق ، فقد كان كل شيء كالسابق ، او يمكن ان يكون كالسابق ؛ وكان كل شيء مختلفاً اختلافاً مرأ . وتقدمت نحو العتبة وناديت :

— اميلي !

فالتفتت ولم تكلم ، وسألت :

— ماذا تريد ؟

— تعلمين اني اريد التحدث اليك .

— اذهب فانتظرنني في الصالة .. ان لديّ عملاً آخر مع انيزينا ،

ولكنني آتية على الفور .

وعدت الى الصالة فجلست على احدى الارائك وجعلت انتظر . وكانت فكرة تملقني الآن ، ندم مسبقاً لما سوف اقوم به . لقد كانت اميلي ، بحسب الظواهر ، تتوقع اقامة طويلة في المقصورة ، وهأنذا على وشك ان اطلب اليها الذهاب . وكنت اتذكر الطريقة التي ابلغتني بها عزمها على تركي ؛ واذا قارنت موقفها ذاك اليائس تقريباً ، بهدوء سلوكها الحالي ، فكرت بانها بعد كل حساب قد صممت على ان تعيش معي ، حتى ولو كانت تحقرني . وبالاجمال ، فان الوضع غير المحتمل الذي كانت تنور عليه آنذاك ، كانت تقبله الآن . ولكن هذا القبول كان

أكثر اهانة لي من كل ثورة وتمرد ، اذ هو لديها علامة سقوط ، علامة انهيار ، كما لو انها لم تكن مسرورة بان تحترقني ، فكانت تتجمع هي نفسها في. هذا الاحتقار . وكانت هذه الفكرة كافية لأن تطرد من ضميري التدم الخفيف الذي كان يعكره . أجل ، كان علينا ، من اجلها هي ومن اجلي ، ان نذهب ، وكنت على وشك ان ابلغها رحيلنا .

وانظرت لحظة اخرى ، ثم دخلت اميلي ، فذهبت تسكت الراديو ، وجلست :

– كنت تريد ان تحدثني ؟

فأجبتها :

– هل افرغت حقائبك ؟

– نعم ، لماذا ؟

– اني آسف .. ستكونين مضطرة الى ملثها من جديد .. فغداً صباحاً سنعود الى روما .

فلم تتحرك ، كما لو انها لم تفهم . ولكنها سألت بصوت خشن :

– ولكن ماذا حدث ، من جديد ؟

فأجبت وانا انهض لأغلق الباب المطل على الممر :

– حدث اني عزمت على ألا اكتب الساريو .. لقد تخلت عنه ..

فليس امامنا اذن الا ان نعود الى بيتنا .

فردت ببرودة مفاجئة :

– كنت مساء امس على رأي مختلف .. ومع ذلك ، فقد كنت على

علم بالامور ..

– مساء امس تركت نفسي اقتنع بحججك .. ولكني فهمت اني لم

يكن لي حق بان اعتبرها .. انني لا اعرف الدافع لنصيحتك لياي بان

اكتب هذا الساريو ، ولا اريد ان عرفه .. كل ما ادرسه ان من

الاقضل ، لي ولك على حد سواء ، ان اتخلي عن المشروع .

فطرحت عليّ سؤالاً لم اكن اتوقعه :

– وهل علم باتيستا بالامر ؟

فأجبت :

– انه لا يعلم شيئاً ، ولكنني ذهبت الي رينغولد واخبرته .

– لقد اسأت التصرف كثيراً !

– لماذا ؟

فقالت بلهجة قاسية وغير واثقة :

– لقد كنا بحاجة الي هذا المال لندفع اقساط الشقة .. ومن جهة

اخرى ، قلت لي انت نفسك اكثر من مرة إن التخلي عن عقد ما يعني

اغلاق الباب دون أعمال آتية ... لقد اسأت التصرف ... وما كان

ينبغي لك ..

واغتظت بدوري ، فصحت :

– الا تدرकिन ان وضعي لم يعد يُحتمل ، واني لا أستطيع بعدُ

أن اتلقى مالاً من رجل .. يحاول ان يغوي زوجتي ؟

فلم تجب اميلي . واستطردت :

– انني ارفض السيناريو لاني اذا قبلته ، في الظروف الحالية ،

كنت مفتقراً الي الكرامة .. ولكنني ارفضه كذلك من أجلك ، بسبيك ،

لكي تعيدي النظر في حكمك عليّ .. انني أتساءل لماذا تعتبريني رجلاً

جديراً بأن يقبل عملاً في مثل هذه الظروف .. انت على خطأ ، فلست

هذا الرجل !

ورأيت شعاعاً معادياً وساخراً يعبر عينيها :

– اذا كنت تتصرف على هذا النحو من أجلك أنت ... فهذا

معقول ومقبول .. اما اذا كان بسبيبي ، فما يزال المجال امامك لتغيير

قرارك .. انك تقوم بعمل غير مجد .. أوكد لك ذلك .. وهذا لن

يفيد الا في الاساءة اليك ، هذا كل شيء !

— ماذا تنصدين ؟

— لا أقصد غير ما أقول : إن هذا لن يجدي شيئاً .

وأحسست البرودة تصعد الى صدغي ، وفهمت اني كنت اصفر :

— لماذا ؟

— قل لي اولاً : ما هو التأثير الذي كنت تعتقد انك تمارسه

عليّ بقرارك ؟

وإذن ، فقد جاءت اللحظة للمناقشة النهائية . كانت اميلي هي نفسها

تعرضها عليّ . وفجأة استولى عليّ الخوف :

— لقد قلت لي منذ فترة ، انك كنت تحقريني .. وهذه عبارتك

بالذات .. ولا أدري لماذا فقدت احترامك .. ولكني أعرف ان المرء

لا يحقر الا الاشخاص الذين يقومون بأعمال جديرة بالاحترار .. والحال

ان قبولاً هذا الساريو اليوم سيكون امراً جديراً بالاحترار .. وعلى

قراري ان يثبت لك اني لست ما تظنين .. هذا كل شيء !

وسرعان ما أجابت بلهجة انتصار ، وكأنها مسرورة ان تراني أسقط

في الشرك :

— إن قرارك لا يثبت لي شيئاً البتة ... ولهذا أنصحك في ان

تغيره ..

— كيف ، لا يثبت شيئاً ؟

وعدت الى الجلوس ، وبحركة شبه آلية كانت تخفي اضطرابي ،

مددت يدي لآخذ يدها التي كانت تستريح على ذراع أريكتها :

— اميلي .. أنت التي تقولين لي ذلك ؟

فسحبت يدها بسرعة :

— ارجوك ... كفى هذا ... لا تلمسني ... لا تحاول بعسدي ان

تلمسني .. انني لا أحبك ولن يكون ممكناً لي بعد ان احبك ابداً .

فسحبت يدي ، وقلت وقد جُرحتُ جرحاً عميقاً :
— لا نتحدث عن حيننا .. انت علي حق .. ولكن لتحدث عن ..
عن احتقارك .. وإذن ، فحتى اذا رفضت هذا السيناريو : ستظلم علي
احتقارك لي ؟

فنهضت فجأة ، كأنها فريسة ألم مفاجيء :
— نعم ، سأظل .. ثم دعني وشأني ..
— ولكن لهذا الاحتقار سبباً ، علي ما أظن ..
— أنت هو السبب ، ما أنت عليه .. وجميع جهودك لن تغير في
الامر شيئاً .

— ولكن ماذا أنا عليه ؟
— ماذا ؟ انا لا احري .. انك لا بدّ تعرف .. إن ما اعرفه انك
لست رجلاً .. انك لا تتصرف تصرف الرجال !
ومرة اخرى استوقفتني المفارقة بين وضوح الشعور الذي كان بين
في كلماتها ، وعدم الدقة والحرق في كلماتها بالذات التي هي مصادر
البراهين .. وسألته بغضب بارد ممزوج بالسخرية :
— ماذا يعني : ان يكون المرء رجلاً ؟ الا تفهمين ان ليس لهذا
ايّ معنى ؟

— كفى ، كفى .. انت تعلم جيداً ماذا أعني ..
وكانت قد انجهدت الى النافذة وأولتني ظهرها وهي تحدّثني . وأخذت
رأسي بين يديّ ، ونظرت اليها لحظة ، وانا بائس . لكأنها لم تكن
توليبي ظهرها وحده ، بل روحها كلها . لأنها لم تكن تريد ، او ربما
لم تكن تعرف ان تعبّر عن رأيها . يقيناً ان احتقارها كان قائماً علي
دافع مشروع ، ولكنه لم يكن واضحاً بما فيه الكفاية لتستطيع صياغته في
دقة ، فكانت إذن تفضّل ان تعزو هذا الاحتقار الى خاصية في طبعي
جديرة بالاحتقار وراثياً ، غير قابلة للشرح ومن ثم لا سبيل الى شفائها.

وتذكرت فجأة تفسر رينغولد لسوء التفاهم الزوجي بين يوليسوس وبينيلوب ، فانبثق في اعماقي ضوء مفاجيء . « وما يدريني ان اميلي قد أحست بأني منذ بضعة أشهر قد لاحظت ان باتيستا يغازلها ؟ ما يدريني ان تكون قد اعتقدت اني كنت أحاول أن استغل الفرصة ... واني بدلاً من ان اثور ، بالاجال ، كنت أشجع بدافع من المصلحة ، مقاصد باتيستا »

كان جديراً بمثل هذه الفكرة ان تقطع نفسي ، لأنني في الوقت نفسه كنت أتذكر بعض أحداث ملتبسة كان يمكن ان تثبت شكلي ؛ منها ، على سبيل المثال ، في ذلك المساء الاول الذي خرجنا فيه مع باتيستا ، تأخري المعزو الى حادث اصطدام ، ولكنها استطاعت ان تنسبه الى حساب دقيق من جانبي لكي اتركها وحدها مع المنتج .

وقالت اميلي فجأة : كما لتؤكد افكاري ، من غير ان تلتفت اليّ : - ان الرجل الرجل لا يتصرف كما تصرفت انت مساء أمس ، بعد ان رأيت ما رأيت .. اما انت ، فقد جئت بكل لطافة تسألني رأبي ، كما لو ان شيئاً لم يكن .. مؤملاً ان أعطيك النصيحة بأن تكتب ، مع ذلك ، السيناريو .. وقد أعطيتك إياها ، هذه النصيحة التي كنت تنتظرها ، وقد قبلتها .. واليوم ، إثر صعوبات لا ادريها مع الالمانى ، تأتي لتقول لي انك قد عدلت عن هذا العمل اكراماً لي ، لأنني أحتقركُ ولأنك لا تريد ان أحكم عليك بأنك جدير بالاحتقار .. ولكنني اعرفك الآن ، وافهم جيداً انك لم تعدل بملء ارادتك عن ذلك العمل ، وان الالمانى هو الذي جعلك تعدل .. وعلى اي حال ، لقد فات الاوان .. لقد كوتت فكرتي عنك ، وبامكانك ان ترفض جميع سيناريوهات العالم ، فلن أغير هذه الفكرة .. فن غير المجدي إذن ان نعتقد الامور على هذا النحو .. لإقبل هذا العمل ودعني وشأني ، مرة ، والى الابد! . هكذا كنا ندور دائماً في الدائرة نفسها : كانت تحقروني ولكنها

كانت ترفض ان تدلي بالسبب . وكنت أنقر نقوراً عميقاً من أن أصوغ
أنا نفسي أسبابها ، لأنها كانت اولاً لثيمة ، ولاني اذا صغتها كان
يبدو لي اني اقبل على تحجر ما أساسها المتين . ومع ذلك ، فلئن كنت
اريد ان اذهب الى اعماق القضية ، فلم يكن لدي شيء آخر اعمله .
وقد رسخت صوتي وقلت بأهدأ ما أستطيع :

— اسمعي يا اميلي ، انك تحتقريني ولا تريدان ان تقولي لي لماذا ..
ربما كنت انت نفسك لا تعرفين السبب .. ولكن لي الحق ان اعرف
لأنبت لك ان نظرتك خاطئة ، ولأستطيع ان أبريء نفسي .. اسمعي ،
اذا قلت لك أنا لماذا تحتقريني ، هل تعديني ان تجيبيني ان كنت اقول
الحق ام لا ؟

وظلت جامدة امام النافذة ، مديرةً ظهرها . من غير ان تجيب .
ثم قالت بصوت متعب ، حائق :

— لا أعدك بشيء ! اوه .. دعني في سلام !

قلت على مهل :

— إن السبب هو هذا : لقد تصوّرت ، معتمدة على مظاهر
خادعة ، اني .. لم أكن أجهل شيئاً عن باتيستا .. واني كنت ،
بدافع المصلحة ، افضل ان اغمض عيني ، او حتى ان ادفعه بين
ذراعيك .. أليس كذلك ؟

ورفعت عيني عليها ، منتظراً جوابها ، ولكن هذا الجواب لم يأت.
كانت اميلي صامته ، وعيناها تحدقان بشيء ما فيما وراء النوافذ .
وأحسستني فجأة أحرّ حتى الاذنين ، خجلاً مما قلت ، وكنت أدرك
ان مجرد النطق بذلك كان يمكن ان تفسره كبرهان اضافي يبرر احتقارها.
وعجلت اضيف ، متأسفاً :

— ولكن هذا غير صحيح يا اميلي ، فأنت مخطئة .. فحتى الامس،
لم أكن أعرف شيئاً من سلوك باتيستا .. وانت حرة طبعاً في ان تصدقيني

او لا ، ولكن اذا كنت لا تصدقيني ، فلأنتك تريدني ان يتاح لك ان تحقريني بالرغم من كل شيء ، وانك ترفضين ان تفتحي عيني ، وانك تمنعيني من ان ابريء نفسي .

وظلت على صمتها ، فأدركت اني احكمت تسديد الضربة ؛ لعلها لم تكن تعرف حقاً لماذا كانت تحقرني ، ولكنها كانت تفضل على اي حال ألا تعرف ذلك ، وان تستمر في اعتباري محقراً بلا دافع ولا براهين ، كما يرى المرء ان فلاناً اسمر ، بطبيعته ، او ان له عينين زرقاوين . صحيح اني لم اكن قد عرفت ان اقنعها ، ولكن هل تملك البراءة دائماً نبرة الحقيقة ؟ كنت يائساً ومدفوعاً بطاقة داخلية اقوى من كل محاكمة عقلية فأحسست الحاجة لان اضيف الى كلامي حجة مادية ؛ ونهضت لآخذ اميلي من ذراعها وابتهل اليها قائلاً :

— اميلي ، لماذا تكرهيني الى هذا الحد ؟ الا تستطيعين ان ترتقي ، حتى ولو لحظة واحدة ؟

فلاحظت انها كانت تصرف وجهها عني ، كما لتخفيه . ولكنها تركتني أشد على ذراعها ، وحين تقدمت ولمس جنبي خاصرته ، لم تراجع . واذذاك تشجعت واخذتها من قامتها ، فقالت بصوت مرتفع :
— لن اغفر لك ابداً .. ابداً لن اغفر لك انك هدمت حيناً .. لقد كنت احبك كثيراً ، ولم احب احداً سواك .. ولن احب شخصاً آخر ابداً .. ولكنك هدمت بتصرفك كل شيء .. كان بإمكاننا ان نكون سعيدين جداً معاً .. اما الآن فكل شيء مستحيل .. فكيف تريدني ان أرق ؟ وكيف لا انقم عليك ؟

ولا ادري اي امل تحرك في نفسي : انها رغم كل شيء تقول بأنها سبق ان احببتي ، واني كنت حبها الوحيد .. وتمتت وانا اشدها بلطف اليّ :
— اسمعي ، انك ستملأين الحقايب وسنساغر غداً صباحاً .. وفي روما سأشرح لك كل شيء ، وسوف تقنعين ، انا واثق من ذلك .

وتحررت من ضمّي هذه المرة ، بما يشبه العنف ، وصاحت :
لن اذهب ! ماذا تريدني ان أفعل في روما ؟ يجب عليّ ان اترك
البيت ، وما دامت امي لا تريدني ، فعليّ ان اذهب لأعيش في غرفة
صغيرة ، وان اعود لممارسة الضرب على الآلة الكاتبة .. لا ، لا .. اني
لست ذاهبة .. بل انا باقية هنا .. انني بحاجة الى الهدوء والراحة ..
اني باقية ، فاذهب انت اذا شئت ، اما انا ، فباقية .. وقد قال لي
باتيستا ان بإمكانني ان ابقى هنا ما شئت ..

وغضبت بدوري فقلت :

- بل ستنهين معي ، صباح الغد ..
 - انت على خطأ يا صديقي العزيز ، فانا باقية هنا ..
 - اذا كان الامر كذلك ، فانا باق ايضاً ، وسأصرف على نحوٍ
يحمل باتيستا على طردنا كلينا ..
 - انك لن تفعل ذلك !
 - بل سأفعله !
- فرمقتني لحظة ، ثم غادرت غرفة الجلوس من غير ان تقول كلمة .
واصطلق باب غرفتها ، وسمعت صوت المفتاح يُدار في القفل .

الفصل الحادي والعشرون

هكذا : ارتبطت بهذا التصريح الذي نطقت به في حركة غاضبة :
« انا ايضاً ، سأبقى ! » ولكن ما كادت اميلي تغيب عني حتى ادركت استحالة البقاء : فالشخص الوحيد الذي كان ينبغي ان يرحل ، هو أنا. كنت قد نكثت التزاماتي مع رينغولد وباتيستا ، وكل شيء يدعو الآن الى التفكير اني قطعت علاقاتي مع اميلي . كنت زائداً على اللزوم ، فكان ينبغي ان ارحل . ولكني كنت قد صحت في اميلي اني باق ، وقد كنت في الحقيقة اريد البقاء ، سواء بدافع من بقية امل ، او على صييل الانتقام . ولو كانت الظروف مختلفة ، لكان الوضع مضحكاً ؛ اما بالنسبة لحالتي النفسية اليائسة ، فلم يكن الوضع الا مقلقاً ، اشبه بوضع متسلق للجبال يلاحظ حين يبلغ في صعوده نقطة خطيرة ، انه لا يستطيع ان يبقى حيث هو ، ولا ان يتقدم الى الامام ، ولا ان يعود الى الوراء . واخذت اذرع الصالة جيئة وذهاباً وانا فريسة اضطراب مفاجيء قلتي ، اتساءل ماذا ينبغي ان افعل . لقد كان يستحيل عليّ ان اجلس على الطاولة بين اميلي وباتيستا كما لو ان شيئاً لم يحدث ؛ وذات لحظة ، خطر في بالي ان اذهب فأتناول العشاء في كابري وان اعود متأخراً في الليل . ولكني كنت قد قطعت المسافة بين المقصورة والقرية

اربع مرات في اثناء النهار ، وانا أعدو عدواً ، في صميم الشمس ؛
وكنت احسني متعباً ، ولم اكن املك القوة على مجابهة هذا التعب مرة
اخرى . ونظرت الى ساعتني ، فكانت تشير الى السادسة . اذن فان
امامي بعد ساعتين على الاقل قبل موعد العشاء : فاذا افعل ؟ وعزمت
اخيراً ، فقصدت غرفتي واغلفت الباب بالمفتاح ، ثم اغلقت المصاريع
فساد الظلام ، وارتميت على سريري .

كنت متعباً حقاً ، وما كدت اتمدد حتى التمسيت اعضائي غريزياً
الوضع الملائم للنوم . واستسلمت لجسمي الذي كان أعقل من فكري ،
فكان يعطي بصورة طبيعية جواباً صامتاً على سؤالي المقلق : ما العمل ؟
ولم البث طويلاً حتى سقطت في نوم عميق .

نمت نوماً ثقيلاً ، من غير أحلام ؛ ثم استيقظت فحكمت من
الظلام الكامل الذي كان يسود الغرفة ان الوقت كان متأخراً . ونهضت
فذهبت افتح النافذة : كان الليل قد هبط بالفعل ، واضأت النور
ونظرت الى ساعتني : كانت الساعة التاسعة . وكنت اعلم ان موعد العشاء
هو في الثامنة ، او الثامنة والنصف على ابعد حد . وبرز من جديد
لذهني السؤال : ما العمل ؟ ولكنني كنت قد ارتحت ، فجاء الجواب
هذه المرة جريئاً ولا مبالياً : « انني بعد كل حساب ضيف المقصورة ،
فليس لي اي عذر في ان اختبيء .. واذن فسأمثلُ على المائدة وليحدث
ما يحدث .. » بل لقد كنت احسني مدفوعاً بروح محاربة ومستعداً
لمواجهة مشاجرة مع باتيستا حتى لا يبقى امامه الا ان يقذفنا خارجاً ،
كما كنت قد هدّدت اميلي بذلك . وبسرعة رتبّت مظهري وغادرت
غرفتي .

ولكن قاعة الجلوس كانت فارغة ، بالرغم من ان المائدة كانت
مهياًة في الركن المألوف . غير انه لم يكن ثمة الا صحن واحد . وما
لبثت الخادمة ان ظهرت واخبرتني ان باتيستا واميلي قد خرجا لتناول

العشاء في كابري ، وأن بوسعي ان ألحق بهما اذا شئت ، في مطعم « بيلاستا » . والا فبوسعي ان اتناول العشاء في البيت ، باعتبار ان الطعام جاهز منذ أكثر من نصف ساعة .

ورأيت ان اميلي وباتيسا كانا ، مثلي ، قد تساءلا : ما العمل ؟ وانهما اجابا عليه باسبب طريقة ممكنة ، اذ ذهبوا وتركاني وحدي سيد الساحة . على اني لم احس هذه المرة حسداً ولا غضباً ولا خيبة ؛ وفكرت ببعض الاسى انهما كانا قد قاما بالشيء الوحيد الذي يمكن القيام به ، ولم يكن بإمكانني الا ان اقابلهما بالعرفان انهما جنّاني لقاءً مزعجاً . ثم انني فهمت ان هذه الخطوة في الغياب كانت تهدف الى اغرائي بالذهاب ، وانهما اذا استمرا في تطبيقها في الايام التالية فلن يبقى امامي الا ان ارحل . ولكن ذلك كان ممتاً الى مستقبل كان ما يزال غير مؤكد . ولهذا قلت للخادمة اني سأناول العشاء في البيت ، وان بوسعي ان تقدمه لي ، ثم جلست الى المائدة .

وأكلت من اطراف شفتي ، بلا قابلية ، فلم اكد آخذ أكثر من قطعة صغيرة من لحم الخنزير الذي كان مملأً بالطبق ، ونفثة من السمكة الضمخة التي كانت اميلي قد طلبتها من اجل ثلاثة اشخاص . وبعد بضع دقائق ، ارجعت الطعام ، وقلت للخادمة اني ذاهب لأنام وانني لست بعد بحاجة اليها . ثم خرجت الى السطحة .

كانت ثمّة بضع كراسي طويلة مجمعة في ركن ، فأذيت احداها من الحاجز وتمددت عليها تجاه البحر الذي كان الليل قد بدأ يبتله . كنت قد عزمت ، وانا عائد الى المقصورة بعد محادثتي مع رينغولد ، على ان اتعمق في هدوء فهم كل ما حدث ، عندما تتوضح الامور مع اميلي . وكنت ادرك في هذه اللحظة اني كنت ما ازال اجهل كل شيء عن الاسباب التي من اجلها كفت اميلي عن ان تحبني ؛ ولكن لم يخطر ببالي ان الامور، بعد ان قابلتها ، لن تتضح أكثر من السابق . بل على

العكس كنت اقنع نفسي بان مناقشتنا ستلقي الضوء النسبي ، على الاقل ، على ما لم يكن حتى ذلك الحين الا ظلاماً هائلاً . بحيث انه سيكون بوسعي ان اصيح : « ليس الا هذا ! وانت لا تريدان أن تحببني لمثل هذا السبب التافه ! »

والحال انه قد حدث ما لم اكن اتوقع ؛ لقد عرفت موقف اميلي - او على الاقل ما كان ممكناً ان اعرفه من موقفها - ولم اكن اعرف شيئاً آخر . وكان هناك ما هو اسوأ : كنت اعتقد ان سبب احتقار اميلي يمكن ان يُكتشف بفحص دقيق لعلاقتنا السابقة ؛ ولكنها لم تكن مستعدة للاعتراف بذلك ، لاصرارها على احتقاري بلا سبب ، نازعة مني كل امكانية لتبرير نفسي ، مانعة نفسها من كل عودة للاحترام والحب .

كنت قد فهمت اخيراً ان شعور الاحتقار قد ولد في نفس اميلي من قبل ، قبل ان يكون بإمكان سلوكي ان يقدم لها تبريراً ، صحيحاً كان ام زائفاً . كان احتقارها قد نشأ من الصلة الثابتة بين طبيعتنا ، خارج اية حجة جوهرية لا تُردّ بالطريقة نفسها التي نتحقق بها من صفاء معدن ثمين عند احتكاكه بمحجر التجربة ، وبالفعل ، فعندما افترضت ان استياءها مني كان نتيجة خطأ في الحكم بالنسبة لسلوكي تجاه باتيستا ، لم تقر ولم تحتج ، بل ركنت الى الصمت . والواقع ان اميلي ، كما فكرت في ألم ، كانت للوهلة الاولى تحتكم علي باتي جدير بكل شيء ، ولم تكن تطلب الا ان ترى ما يؤكد احتقارها . وبعبارة اخرى ، كان موقفها مني يتطلب تقديراً قيمياً ، تمييزاً لطبيعي مستقلاً عن تصرفاتي . وانفق ان هذه التصرفات كانت تبدو مؤكدة لهذا التقييم ، ولكن حتى بغياب مثل هذه التصرفات ، ما كانت اميلي لتحكم علي حكماً مختلفاً .

كانت غرابة سلوكها تعطيني الدليل على ذلك لقد كان بإمكانها منذ

البدء ان تحدّثني ، وتحذّرني ، وتفتّح لي لتبدّد الالتباس القاسي الذي كان حيننا قد سقط فيه . ولكنها لم تفعل ذلك ، وأصرّت على عدم ارادتها ان تُخطأ ، لكي تستطيع المضيّ في احتقاري .

ظللت متمدّداً على الكرسي الطويلة ، وفي الاهتياج الذي لا مناص منه والذي نشأ عن هذه الافكار ، نهضت بصورة شبه آلية فذهبت أرتفق الحاجز . ولعلّتي كنت أسعى الى تهدئة نفسي بتأمّل صفاء الليل ، ولكنني اذ كنت امنح وجهي الملتهب لأنفاس النسيم الذي كان يبدو وكأنه منبعث من البحر ، فكرت فجأة اني لم اكن أستحقّ هذه الهدئة . ان الانسان الذي يتعرّض للاحتقار لا يستطيع ولا ينبغي ان يجد الطمأنينة ما دام الاستنكار يثقل عليه . انه عبثاً ما يبتهل ، على غرار المذنبين في «المحاكمة الأخيرة» : « غطيني ايها الجبال ، أغرقيني ايها البحار .. » فان الاستنكار يتبعه حتى الى ابعد الامكنة خفاءً ، وروحه ممتلئة به ، وهو يحمله معه ايها حلّ . وعدت اتمدّد على الكرسي الطويلة ، وأشعلت سيجارة بيد ترنّجف . سواءً أكنت أستحقّ الاحتقار ام لا – وقد كنت على يقين بانني لا استحقّ هذه الصفة – فقد كان يبقى لي على كل حال ذكائي الذي لم تكن اميلي نفسه تماري فيه ، والذي كان يشكّل جوهر مزايابي وتبريري . كان بامكاني ان الجأ الى الفكر ، مهما كان موضوعه ؛ وقد كان واجبي ، تجاه اية مشكلة ، ان امارس بشجاعة محاكمتي العقلية . فاذا ضعفت ووهنت فلم استعمل ذكائي ، فلن يبقى لي حقاً الا الاحساس المزعج بالخطاطي المزعوم .

وعاد فكري يعمل في عناد وبصيرة . ما عساه يكون هذا الجانب القابل للاحتقار من شخصيتي ؟ وكانت تعود الى ذهني بشكل لا مفرّ منه كلمات رينغولد التي كان يحدّد بها ، على غير وعي منه ، وضعي تجاه اميلي ، بينما كان يعتقد انه يحدّد وضع يوليسوس تجاه بينيلوب : « يوليسوس الانسان المتحضّر ، وبينيلوب البدائية » إن رينغولد إجمالاً

كان ، بعد ان وصف الازمة الكبرى لحياتنا الزوجية ، حين فسّر الاوديصة على غير علم منه ذلك التفسير العجيب ، كان بمنحني العزاء بان يقول لي « متحضر » ، لا ان يقول « محتقر » . وهو عزاء مقبول نسبياً . لقد كنت بالاجال الانسان المتحضر الذي يرفض حركة طعنة السكين في موقف ذي طابع بدائي ، وتجاه غلطة ضد الشرف ؛ الانسان المتحضر الذي يفكر ويقدر حتى تجاه الاشياء المقدسة او المزعوم انها مقدسة . كنت طبعاً على يقين من ان قصتنا الزوجية كانت تشبه قصة يوليسوس وبينيلوب ، كما كان يتصور المخرج ، وذلك التفسير الذي كان يصلح في ميدان التاريخ ، لم يكن يصلح في ميدان الشعور والوعي ، الذي هو ميدان صميمي شخصي ، خارج الزمان والمكان . ان شيطاننا الداخلي ، في هذا الميدان ، هو وحده الذي يحكم . ولم يكن بوسع التاريخ ان يبرّني ويبرّني الا في ميدانه الخاص . ولكن هذا الميدان ، بالرغم من اوجه الشبه التي كان يقترحها عليّ ، لم يكن ينطبق اطلاقاً على الوضع الذي كنت أصبو الى ان أعمل فيه وأعيش .

ولكن لماذا اذن كانت اميلي قد كفت عن حبّي ولماذا كانت تحتقرني ؟ وما سبب حاجتها خصوصاً لاحتقاري ؟ كنت أتذكر عبارتها : « لأنك لست رجلاً » واللهجة البسيطة الصادقة التي كانت تطلق بها هذه الفكرة . ربما كانت هذه الكلمات تنطوي على مفتاح موقف اميلي كلّه منّي . لقد كانت تكشف بالفعل ، كشفاً سلبياً ، الصورة المثالية التي كانت اميلي تكوّنها عن « الرجل الذي هو رجل » وفق عبارتها نفسها ، هذا الرجل الذي لم أكنه ، وما كان باستطاعتي ان أكونه . ومن جهة اخرى ، كانت هذا الاختصار الغامض الموجز الى هذا الحدّ يوحي بأن مثل هذا المثال لم يكن لديها ثمرة تجربة عاقلة للقيم الانسانية ، بل كان ثمرة مواضعات الوسط الذي كانت تنتمي اليه . وبالنسبة لهذا الوسط ، كان باتيسا ، بقوته الحيوانية ونفوذ نجاحه ، يمثل الرجل الذي هو رجل .

ولقد سبق لاميلي نفسها ان عبرت لي عن هذا بالنظرات المعجبة تقريباً التي كانت تسربل بها المنتج فيما كان يتكلم ، مساء يوم وصولنا ؛ وكذلك هزيمتها تجاه رغبات باتيستا ، حتى ولو كان السبب الاول لهذه الهزيمة الغضب والحزن .

وبالاجمال ، كانت اميلي تحقرني وتحرص على احتقاري لأنها ، بالرغم من استقامتها وبساطتها ، او على الأصح بسبيها ، كانت منجذبة بافكار عالم باتيستا وأمثاله . والحال ان احدى هذه الافكار كانت تخصّ تبعية الرجل الفقير الاضطرارية تجاه الرجل الغني ، اي استحالة ان يكون الفقير « رجلاً » . ولست بالواثق من ان اميلي كانت ترتاب حقاً في اني شجعت رغائب باتيستا ، بداعي المصلحة ، ولكنني كنت واثقاً بما كانت تفكر به آنذاك : « إن ريتشارد تابع لباتيستا لأنه مأجور منه ؛ وهو يعتمد عليه ليكسب اعمالاً اخرى ، والحال ان باتيستا يغارلني ، واذن ، فان ريتشارد يوحى اليّ بان أصبح عشيقته ... »

وأدهشني اني لم افكر بهذا من قبل . فكيف تأتّى لي ان أحدّد بذلك التحديد المتبصر الطرق التي كان باتيستا ورينغولد يواجهان بها الحياة (انطلاقاً من تفسيراتها للاوديسة) ولم أدرك أن اميلي قد فعلت مثلها إذ صنعت لنفسها صورةً عني مختلفة عن الحقيقة كل هذا الاختلاف ! كان الفرق الوحيد هو ان المخرج والمنتج كانا يفسران وجهي يوليسوس وبينيلوب ، الشخصين الخياليين ، في حين ان اميلي كانت تطبق المواضع التي كانت تخضع لها على كائنين حيين : هي وأنا . هكذا تكون قد نشأت عندها ، من مزيج من الاستقامة الخلقية والابتدال اللاواعي ، فكرةً أنني قد أردت ان ادفعها بين ذراعي باتيستا ، وهي فكرة غير مقبولة ، ولكنني لم أبرهن على اني لم استنكرها .

وقلت لنفسي : « لكي نواجه جميع معطيات المسألة ، لتصور ان على اميلي ان تختار بين التفسيرات الثلاثة للاوديسة : تفسير باتيستا ،

وتفسير رينغولد ، وتفسيري . إنها تستطيع بالتأكيد ان تقرّ الاعتبارات التجارية التي تدعو ، في نظرية باتيستا ، الى « اوديسة » مسرحية . بل هي تستطيع ان توافق على مفاهيم رينغولد المحدودة والبسيكولوجية ؛ ولكنها ليست بالتأكيد على مستوى يرفعها الى حدود تفسيري ، وهو اقرب التفسيرات الى هوميروس ودانتي ، بالرغم من حسنّها السليم واستقامتها . وليس مردّ ذلك فقط الى الجهل ، بل لأنها بدلاً من ان تعيش في عالم مثالي ، تكفي بالعالم المادي لامثال رينغولد وباتيستا .

على هذا النحو إذن كنت قد أحطت بالموضوع . لقد كانت اميلي ، في الوقت نفسه ، امرأة احلامي ، والمرأة التي كانت تدينني وتحتقريني على أساس معطيات فكرة بائسة : بينيلوب التي كانت مخلصه عشرة اعوام لزوجها الغائب ، والضاربة على الآلة الكاتبة التي كانت ترى قابلية الشراء حيث لم تكن . ولكي اسردّ الأميلي التي كنت أحبها وان أنجح في ان تحكم عليّ حكماً عادلاً ، يجب عليّ ان انتزعها من وسطها ، وان أدخلها في عالم بعيد من التعقيدات بعدها هي ، حيث لا يحسب للمال حساب ، وحيث يحتفظ الكلام بمعناه الكامل المستقيم ، عالم كان بإمكانني ان أصبو إليه ، ولكنه لم يكن موجوداً ، كما كان رينغولد ينبّهني .

ومع ذلك كان عليّ ان أستمّر أعيش وأعمل في عالم رينغولد وباتيستا وأضربهما . فما الذي انا فاعله ؟ كان الامر الاول بالطبع هو ان أنحرّر من عقدة النقص هذه المقلقة الناشئة عن ظنّ لامعقول بشخصية قابلة للاحتقار وراثياً . لأن ذلك هو ما كان بالفعل المعنى الخفي لسلوك اميلي : كانت تنسب اليّ حطة في بُنيّتي تقريباً ، لا تُعزى الى أعمالني ، بل الى طبعني . والحال اني كنت واثقاً من انه لم يكن ثمة من هو قابل للاحتقار بصورة طبيعية كاملة ، ولكن عليّ ، لأنحرّر من عقدة نقصي ، ان أفنّع اولاً اميلي .

وتذكّرت صورة بوليسوس الثلاثة التي كان سناريو الاوديسة يوحها

لي : صورة باتيستا ، وصورة رينغولد ، وصورتي وهي صورة هوميروس تقريباً . وكانت هذه الصورة ترسم امام عيني ثلاث طرق للحياة . فلماذا كانت تصوراتنا لشخصية بوليسوس مختلفة الى هذا الحد ؟ لقد كانت الصورة التي يكوّنها باتيستا سطحية ، مبتدلة ولا عقلانية ، وكانت تتلام مع حياته ، ومع مثاله ، او بالأحرى مع مصالحه الخاصة . اما صورة رينغولد الأكثر قابلية للتحقق ، ولكنها محدودة ، وعادية ، فكانت تنسجم مع نظرية المخرج الاخلاقية والفنية . واما صورتي ، الأكثر سمواً وطبيعيةً ، والافر شاعرية والاكثر حقيقة ، فقد كانت تثبت من صوتي المخلصة ، على عجزها دون ريب ، الى حياة خالية من التسويات المالية يحلّ المثل الأعلى فيها محل النظريات الفيزيولوجية والمادية . وقد كان مما يعزّيني حقاً ان تكون صورتي هي افضل الصور . وكان يبقى عليّ أن أتطابق مع هذه الصورة التي لم أستطع ان افرضها للسنايرو والتي سألتني مشقة كبيرة لجعلها تنتصر في الحياة . وكانت تلك الطريقة الوحيدة لاقناع اميلي واسترداد احترامها وحبّها . ولكن كيف لي ذلك ؟ انني لم اكن اجد وسيلة اخرى غير ان احبّها اكثر من السابق ، وان اثبت لها بلا انقطاع نقاوة حبي وتجرّده .

وكان ينبغي في تلك اللحظة ألاّ تشعر خصوصاً بأنها مقسورة ، مُكرهة . وسيكون أفضل حلّ ان أبقى حتى اليوم التالي ، ثم اسافر بياخرة بعد الظهر من غير ان اراها ثانية ولا أن أحدثها . ومن روما سأكتب لها رسالة طويلة أشرح لها فيها ما لم أحسن قوله مواجهةً .

وإذ بلغت هذا الحدّ من افكاري ، سمعت ضجة اصوات هادئة كانت تبدو صادرة من الممرّ القائم تحت السطّيحة ، فعرفت صوتي اميلي وباتيستا . وسارعت أدخل غرفتي وأغلق دوني الباب . ولكنني لم اكن أحسّ بالنعاس ، وكان يبدو لي اني سأتألم اكثر مما ينبغي في تلك القاعة الخائفة وانا أشعر بحضور الآخرين غير بعيد عني . وكنت قد جلبت من روما منوماً شديداً

الفعالية ، لأنني كنت أعاني الأرق منذ حين ، فتناولت منه ضعف الكمية المعتادة ، وارتيمت وانا في ثيابي على السرير ، وقلبي طافح بالغضب . ولا بدّ اني نمت على الفور تقريباً ، لأنني لا اذكر اني سمعت صوتي اميلي وباتيستا اكثر من بضع دقائق .

الفصل الثاني والعشرون

استيقظت متأخراً ، فقد كانت اشعة الشمس تنفذ من خلال الشباك ، وأصغيت لحظة الى الصمت العميق المختلف اختلافاً كبيراً عن صمت الامس الذي كان يبدو ، بالرغم من كليته ، ممزقاً بصدى جميع الأصوات العابرة . وفيما كنت متمدداً على السرير، مرهفاً اذني نحو الصمت البكر ، حسبتني أكتشف ان شيئاً ما كان ينقصه . لا تلك الاصدااء المألوفة التي تبدو وكأنها تؤكد الصمت نفسه وتجعله أعمق (كالمحرك الكهربائي الذي يضح الماء من الصهريج ، او المكنتسة الكهربائية التي تمررها الخادمة على البلاط ...) بل حضوراً ما . ان ذلك الصمت لم يكن ليعيش ، بالرغم من امتلائه ؛ فكأن شيئاً ما قد انتزع منه ! انه صمت استسلام .

وما كادت هذه الكلمة التي كنت ابحث عنها تعبر ذهني حتى قفزت من السرير وركضت الى الباب المتصل بغرفة املي . واذا فتحته ، كان اول شيء لفت نظري رسالة موضوعة على الوسادة ، في وسط السرير الكبير الخالي . وكانت موجزة :

« عزيزي ريشار : ما دمت لا تريد الذهب ، فأنا التي أذهب ،

ولو كنت وحدي ، لربما لم أوت الشجاعة للقيام بذلك ، ولهذا انتهز فرصة ذهاب باتيستا . والحق اني سأخشي أن أبقى وحدي ، ويبدو لي ان رفقته مفضلة لديّ بعد كل حساب ، على الوحدة . ولكني حين أبلغ روما ، سأتركه يذهب لشأنه ، وأمضي لأعيش عيشتي . بيد انك ينبغي ان لا تدهش اذا علمت اني أصبحت عشيقتك : فلست من خشب ، وهذا سيعني خصوصاً ان الشجاعة قد خانتني .. وداعاً - اميلي .

حين فرغت من قراءة هذه الاسطر ، جلست على السرير ، والرسالة في يدي ، وعيناي تائهتان في الفراغ . وكنت ألمح عبر النافذة الكبيرة المفتوحة اشجار صنوبر ، وألمح عبر جذوعها الجدار الصخري . ثم طاف بصري بالفرقة : كان كل شيء فيها يُشعر بالفوضى ، فوضى غياب : فلا ملابس ولا احذية ولا حاجات زينة ... بل ادراج فاعرة فارغة ، وخزانة مفتوحة المصاريح على مشاجب عارية ، وليس من شيء على المقاعد . وكنت قد فكرت كثيراً ، منذ حين ، انه يمكن لاميلي ان تتركني ، وكنت افكر بذلك كما افكر بكارثة ممكنة الوقوع ؛ اما الآن ، فاني في صميم الكارثة . وكان ألمّ أصمّ يصعد فيّ ، وكأنه صادر من اعماقي ؛ كما يمكن لشجرة متزعة من جذورها ان تُحسّ الوجع في الجذور التي كانت تشدها الى الارض . والحقيقة اني كنت متزعزعا من جذوري دفعة واحدة ، وكانت هذه الجذور التي غلّتها اميلي بحبها كأنها الارض ، كانت تشتاق اليها الآن ، وكانت على وشك ان تجفّ لنقص الغذاء ، وقد بدأت حقاً احسّها تذبل ، وكنت اعاني من ذلك في صمت .

وعدت أخيراً الى غرفتي . كنت أحسّتي في دوار ، وكأن ضربة قاصمة قد نزلت بي . وفيما كنت أراقب ألمي الهاجع ، من غير رغبة مني في الالتحاق عليه خشية ايقاظه ، تناولت آلياً ثوب السباحة ، وخرجت من المقصورة فاجتزت الممر الذي يستدير حول الجزيرة ، وبلغت

ساحة كابري . وهناك اشترت جريدة ، وجلست في مقهى ، وبينما كان يبدو لي مستحيلاً ان افكر بشيء آخر غير شقائي ، قرأت الاخبار منذ السطر الاول حتى السطر الاخير . كنت كمن لا يُحس شيئاً ، اشبه بالذبابه التي نزع طفل قاس رأسها ، فظلت بالرغم من ذلك ، تنتزه بضع لحظات وتنظف اقدامها قبل ان تنقض فتموت . وأخيراً آذن الظهر ، فلأت ساعة البرج الساحة بضجيج دقاتها الاثني عشرة . وكان اوتوبيس بهم بالانطلاق باتجاه شاطيء بيكولا مارينا ، فصعدت اليه . وبعد بضع دقائق كنت اهبط الى الساحة التي كانت تغمرها الشمس ، وكانت تقف فيها سيارات كان سائقوها جالسين في حلقة ، يرثرون هادئين ، وكانت تبعث من الساحة رائحة بول حادة . وبخطوة خفيفة ، هبطت السلم المؤدي الى الحمامات ، وكنت ارى من الاعلى الممر الضيق ذا الحصى الابيض ، والبحر الازرق الممتد تحت سماء لا غيوم فيها . وما كان أشد هدوء هذا البحر الأملس الأطلسي حتى الاقنق ، والذي كانت تخططه آثار تيارات كبيرة : تحت الاشعة الباهرة ! وقلت لنفسى ان من المستحسن ان استقل قارباً ، وإن التجذيف سيعود عليّ بالخير ، ثم اني سأكون وحدي ، وهذا شيء مستحيل على الشاطيء الذي بدأ يمتليء بالمستحمين . واذا بلغت الحمام ، ناديت خادماً وطلبت اليه ان يُعد لي قارباً . ثم ذهب انزع ثيابي في احدى الغرف .

ونجرت أمشي بقدمين غاريتين على السطیحة ، خافض العينين ، حذراً من ان اجرح قدمي بتتوءات الشاطيء المملح . وكانت شمس حزيران تضرب رأسي وتحرق ظهري وتشعلني بنورها القوي ، وهي تملأني باحساس من السعادة كان يتناقض تناقضاً مرآ مع ذهول روحي . وهبطت السلم السريع ، وعيناي ما تزالان مشدودتين الى الارض ، وتقدمت نحو حاقة الماء ، على الحصى المحرق . ولم ارفع عيني الا حين بلغت الشاطيء تقريباً ، واذا ذاك رأيت ... اميلي .

وكان خادم الحمام قد وقف امام القارب الذي كان قد انزل نصفه الى الماء ، وكان عجوزاً هزيل القامة قويها ، ذا جلد مدبوغ ، ورأس تغطيه قبة من القش غارقة حتى عينيه . وكانت اميلي جالسة في مؤخرة القارب ، مرتدية ثوباً من البكيني ذا لون اخضر كنت اعرفه جيداً . كانت مشدودة الساقين ، مستندة على ذراعيها المرتدتين الى خلف ، وكانت قامتها المشوقة العارية ملتوية قليلا بالنسبة لكشحيها ، فكانت تبدو في وضع نسوي ساحر . وقد بسمت لي امام انشداهي ، ونظرت الي باحداذ كما لتقول لي : « نعم ، هذه أنا .. لا تقل شيئاً .. ولا يبدُ عليك الاتدهاش ! »

وأطعت هذا الامر الصامت ، وأخذت آلياً اليد التي كان الخادم يمدّها لي ، وقفزت الى القارب ، وانا صامت ، ميت أكثر مني حياً ، خافق القلب . وأدخل الخادم المجذافين في حلقتهما ، وقد غمر الماء نصف ساقيه ، ودفع القارب نحو البحر . . وجلست فتناولت المجذافين وأخذت أجذّف ، خافض الرأس ، تحت الشمس المحرقة ، في اتجاه الرأس الذي يُغلق الخليج الصغير . وبلغته في عشر دقائق ، من غير ان اتيس بكلمة ، او ارفع نظري نحو زوجتي . واحسست نوعاً من التهيّب في التحدث اليها ، لفرط ما كان الشاطئ وغرفه والمستحمون ظاهرين . كنت بحاجة الى العزلة فيما حولنا ، كما هو الشأن دائماً حين كنت ارغب في التحدث اليها بصورة صميمية .

ولكن فيما كنت اجذف ، احسست دفعة جديدة من المرارة ممزوجة بفرح جديد وغريب ، فاخضلت عيناى بالدموع . وكانت جفوني تحرقني ، وكلما كانت دمعة تسيل على خدي ، كنت أحسّ اثرها المحرق . واذ بلغت الرأس ، جذفت تجديفاً اقوى حتى اقاوم التيار الذي كان في ذلك المكان يهيج المياه ويدوم فيها . والى يميني ، كانت صخرة صغيرة سوداء تطلّ برأسها المثقوب ؛ والى يساري ، كان يقوم جدار الجرف .

ودفعت مقدّم القارب في ذلك المر ، وجذفت بقوة عبر المياه العالية وعبرت الرأس . وكانت الصخرة التي تغرق في البحر بيضاء من أثر الملح ، وكلما كان الموج ينحسر عنها ، كانت تلمع في الشمس لحي الأشنة الخضراء او بعض ثمر البحر الاحمر البراق . واذ أُجزت الرأس ، ظهرت لي نصف دائرة واسعة من الردوم الصخرية ، وكانت تقوم هنا وهناك بين الكتل شواطئ صغيرة يغطيها الحصى الابيض . كان البحر خالياً ، لا قارب فيه ، ولا كائن . وكانت مياه الخليج ذات زرقه معتمه ، فكأنها كثيفة زيتية ، بسبب شدة العمق دون ما شك . وكانت ثمة رؤوس اخرى تتتابع على امتداد البحر المتلألئ ، شبيهة بديكور طبيعي غريب .

وأخيراً خفت جهدي ، ورفعت عينيّ نحو اميلي . وكأنما كانت تنتظر اجتياز الرأس حتى تتكلم ، فبسمت لي وسألني بصوت عذب :

— لماذا تبكي ؟

— ابكي فرحاً لرؤيتك .

— أيسرك هذا الى هذا الحدّ اذن ؟

— نعم ... نعم ... كنت احسب انك قد ذهبت ... وها انت ذي

قد بقيت !

فخففت عينها وهي تقول :

— كنت قد عزمت على الذهاب .. وهذا الصباح هبطت الى الميناء

مع باتيستا ... وفي اللحظة الاخيرة ، غيرت رأبي ، فبقيت ...

— وما الذي فعلته منذ ذلك الحين ؟

— لقد تهت عبر الميناء .. وجلست في مقهى .. ثم عدت الى كابري

بالمصعد الكهربائي وتلفنت للمقصورة ، فقيل لي انك قد خرجت ..

وفكرت في انك ذهبت الى بيكولا مارينا ، فبحثت ألحق بك .. وقد

نزعتم ثيابي وانتظرتك .. وفيما كنت تطلب قارباً ، تمددت في الشمس ..

ولكنك مررت الى جانبي من غير ان تراني .. وبينما كنت تترع ثيابك،
صعدت الى القارب .

لزمت الصمت لحظة . وكنا في منتصف الطريق بين الرأس السذي
تجاوزناه وشاطيء آخر كان يُغلق الخليج ، وفيما وراء ذلك ، كانت
تقوم « المغارة الخضراء » حيث كنت ارغب في الاستحمام .

وسألتها بصوت منخفض :

– ولماذا لم تذهبي مع باتيستا ، خلافاً لقرارك ؟ لماذا بقيت ؟
– لأنني فكرت هذا الصباح ، فأدركت اني اخطأت تجاهك .. وان
كل شيء لم يكن الا سوء تفاهم ...
– وما الذي جعلك تفكرين بهذا ؟
– لا ادري ... ربما كانت لهجة صوتك مساء امس ..
– والآن ، هل اقتنعت حقاً بأنني لم ارتكب قط الاعمال الرديئة التي
كنت تتهميني بها ؟

– مقتنعة تمام الاقتناع ...

وبقي لدي سؤال اخير أطرحه ، ربما كان أهم الاسئلة :
– انك لا تحكمين عليّ بأنني استحق الاحتقار ؟ حتى ولو لم افعل
اي شيء رديء ؟ اقصد : استحق الاحتقار بطبعي .. قولي ، الا
تؤمنين بعد بذلك ؟

– انني لم أومن بذلك قط .. كنت اظن انك اسأت التصرف ،
ففقدت من جراء ذلك احترامي لك .. ولكن ما دام الامر سوء تفاهم،
فلا نتحدث عن ذلك بعد ، اتريد ؟

فلم أضف شيئاً هذه المرة ، ولزمتُ هي كذلك الصمت ؛ واذا ذاك
أخذت اجذف بقوة جديدة ، يضاعفها الفرح الذي كان ينبثق مني ،
اشبه بشمس مشرقة ، فيدفئ روعي الثلوجة . وفي تلك الاثناء كنا قد
بلغنا « المغارة الخضراء » فوجهت القارب نحو المدخل المظلم الذي كانت

قبته تستدير فوق مرآة من الماء العميق الزرقة .
وجرؤت على سؤالها :

— هل تحبيني ؟

فترددت ، ثم قالت بلهجة أسي فاجأني :

— لقد احببتك دائماً .. وسأحبك ابداً ...

فألححت وقد اخافتني تلك اللهجة :

— لماذا تقولين ذلك بهذه اللهجة الحزينة ؟

— لا ادري .. لعله كان يكون ارووع لو لم يفصلنا اي سوء تفاهم ..

لـ ظللنا نتبادل الحب كالسابق .

قلت :

— نعم ، ولكن كل شيء قد انتهى منذ الآن .. ولا ينبغي التفكير

فيه بعد .. اننا الآن يجب احداً الآخر الى الابد ...

فبدت موافقةً بحركة من رأسها ، ولكن من غير ان ترفع عينيها ،

ما تزال حزينة بعض الشيء . وتركت المجذافين ، وملت عليها اقول :

— لنذهب الى «المغارة الحمراء» ؛ انها مغارة اصغر واعتمت تقوم خلف

هذه .. وفي داخلها يقوم شاطيء صغير ، في الظلام .. وستبادل هناك

الحب ، اتريدين ؟

فهزّت برأسها ايجاباً ، وهي صامتة ، وظلت تحديق بي تحديق

تواطؤ خفي معتكّر . ثم اخذت المجاذيف . وبلغنا المغارة التي كانت

شبكة متحركة من الف لون ولون تنعكس تحت قبعتها ، وفي الداخل ،

حيث كانت الامواج تندفع فتصدي القبة بزفير اصم ، كان الماء

مظلماً تقطعه هنا وهناك حسكة صخرة تنبت كأنها ردف حيوان بحري .

وكان الممر الذي يفضي الى «المغارة الحمراء» ينفتح بين صخرتين

كأنه شبك مضيء . ولم تكن اميلي تأتي بحركة ، بل كانت تنظر اليّ ،

متابعة بعينيها كل حركة من حركاتي ، في نوع من التأمل الشهواني

الوديع ، كما تفعل امرأة مستعدة لأن تمنح نفسها وهي لا تنتظر الا
اشارة . واستعنت بالمجاذيف على جدران المر ، تحت القبة الملائى
بالرواسب الكلسية ، فوجهت القارب نحو الرواق المؤدي الى « المغارة
الحمراء » . وقلت لاميلي :
- تنبهي لرأسك ...

ويضربة مجذاف واحدة دفعت القارب الى المياه الهادئة ، داخل
المغارة .

وتنقسم « المغارة الحمراء » الى قسمين يفصل بينهما انخفاض في
القبة ؛ وفيما وراء ذلك تنعطف المغارة وتوغل حتى الشاطئ الصغير الذي
يكون داخلها . وكان الظلام شبه تام ، وكانت العيون بحاجة الى ان
تألفه قبل ان ترى الحصباء الصغيرة الملونة تحت الارض بذلك النور المحمر
الذي اعطى اسمه المغارة . وقلت :

- ان الظلام شديد حقاً ، ولكن حين يزول انبهار عيوننا ، فسرى
بوضوح .

وكان القارب ، مدفوعاً بالسرعة المكتسبة ، ينساب في الظلام ،
تحت القبة المنخفضة ، ولم أر بعد شيئاً . واخيراً سمعت مقدم القارب
يصدح الحافة ، داخلاً حصباء الشاطئ وهو يرسل صوتاً مرناً . وتركت
المجاذيف آنذاك ، ونهضت أمدّ يدي في الظلام ، نحو مؤخرة القارب ،
وانا اقول :

- اعطيني يدك ، فسأساعدك على الهبوط .

فلم ألتق جواباً . ورددت ، مندهشاً :

- اعطيني يدك ، يا اميلي .

واذ ظلت على صمتها ، ملت أكثر من ذي قبل ، على حذر ، حتى
اتحاشى صلحها ، ورحت أتلمس موضعها . فلم تثر يدي الا على الفراغ .
وامتزج الخوف فجأة بدهولي فصحت :

– اميلي ... اميلي !
فأجابني صدى مثلوج فقط . وفي تلك الاثناء ، كانت عيناى قد
اعتادتا الظلام وبدأتا تميزان في الظل الكثيف القارب المتوقف ، وشاطيء
الحصباء الاسود ، والقبة المضئمة التي كانت قائمة فوق رأسي . ورأيت
آنذاك أن القارب كان فارغاً ، والشاطيء خالياً ، وانه لم يكن حولي
احد : كنت وحدي .
وظلت عيناى مشدودتين على مؤخرة القارب ، وانا انادي مذهولاً ،
بصوت منخفض :

– اميلي ... اميلي .. اين انت ؟
وفجأة فهمت : فخرجت من القارب وارتميت على الارض ، دافئاً
وجهي في الحصى المبتل ولا بدّ انه قد اغمي عليّ ، ذلك اني ظلمت
جامداً ، محروما من الاحساس ، فترةً بدت لي غيرة قابلة للانتهاء .
ونَهضت فيما بعد ، فصعدت الى القارب بصورة آلية ، ودفعته الى
خارج المغارة . وحين غادرته ، بهرني نور الشمس الحادّ الذي كان
البحر يعكسه . ونظرت الى الساعة في معصمي : كانت الثانية بعد
الظهر . واذن ، فقد بقيت في المغارة اكثر من ساعة ، وتذكرت ان
الظهر هو ساعة الاطياف ، فعلمت اني انما تكلمت وبكيت امام طيف.

الفصل الثالث والعشرون

أنفقت وقتاً طويلاً لاستعادة حواسي ؛ وكنت بين الفينة والفينة أكفّ عن التجذيف وابقى جامداً ، والمجازيف خارج المياه ، وعيناي محدّتان على صفحة البحر الملتهبة . لقد كان من المؤكد اني مررت بهلسنة ، كما حدث منذ يومين حين حسبت ، تجاه اميلي المتمددة عارية تحت الشمس ، اني اميل هليها وأقبلها ، في حين اني لم اكن قد قمت بأية حركة ولم اقترب منها . وقد كانت الهلسنة هذه المرة أدقّ وواضح . وكان ما يثبت لي انها كانت هلسنة ، ليس اكثر ، ذلك الحوار العجيب الذي حسبت اني عقدهته مع طيف اميلي ، وهو حوار جعلتها تقول فيه كل ما كنت اتمنى سماعه . كان كل شيء صادراً عني ، وكان كل شيء يعود إليّ . والفرق الوحيد مع ما كان يجري في مثل هذه الظروف ، هو اني لم اکتف بتصور تحقيق رغباتي ، بل ان قوة العاطفة التي كانت تحركني كانت قد منحني وهم الواقع . ومن الغريب ان اقول : اني لم يكن يدهشي ان تستولي عليّ تلك الهلسنة النادرة ، بل ربما كانت الوحيدة . واذ ظلت تحت سيطرتها ، كان ذهني يجهد في ان يخلق جميع تفاصيلها واحداً واحداً ، متوقفاً في شيء من الشهوة عند التفاصيل التي كانت تروق لي وكانت تعزيني . ولكم كانت

جميلة ، اميلي ، وهي جالسة في مؤخرة القارب ، ممتلئة بالحب ، بعيدة عن الحقد والكراهية ! وما كان ارق كلامها ! وكم كان عنيفاً مثيراً ذلك الشعور الذي كان يحركني حين كنت أعبر لها عن اشتغائي لها وحين كانت تستجيب لذلك بانحناء رأسها ! كنت ما ازال تحت تأثير هلسنتي ، اشبه بانسان حلم حلماً شهوانياً دقيقاً ، وحين استيقظ راح يتذوق جميع احساسه وينعم بكل مظاهره ؛ كنت اصدق ذلك ، وكنت سعيداً بأن اعيش مرة اخرى تلك الهلوسة بالذاكرة . وكان سواء لدي انه كان وهماً ، ما دمت احس المشاعر نفسها التي كنت سأحسها لو كان واقعاً .

وفيا كنت استمتع بلذة لا تنفد بتفاصيل ذلك التجلي ، خطر لذهني من جديد ان اقارن الساعة التي غادرت فيها بالقارب « بيكولامارينا » مع الساعة التي خرجت فيها من « المغارة الحمراء » ؛ وددشت مرة اخرى اني بقيت ذلك الوقت الطويل هناك ، على الشاطئ الواطيء ، اكثر من ساعة ، اذا كنت اقدر المسافة من بيكولامارينا الى المغارة بثلاثة ارباع الساعة . وكنت قد عزوت هذه المدة ، كما سبق ان قلت ، الى غيبوبة او على الاقل الى نوع من الخدر ، من الغيبة الكاملة . ولكنني اذ عشت من جديد هلسنتي الكاملة والمنطبقة في الوقت نفسه على أعمق اماني ، تساءلت عما اذا لم اكن ، بكل بساطة ، قد حلمت . وعما اذا لم اكن قد استقلت القارب وحدي ، ودلقت وحدي الى المغارة وتمددت على الشاطئ الصغير حيث استولى علي النوم في آخر الامر . ولا بد اني في اثناء تلك الغيبوبة حلمت بنهابي في القارب مع اميلي التي كانت جالسة في المؤخرة ... وحلمت بانني كنت اتحدث اليها ، وانها كانت تجيبني ، وانني كنت اعرض عليها القيام بعمل الحب ، واننا كنا نوغل معاً في المغارة . وما بقي بعد ذلك لم يكن كله الا حلماً : ان ابسط لها يدي لمساعدتها في النزول ... وألاً اجدها بعد .. وان اعتقد بانني انما تزهدت

مع طيف على البحر ، وان ارتمي على الشاطيء واغيب .. لا بد ان ذلك كله لم يكن الا حلماً !

كان هذا الافتراض يبدو لي الآن محتمل الوقوع ، ولكن ليس اكثر من ذلك . كان ذهني مظلماً ، مضللاً بمخيلتي ، فلم اكن انجح في رسم الحد بين الحلم والواقع ، ذلك الحد الذي كان لا بد ان يتعين في اللحظة التي تمددت فيها على الشاطيء الصغير الواطيء . فما الذي حدث في تلك اللحظة بالذات ؟ اتراني قد نمت وحلمت بأن اميلي كانت معي ، اميلي الحقيقية بلحمها وعظمها ؟ ام اني ، في نومي ، قد حلمت بأن طيف زوجتي كان يزورني ؟ او لعلي قد حلمت ايضاً بأني نائم واني كنت احلم هذا الحلم او ذاك ؟ لقد كانت الحقيقة تبدو متضمنة حلماً يتضمن حقيقة تتضمن حلماً وهلمّ جراً ، كما هو الشأن في تلك العلب الصينية التي تتضمن كل منها علبة اصغر... كم طرحت على نفسي ، وانا في البحر ، والمجاذيف خارج المياه ، السؤال التالي : اتراني قد حلمت ، ام أصبت بهلوسة ، ام تجلى لي حقاً طيف ؟ وانتهيت اخيراً لي انه كان مستحيلاً عليّ ان اعرف الحقيقة ، واني على الأرجح لن اعرفها ابداً .

ووصلت اخيراً الى الحمام ، فارتديت ثيابي على عجل ، وصعدت الى الساحة وقفزت تواءاً الى باص كان متوجهاً نحو كابري . كنت مستعجلاً العودة الى البيت ؛ ومن غير ان ادري السبب ، كنت احس اني سأجد في المقصورة مفتاح هذه الاعاجيب كلها . وكنت مستعجلاً العودة كذلك ، لانه كان عليّ بعد ان اتناول الغداء وأرتب حقيقتي قبل ان اذهب في باخرة الساعة السادسة ، وكان الوقت ضيقاً . ومن الساحة ، دلفت وانا اكاد اعدو الى الممر الذي يستدير حول الجزيرة ؛ وبعد عشرين دقيقة ، كنت في المقصورة .

ولم يُتح لي ، وانا ادخل غرفة الجلوس ، ان اتملى جوّ الوحدة

والهجر الحزين . فقد كانت تنتظرنى برقية موضوعة الى جانب صحفى ،
على طاولة الطعام . ومن غير ان افكر بشيء ، فتحت المغلف الاصفر ،
قلماً بعض الشيء . وفاجأني اسم باتيستا في اسفل البرقية ، واعطاني
مدة لحظة الامل في نبأ طيب . ولكني قرأت البرقية : لقد كان يبلغني ،
ببضع كلمات ، ان اميلي كانت في حالة خطيرة ، اثر حادث اصطدام
مشووم .

انني الاحظ ، وقد بلغت هذه النقطة من قصتي ، ان ليس لديّ
بعد شيء اضيفه تقريباً . ومن نافلة القول ان اروى كيف سافرت بعد
الظهر ، وكيف علمت لدى بلوغي نابولي ان اميلي قد ماتت بحادث
الاصطدام ، قرب « تيراسينا » . وقد حدثت الوفاة في ظروف غريبة .
فقد قيل لي ان اميلي كانت قد استسلمت للنوم ، تحت تأثير الحرارة
والتعب ، فانحنى رأسها وذقنها على صدرها . وكان باتيستا ، على
عادته ، يقود بسرعة كبيرة ، وفجأة برزت عربة يجرها جاموسان من
طريق معترضة ، فأوقف باتيستا سيارته ايّاقافاً عنيفاً ، وبعد ان تبادل
الشتائم مع سائق العربة ، انطلق سريعاً . ولكن كان رأس اميلي يتهدى
يميناً وشمالاً ، ولم تكن تقول شيئاً . وكان باتيستا قد وجه اليها الكلام
دون ان يحظى بجواب ، وقد فاجأت ضربة الفرامل جسمها وهو في
حالة استرخاء كامل ، وكانت عضلاتها منبسطة كما في النوم . وقد
احدثت الصدمة الناشئة عن توقف السيارة انكسار العمود الفقري لدى
زوجتي . وقد ماتت من غير ان تشعر بذلك .

كان الحر خانقاً ، ولم يكن الالم يحتمله ، ذلك الالم الذي لم يكن ،
كالفرح ، يطيق وجود اي شعور آخر . وقد جرت الجنائز في جو
خانق ، تحت سماء ملبدة ، وهواء ثقيل ورطب . وحين انتهت الشكليات
في المساء ، اغلقت الباب خلفي ودخلت شقتنا التي ستكون فارغة بعد

الآن ولا مجدية ، وادركت اخيراً ان اميلي قد ماتت واني لن اراها بعد ابداً .

وكانت جميع نوافذ الشقة مفتوحة على مصاريحها لإجعل من الممكن تسرب تيار خفيف من الهواء ، ولكي لم اكن اقل اختناقاً بينما كنت نائماً من غرفة الى غرفة ، فوق البلاط اللامع ، في الظل الشفقي . وكانت نوافذ البيوت المجاورة مضاءة كلها ، فكان سكانها الذين يُرون من الخارج رائحين غادين بين الغرف يوحون إليّ بشعور من العvisية ، وكان جوهم الهاديء يصور لي عالماً يحب الناس فيه بعضهم بعضاً من غير سوء تفاهم ، ويعيشون في سلام ، عالماً كنت أحس اني منفي منه الى الابد . وما كنت لاستطيع ان ادخل اليه من جديد الا بعد ان اكون قد تفاهمت مع اميلي ، واقتنتها ، واحييت من جديد معجزة الحب الذي يقتضي ، لكي يوجد ، ان يُلهب ليس قلبنا فقط ، بل قلب الآخرين . اما الآن ، فان ذلك لم يكن ممكناً لي بعد ، وكنت احسني أصبح مجنوناً لدى التفكير بان موت اميلي ربما كان مظهراً نهائياً من مظاهر العداء لزائني .

ولكن الحياة كانت هنا ، وكان لا بدّ من قبوفا . وقد تناولت حقيبي من جديد ، ولم يكن قد أُتيح لي بعد ان افتحها ، واغلقته الباب واعطيت مفاتيحه الى البوابة وانا اعتبر لها عن رغبتني في بيع البيت لدى عودتي من رحلتي . ثم انطلقت ثانية الى كابري .

وكان أمل غريب يدفعني للعودة اليها ، كما لو ان اميلي يمكن ان تظهر لي ثانية هناك ، حيث تجلّت لي ، افضل من اي مكان آخر . واذ ذاك سأوضح لها الامور التي اساءت تعليلها ، وسأصارعها مرة اخرى بحبي ، وستظهر لي من جديد انها تفهمني وتحميني . وكان هذا الامل جنوناً محضاً ، وكنت ادرك ذلك ؛ ولكي لم يسبق لي ان حاذيت نوعاً من البلاهة العاقلة ، تقوم في منتصف الطريق بين اثمتراز الواقع

وحنين الملسنة ، كما حاذيته في تلك الايام .
ومن حسن حظي ان اميلي لم تتجلى لي مرة اخرى ، لا في الحلم ولا في اليقظة . واذا قارنت الساعة التي تجلت لي فيها مع ساعة موتها ، اكتشفت ان هذين الزميين لم يكونا متطابقين . لقد كانت اميلي ما تزال حية. حين رأيتها جالسة في القارب ؛ ولكنها على الأرجح كانت قد ماتت عند غيبوتي على الشاطيء في قعر « المغارة الحمراء » . وهكذا لا يتطابق شيء في الحياة ولا في المات . ولن اعرف على الاطلاق ان كنت قد رأيت طيفاً ، او كنت لعبة هلسته او حلم او غلظة اخرى . ان الالتباس الذي كان قد سمم حياتنا كان قائماً بعد موتها .

وذات يوم راودني الحنين اليها والى الامكنة التي رأيتها فيها للمرة الاخيرة ، فالتجيت الى الشاطيء القائم تحت المقصورة ، حيث كنت قد لمحتها في عريها وتوهمت اني اقبلها . وكانت الضفة خالية ؛ وفيما كنت اتمشى عبر ركام الصخور ، واثأمل مدى البحر الازرق الضاحك، تذكرت « الاوديسة » فجأة ، وتذكرت يوليسوس وبينيلوب ؛ وقلت لنفسي إن اميلي كانت الآن مثلها ، في قلب تلك المسافات البحرية الشاسعة ، مصبوبة الى الابد في القالب الذي كانت قد تلبسته في حياتها. وكان يتوقف علي ، لا على حلم او هلسته ، ان اجدها من جديد ، وان اتابع حوارنا الارضي ، على نحو هاديء بعد الآن . ولن يكون تحرري الا بهذا الثمن ، وكذلك لن تتحرر هي من عواطفني فتستطيع آنذاك ان تنحني علي كصورة جميلة مؤاسية .

وعزمت على ان اكتب هذه الذكريات ، وكلي امل ان اجدها ثانية في الطمأنينة والسلام .

انتهت



مؤلف هذه الرواية هو الكاتب الايطالي الشهير البرتو مورافيا صاحب رواية «السأم» التي نالت جائزة «فيارجيو» اكبر جائزة أدبية في ايطاليا. ويروي مورافيا في روايته هذه «الاحتقار» قصة زوج وزوجته ينشأ بينهما اول الامر سوء تفاهم خفيف ، ثم يصبح غير قابل للحل ، وتنتهي الزوجة الى احتقار الزوج ، من غير ان يدرك السبب . ويؤدي هذا الاحتقار ، الذي ربما كان بلا أساس ، الى نتائج فاجعة ، وبطل مورافيا هنا كاتب مسرحي اصبح كاتب سناريوهات سينمائية ، وقد أدى استغراقه مع زوجته في هذا الوسط الجديد الى التأثير على التفاهم الكامل الذي كان بينهما ، لاسيما بعد ظهور منتج الافلام الذي كان الزوج يعمل لحسابه ، والذي يبدو ان علاقة غامضة قامت بينه وبين الزوجة ، بعد احداث مشوقة .

وسيالاحظ القارئ الاسلوب البسيكولوجي والتحليل العميق الذي ادار المؤلف بهما الحدث الروائي على نحو يثير التشويق ويبعث على الفضول. وهنا تمكن في الحقيقة موهبة مؤلف «السأم» الذي يقدم في «الاحتقار» دليلاً جديداً على براعته الروائية .